بسم الله الرحمن الرحيم
لقد قام الطالب باصلاح الرسالة على ضوء الملاحظات التي أبديت عليه سد الجنة الناقشة
المشرف على الرسالة
١٤٠٢/٨/٢٨ د. محمد أبو شهبة

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا الشرعية
مكة المكرمة

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٤٨٧

قصة نوح عليه السلام

كما يصورها القرآن الكريم

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في فرع الكتاب والسنة

٤٨٧ ٠٠٢٤٨٧
جامعة أم القرى المكتبة المركزية
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

إعداد
علي عبد الهادي نجي

بإشراف
الأستاذ الدكتور / محمد محمد أبو شهبة

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

الاهـــــــــــداء

الى الوالدين الكريمين الذين كانا سبب وجودى فى هذه الحياة والذين أنعما علىّ من فضلهما الشىء الكثير ، وكانا سبب تربيتى التربية الاسلامية . وانني لا أطمع مهما حاولت فى رد بعض مالهما علىّ من جميل ولا أملك لهما الا الدعاء أن يمدّ الله تعالى فى عمر من بقى منهمـــا ، وأن يجعله ممن طال عمره وحسن عمله ويختم له بالصالحات ويوفقـــــه لما يحب ويرضى .

وأن يتغمد من مات منهما برحمته الواسعة ويسكنه فسيح جناتـــه وأن يجزيهما عنى خير الجزاء فى الدارين . .

انه سميع قريب مجيب .

((الخطبـــــــــــــة))

الحمد لله الذى ظهرت أدلة وحدانيته فيما خلق فأذعن لـــــه جميع خلقه بالطاعة والخضوع . قال تعالى : (ولله يسجد من فـــى السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال)(١) .
فكل مخلوق ينبىء من وجود اللـه تعالى ووحدانيته .

غير أن العقل البشرى عاجز من ادراك الطريق الصحيح الـــذى يوصله الى رضاء الله تبارك وتعالى ، كما أنه لا يهتدى الى معرفـــة صفات الله عز وجل مما يجب له أو يستحيل عليه .

وان طريق العبادة يظل العقل وحده قاصر فيه ، لذلك أرســـل الله تعالى رسله الكرام للناس مبشرين ومنذرين ومبينين لهم ما يتصـــف به من كمالات ، وما يستحيل عليه من نقائص .
وكما يوضحون لهم شرائعه كى ينتظم مسارهم فى معاشهم ومعادهـــم ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له . له الملك ولـــــه الحمد فى الأولى والآخرة .
وأشهد أن سيدنا ومعينا محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلـــم وعلى آله وصحابته والتابعين ومن تبعهم باحسان الى يوم الجزاء .
أما بعد : فقد اقتضت سنة الله عز وجل فى خلقه أنه منذ أن ظهـــر الحق على مسرح هذا الوجود اقترن معه وجود الاعداء - والخصـــوم المناوئين ، قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطيـــن الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا)(٢) .

---

(١) سورة الرعد ، الآية ١٥ .
(٢) سورة الأنعام آية ١١٢ .

وقال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين)(١)

وطريق الدعوة شاق وصعب ، تحفّه المخاطر ، ويحيط به صنوف الايذاء ، ولا بد فيه من الصبر الذى تتحطم على عتبته كل تلك العقبات كما قال لقمان عليه السلام لابنه : (يابنى أقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور)(٢)

فبالصبر يصل المرأ - باذن الله تعالى - الى غايته ومراده .

وهذا الطريق هو طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقد كان شيخ المرسلين نوح عليه السلام . الداعية الكامل فى هذا الميدان ، والمثل الأعلى فى الصبر على ايذاء الأعداء فى سبيل تبليغ دعوة الله تعالى .

فانه لم يتعرض نبى من الأنبياء قبله ولا بعده ممن ذكرهم الله لنا فى كتابه العزيز ما تعرض نوح عليه السلام من قومه من اعراض وايذاء طوال مكثه عليه السلام فيهم الف سنة الا خمسين عاما .

كما خص بأن يكون جميع الخلق من بعده من ذريته . قال تعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين)(٣)

---

(١) سورة الفرقان ، آية ٣١

(٢) سورة لقمان ، آية ١٧

(٣) سورة الصافات ، آية ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ .

شكر وتقـــــــــدير

احمد الله سبحانه وتعالى على اعانته وتيسيره ، وأشكره تبـــارك وتعالى على عظيم امتنانه وتوفيقه .

وأصلي وأسلم على سيدنا ونبينا ورسولنا محمد خاتم الانبياء والمرسليـن صلى الله عليه وعلى آله وصحابته وسلم تسليما كثيرا .

ثم أتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة أستاذى الجليل المشرف علـــى الرسالة الدكتور : محمد محمد أبو شهبة حفظه الله وعافاه الـــذى منحنى من وقته وجهده وأفسح لى فى بيته ، وأعاننى بابداء ملاحظاته القيمة وتوجيهاته الطيبة مما كان له أثر طيب فى اخراج هذه الرسالة ، فجزاه الله عنى خير الجزاء ، وأسأله تعالى أن يجعل ذلك من حسناته فى الميزان .

كما أقدم شكرى الجزيل لفضيلة عميد كلية الشريعة الدكتور : علـــى عباس الحكمى حفظه الله تعالى على ما يقدمه من خدمات جليلة للطلبة فى قسم الدراسات العليا خصوصا والكلية عموما ، فجزاه الله عنا خيرا .

وكذلك للقائمين باخلاص على أمر جامعة أم القرى التى أنشأت علـى قواعد الاسلام ولخدمة الاسلام ، أقدم لهم جزيل الشكر وحسن المثوبة .

وكذلك أتوجه بشكرى العميق لكل من ساعدنى ومد يد العون لـى فى انجاز هذا العمل ، فلهم جميعا منى عظيم الشكر والامتنان .

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزيهم عنى خير الجزاء . انـــه على ما يشاء قدير .

((المقدمـــــــة))

وتشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : في بيان السبب لاختياري موضوع الرسالة .

المبحث الثاني : في بيان منهجي في كتابة هذه الرسالة .

المبحث الأول :

لقد كان الباعث لي على اختياري الكتابة في هذا الموضوع : " قصة نوح عليه السلام كما يصورها القرآن الكريم " أن الناس عادة يميلون الى قصص الانبياء عليهم السلام مع أممهم ليقفوا منها على مواطن العبر والعظات ، فيعتبروا بعاقبة المؤمنين والكافرين ويتخذوا لانفسهم سبيل النجاة والفوز والفلاح . وليعتبروا أيضا حال أولئك الصفوة المختارة من الانبياء الاطهار - عليهم الصلاة والسلام . وكيف كانوا مع عظيم تقواهم لربهم تعترضهم العقبات والنكبات فيقابلونها بالصبر الجميل احتسابا لما عند الله تبارك وتعالى . فتسموا نفوسهم وتصفوا أرواحهم عند ما تضيق ذرعا بأعداء الله . قال تعالى : (لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب) (١)

ان الرسل عليهم السلام هم القدوة المثلى للبشرية جمعاء ، وان لكل رسول شرعة ومنهاجا يسير عليه ، ولكل رسول أسلوبه وخصائصه وطريقته في الدعوة .

---

(١) سورة يوسف ، آية ١١١ .

وان نبي الله ورسوله نوحا عليه السلام من ضمن أولئك الرجال البررة الذين اجتباهم الله تعالى لحمل رسالاته .

وانما الذي أدى بنا الى اختيار موضوع " قصة نوح عليه السلام " هو أنني كنت أحب أن أكتب قصة أحد الانبياء الكرام ، ففكرت بهذا الشأن أياما عديدة ، وكنت أستشير أساتذتي في ذلك كثيرا ، وفي آخر المطاف خطر ببالي قصة رسول كريم وأحد أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو شيخ المرسلين وأول رسول على وجه الأرض ، كما ثبت في حديث الشفاعة عند البخاري وغيره (١)

وهو نوح عليه السلام الذي أرسل الى قوم كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله تعالى ، وأنه أطول الأنبياء عمرا وأطولهم في الدعوة . لقد لبث في قومه مدة أكثر من تسعة قرون يدعوهم الى وحدانية الله تعالى ، فلم يلق منهم الا اعراضا وصدودا عن الدعوة . قال تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) (٢) وأنه مثال حي يحتذى في الدعوة ، وأنه عليه السلام مع حرصه على ايمان قومه ما آمن معه في هذه الفترة الطويلة الا قليل . قال تعالى : (وما آمن معه الا قليل) (٣)

وأنه عليه السلام قد تحمل من قومه في هذه المدة الطويلة جميع صنوف الاذى من ضرب وشتم وتهديد وسخرية واعراض . وهو لا ييأس من ايمان قومه ، وأنه صابر على ذلك أمام تلك التحديات .

ان صبر نوح عليه السلام وعدم يأسه من ايمان قومه عبرة للدعاة في الدعوة الى الله تعالى ، والله عز وجل أمر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) أنظر صحيح البخارش كتاب الانبياء ، باب ذرية من حملنا مع نوح ، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني جـ ٨ ص ٣٩٥

(٢) سورة العنكبوت آية ١٤ (٣) سورة هود آية ٤٠

بأن يصبر صبر أولى العزم من الرسل وقال : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) (١) والرسول محمد صلى الله عليه وسلم منهم واننى قد شرحت فيها المقصود من خيانة زوجة نوح ، وكما أوضحت بيان الحق فى ابن نوح الذى غرق مع الكافرين .

وان نوحا عليه السلام دعا على قومه بالهلاك بعد يأسه من ايمان قومه وذلك بعد اعلام الله له عليه السلام .

وأغرق الله الكافرين بالطوفان ونجّى نوحا والذين معه في السفينة ، قال تعالى : (فانجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين) (٢)

والمبحث الثانى :

وهو بيان منهجى فى كتابة هذه الرسالة .

كان منهجى فى هذه الرسالة اننى اعتمدت فيها على كتاب الله تعالى والسنة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التى وردت بشأن نوح عليه السلام . فلا أستشهد الا بآية من كتاب الله عز وجل ، أو بحديث صحيح ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم هناك بعض الأخبار وله علاقة بموضوع الرسالة غير أنى لم أقف له على شاهد يؤيده من كتاب الله تعالى .

فان كان مما ينكره العقل وكان المقام يستدعيه فاننى أذكره أما مايستنكره العقل ولا يستدعيه المقام فاننى أستغنى عن ذكره .

---

(١) سورة الاحقاف ، آية ٣٥ .

(٢) سورة الشعراء ، آية ١١٩ ، ١٢٠ .

وبذلك تكون الرسالة خالية من كل خبر ينافى العقل ولا يستدعيه المقام ، واذا كان الخبر منقولا عن أهل التفسير أو أهل التاريخ فى كتبهم بينت موضعه وعزوته الى قائله .

وانى شرحت الآيات التى وردت فى موضوع الرسالة شرحا مفصلا ، وأما الآيات التى ذكرتها للاستشهاد فقد شرحتها بشرح موجز وبينت الاسرائيليات الباطلة التى وردت فى ذكر السفينة وفى خلقة بعض الحيوانات من بعضها وغير ذلك .

وأسأله تعالى أن يجعل بحثى هذا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يحشرنى مع عباده الصالحين .

خطة البحث

وقد اشتملت هذه الرسالة على مقدمة وبابين وخاتمة .

أما المقدمة : فقد بينت فيها سبب اختيارى الكتابة فى موضوع الرسالة كما بينت فيها منهجى الذى انتهجته فى كتابتها .

أما الباب الأول :

ففى بيان ضرورة ارسال الرسل وبيان أصول أديان الانبياء ، ومقاصد القصص فى القرآن الكريم .

وهو يشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول :

فى بيان ضرورة ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

الفصل الثانى :

بيان أن أصول أديان الانبياء واحدة وشرائعهم مختلفة وأخذ الله الميثاق على النبيين والمرسلين أنهم ان جاءهم رسول مصدق لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه

الفصل الثالث :

مقاصد القصص فى القرآن الكريم ، وبيان الأسرار والحكم فى أن القرآن الكريم لم يسق القصص مساق التاريخ

وأما الباب الثانـــي :

فني حياة نوح عليه السلام ودعوته ، والأساس التي قامت عليها دعوته .

وهو يشتمل على سبعة فصول :

الفصل الأول :

بيان حياة نوح عليه السلام ونسبه ، ونشأتـــه وبيان عمره والمدة التي قضاها نوح عليه السلام في الدعوة الى الله تعالى .

الفصل الثانـي :

بيان الفرق بين النبي والرسول ، وبيان أن نوحا عليه السلام نبي ورسول ، ومتى أرسل نوح عليه السلام .

الفصل الثالث :

ذكر وبيان الأسس التي قامت عليها دعوة نوح ، وذكر الآيات التي استنبطها من هذه الأسس مع شرحهـــا .

الفصل الرابـــع :

في بيان أساليب نوح عليه السلام في الدعوة الى الله تعالى مع ذكر الآيات التي دلت على ذلك مع شرحهـــا .

الفصل الخامس :

أتناول بيان موقف قوم نوح منه وتكذيبهم له عليه السلام ، وبيان من آمن من قومه ومن أهلـــه وكما بينت المقصود من خيانة امرأة نوح له ، وأن الله نزه الانبياء الكرام أن تقع من زوجاتهـــم فاحشة ، مع شرح الآيات الدالة على ذلك .

الفصل السادس : يأس نوح من ايمان قومه ، ودعاء نوح عليهم بالهلاك أمر الله تعالى له بصنع السفينة ، ومرورهم وهو يصنعها وسخريتهم منه ، وبيان الاسرائليات الباطلة التى وردت فى ذكر سفينة نوح .

الفصل السابع : بينت فيه مصير قوم نوح ، ألا هلاك بالطوفان ، وبيان نجاة نوح ومن معه .

أكان الطوفان عاما أو خاصا ؟

أين يقع جبل الجودى الذى رست عليه السفينة ؟

وتعرضت للحوار الذى جرى بين نوح وابنه قبيل الطوفان وبيان المراد من قوله تعالى :

((يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح)) وشرح هذه الآية وبيان آراء العلماء فيها ، وبيان مفصل الحق فى ذلك .

وأما الخاتمة : فقد جعلتها لتخليص أهم الافكار التى وردت فى البحث .

البـــــــــــاب الأول

بيان ضرورة ارسال الرسل ، وبيان أصول أديان الأنبياء ومقاصد القصص في القرآن الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

يشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : بيان ضرورة ارسال الأنبياء والرسل ، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

الفصل الثاني : بيان أن أصول الأديان واحدة ، وشرائعهم مختلفة ، وأخذ الله الميثاق على النبيين والمرسلين - انهم ان جاءهم رسول مصدق لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه .

الفصل الثالث : مقاصد القصص في القرآن الكريم ، وبيان الأسرار والحكم في أن القرآن لم يسق القصص القرآني مساق التاريخ .

الباب الأول

الفصل الأول

بيان ضرورة ارسال الأنبياء والرسل ، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل

ضرورة ارسال الأنبياء والرسل :

ان ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام ضرورى ، والرسالة ضرورية فى صلاح العباد فى معاشهم ومعادهم ، ولا صلاح فى آخرتهم الا باتباع الرسالة ، فكذلك لا صلاح فى دنياهم الا باتباع الرسالة .

فالانسان مضطر الى الشرع ، والى هدى الله عز وجلّ . فانه بين حركتين - حركة يجلب بها ما ينفعه ، وحركة يدفع بها ما يضره ، وشرع الله سبحانه وتعالى كالنور الذى يبيّن ما ينفعه وما يضره ، فهو نور الله تعالى فى أرضه ، وعدله القويم بين عباده ، وحصنه الذى من تحصن به ودخله كان آمنا .

ان الغاية التى ينشدها المسلم من اسلامه تتنقل فى مراحل (١) ، الأولى : وهى السعى لتكميل النفس بالمعرفة ، وكمال النفس بالمعرفة من أعظم السعادات الانسانية . وذلك لا يتم الا بالتأمل والنظر السديدين اللذان يوصلانه الى معرفة الله تبارك وتعالى ، ومن عرف الله عز وجل حق معرفته فقد عرف صفاته .

وانه هو الخالق المنعم الذى ينعم على عباده ، والحكم الذى يحكم بين عباده بالعدل .

---

(١) أنظر كتاب العقيدة الاسلامية وأسسها ، للدكتور عبد الرحمن حبنكه الميدانى ، جـ ٢ ص ٤٥ وما بعدها ، الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ .

المرحلة الثانية :

وهي طلب السعادة ببلوغ كمال الخلق الانساني

ولا يتم ذلك الا بالتحقق بالأمور الآتية :-

١ - الايمان بالله عز وجل وصفاته العظمى .

٢ - الاعتراف اللساني للباري سبحانه بالربوبية والالوهية .

٣ - بحمد الله تعالى والثناء عليه بجلائل الصفات والنّعم .

٤ - بشكر الله تعالى على نعمائه ، وذلك بعبادته حق العبادة على الوجه الذي يرضى ، وبطاعته بأوامره ونواهيه على وفق مراده ، وبسلوك السبل التي حددها لعباده في الحياة وباتباع الشريعة التي ارتضاها لخلقه .

المرحلة الثالثة :

وهي : السعي لبلوغ الغاية القصوى التي هي السعادة الدائمة الخالدة في الدنيا والآخرة .

ولا تتحقق هذه السعادة الا بابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى في كل ما يستطيع الانسان من أقوال ، وأفعال ، وأفكار ، وارادات ، وعواطف ، وبذلك يحتاج الانسان فيها الى الرسل عليهم الصلاة والسلام للفت انظاره للحق والهدى ، وتسديد خطواته للوصول اليه من أقرب السبل .

حاجة البشر الى الرسل ، ومعرفة حدود الطاقة البشرية في الوصول في دروب حتى تتحقق للانسان السعادة ، والمصلحة التي ترضى الله عز وجل ، ولا يكون ذلك الا بعد معرفة أوامر الله تعالى ونواهيه

وقد اختار الله تبارك وتعالى للبشر جمعاء أقرب السبل لمعرفة

أوامر الله ونواهيه ، وذلك باصطفاء الله تبارك وتعالى الرسل من البشر ، يرسلهم لخلقه ، ويؤيدهم بالمعجزات الباهرات التى تبرهن للناس أنهم صادقون فيما يخبرون عن الله تبارك وتعالى .

ان الله تعالى قد اختارهم ، ليخبروا البشر جميعا - بأن من لم يتبع الرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، ويهتد بهديهم ، قد حق عليه الخزى من الله فى الدنيا ، وعقابه وعذابه الأليم فى الآخرة .

ضرورة ارسال الأنبياء :

قال ابن قيم (١) الجوزية فى ذلك ما نصه : ((الضرورة الى الرسل أعظم من ضرورة البدن الى روحه ، والعين الى روحها ، والروح الى حياتها ، فأى ضرورة وحاجة فوضت فضرورة العبد وحاجته الى الرسل فوقها بكثير ، وما ظنك بمن اذا غاب عنك هديه ، وما جاء به طرفة عين فسد قلبك ؟ فصار كالحوت اذا فارق الماء ووضع فى المقلاة ، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم ، ولكن لا يحسّ بهذا الا قلب حىّ ، وما الجرح بميّت ايلام (٢)

ومما سبق يتضح لنا حاجة الناس لرسل من عند الله تعالى ، يهدون البشر الى الطريق والصواب ، ويعرفونهم بطرق الحلال والحرام

ومن وظائف هؤلاء الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام أنهم يخبرون البشر بما أعدّ الله من ثواب فى جنّته للمؤمنين ، وما أعدّ من عقاب فى ناره للمنكرين العاصين .

---

(١) هو : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى الدمشقى المشهور بابن قيم الجوزية ، من أركان الاصلاح الاسلامى وأحد كبار العلماء ، المتوفى سنة ٧٥١هـ وقد ألف كتبا كثيرة فى العلوم المختلفة له ترجمة فى الاعلام للزركلى جـ٦ ص٢٨٠ ، ٢٨١ ، ومعجم المؤلفين جـ٩ ص١٠٦ ، ١٠٧ وطبقات المفسرين للداودى جـ٢ ص٩١ ، ٩٢

(٢) زاد المعاد فى هدى العباد لابن قيم الجوزية : جـ١ ص٢٧ تحقيق : محمد حامد فقى ، مطبعة السنة المحمدية .

ولا يمكن معرفة أوامر الله ونواهيه ، وطرق الحلال والحرام التي حددها الا من جهة الله تعالى .

وان الله تبارك وتعالى اختار أقرب السبل لمعرفة ذلك بأن أوحى لطائفة من البشر اصطفاهم لحمل رسالاته للناس ، وكلهم بالكمال الانساني وعصمهم من المعاصي والذنوب والانحرافات في السلوك .

وأنبيه سبحانه وتعالى صانهم عن الخطأ في نقل أحكام الله سبحانه وشرائعه للناس ، وأيدهم بتأييد من عنده .

ان الله تبارك وتعالى لو لم يرسل هؤلاء الرسل عليهم السلام مبشرين ومنذرين ، لكان للناس على الله حجة في دار الجزاء عند الحساب بأنه تعالى لم يرسل للعباد من يبلغهم أوامر الله ونواهيه ، وشرائعه لخلقه ، ويرغبهم بثوابه وينذرهم بعقابه حتى يعرفوا واجبهم نحو ربهم .

وفي هذا المقام جاء قوله تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) (١)

وقد أخبر الله عز وجل في هذه الآية الكريمة ، أنه تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ليبشروا من أطاع واتبع رضوانه بالخيرات ، وينذروا من خالف أمره تعالى وكذب رسله بالعقاب والعذاب ، وذلك لكي لا يكون للناس على الله معذرة يعتذرون بها يوم القيامة .

وارسال الرسل قطع معذرة الكفار ، ولو لم يرسل الله تعالى الرسل فيقول الكفرا ما أرسلت الينا رسولا ، وما أنزلت علينا كتبا .

---

(١) سورة النساء ، آية ١٦٥ .

قال الامام ابن جرير الطبرى فى تفسيره (١) : ((أرسل الله تعالى رسلا الى عباده مبشرين ومنذرين ، لئلا يحتجّ من كفر به تعالى وعبد الأوثان والأصنام من دون الله ، أو ضل عن سبيله بأن يقول ان أراد الله عقابه : يارب لو أرسلت الينا رسولا فى الدنيا كنا قد اتبعناه . وبذلك قطع الله عز وجل عذر كل مبطل ملحد فى توحيد الله تعالى وخالف أمره بجميع معانى الحجج القاطعة عذره ، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه (٢) .

قوله : ((وكان الله عزيزا حكيما)) أى : لا يغالب فى أمر من أموره ، وهو سبحانه حكيم فى جميع أفعاله التى من جملتها ارسال الرسل وانزال الكتب ، فان تعدد الرسل عليهم السلام والكتب ، واختلافها فى كيفية النزول ، وتغايرها فى بعض الشرائع والأحكام انما هو لتفاوت طبقات الأمم فى الأحوال التى عليها يدور فلك التكليف ، وأن الله تبارك وتعالى راعى فى ارسال الرسل عليهم السلام وانزال الكتب وغير ذلك من الامور المتعلقة بمعاشهم ومعادهم ما فيه مصلحتهم .

ان الله تبارك وتعالى لم يبين فى هذه الآية التى نحن بصددها

---

(١) هو : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى وهو من أهل آمل طبرستان ، سمع العلم بمصر والشام والعراق واستقرّ ببغداد وبقى بها الى أن توفى سنة ٣١٠هـ ، وكان عالما فقيها فى أحكام القرآن عالما بالسنن وطرقها .
وانظر ترجمته فى كتاب التفسير والمفسرون لحسين الذهبى جـ١ صـ ٢٠٠ ، والاعلام للزركلى : جـ٦ ص ٢٩٤ ، وطبقات المفسرين للداودي : جـ٢ ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) تفسير الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن للامام محمد بن جرير جـ٦ ص ٣٠ ، مصر : مطبعة مصطفى البابى الحلبى الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ .

ما هذه الحجة التى كانت تكون للناس عليه لو عذبهم دون انذارهم على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ولكنه بينها فى غير هذا الموضع (١)

قال الله عز وجل : (ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) (٢)

وكما أشار الله لها فى سورة القصص بقوله : (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) (٣)

ان الله تبارك وتعالى لا يعذب الناس ، ولا يحاسبهم الاّ بعد ارساله اليهم الرسل عليهم السلام ، ولذلك أشار الله عز وجل بقوله : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (٤)

يقول الله تعالى فى هذه الآية الجليلة : وما كنا مهلكى قوما الا بعد الاعذار اليهم بالرسل ، ومن حكمته عز وجل أنه لا يعذب أحدا حتى يسبق اليه خبرا ، ولا يعذب أحدا الا بذنبه الذى اكتسبه .

ان الانسان فى نفسه كتلة من الغرائز ، والدوافع التى تتطلب اشباعها بأية وسيلة ، فيه جميع الغرائز التى أودعها الله اليه ، منها : غريزة شهوة البطن والحواس ، وغريزة التملك والسيطرة وغيرها . ولهذه الغرائز انفعالات متعددة .

---

(١) أنظر تفسير أبى السعود ، ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن جـ ١ ص ٢٥٦ وما بعدها ، بيروت : دار احياء التراث العربى .
وصاحب هذا التفسير هو : أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادى الحنفى ، وهو تولى التدريس والقضاء ثم تولى أمر الفتوى بالقسطنطينية ، وله مصنفات كثيرة . توفى رحمه الله سنة ٩٨٢هـ
أنظر ترجمته فى التفسير والمفسرون جـ ١ ص ٣٤٥ ، والاعلام : جـ٧ ص ٢٨٨ ، ومعجم المؤلفين : جـ ١١ ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢

(٢) سورة طه ، آية ١٣٤ (٣) سورة القصص ، آية ٤٧

(٤) سورة الاسراء ، آية ١٥

وان كل غريزة فى الانسان تلحّ عليه داخليا بتحقيق مطالبها .

واذا ترك الانسان لنفسه من غير تنبيه الى واجبه تجاه ربه ، ومجتمعه قد يكون من الهالكين .

وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب اليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحب اليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه)) (١)

وهذا الحديث الذى بأيدينا جاء تفسيرا للآيات التى قد سبق ذكرها آنفا ، وهنا تقف فى وجهنا عثرة تكوين المربّى المصلح الذى يضرب المثل بنفسه فى صلاحه .

كما تتجلى القدرة على التربية والتهذيب ليكون الاسوة الصالحة وليتسلّم هو قيادة الآخرين وتهذيبهم بأقرب الطرق .

وان المصلح الذى يستطيع أن يحمل أسس الاصلاح ، يؤثر بها تأثيرا فعّالا . هو المعصوم المصلح الذى يتلقّى نظام الاصلاح ووسائله من عالم الغيب ، حتى يكون أسوة صالحة لغيره فى أفعاله وأقواله ، ويتجنب الأخطاء فى اصلاح الآخرين .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ، باب : ٢٠ ، رواه مسلم فى باب : التوبة ٣٥ ،
وكما رواه الامام الترمذى فى باب : الدعوات .

وهذا هو الرسول المعصوم الذى يرسله فاطر السموات والأرض ، والعالم بنفوس خلقه وبما ينفعهم وما يضرهم ، وهو بكل شىء عليم ، فلولا العصمة فى الرسول لأثّرت عليه بعض دوافعه وغرائزه ، فهوى وسقط فى بعض الرزائل ، وبذلك يكون قد فقد الصفة المهمة فى حياة المصلح ، وهو كونه الأسوة الحسنة الصالحة .

وان الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم أسوة حسنة لأممهم فى جميع العصور .

قال الله تبارك وتعالى فى حق الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أنه أسوة حسنة : (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) (١)

وأن جميع الانبياء والرسل عليهم السلام معصومون عن الخطيئات .

ولولا العصمة من الخطأ فى تحديد النظام المصلح ، وأسلوب التهذيب بواسطة تعاليم رب العالمين من شأنه ، لهوى فكر المصلح فى كثير من الخطيئات فى نظامه وأسلوبه متأثرا بعوامل النفس والشهوة

من هذا وذاك يتضح أن البشرية بحاجة الى الرسل المؤيدين بتأييد من عند الله سبحانه وتعالى ، وهم ينبهون الناس جميعا الى الخير ويرشدونهم الى الصواب .

لذلك أرسلهم الله تعالى الى عباده بحكمته على فترات .

أى : فى الأزمان والعصور المختلفة .

---

(١) سورة الأحزاب ،آية ٢١

ان الناس لا يستطيعون بأنفسهم أن يتوصلوا الى جميع الخيرات والفضائل الانسانية والكمالات الخلقية ، ويتفقوا عليها ، لأن عوامل غرائزهم وشهواتهم قد تصرفهم عن الحق والخير ، فتزين لهم الباطل والشر .

وعلى فرض امكان وصول الناس الى مجموعة الفضائل الانسانية ، انهم قليلا ما يستجيبون لتطبيق هذه الفضائل على أنفسهم متى ما عارضت شهواتهم وأهواءهم الخاصة مالم يخشوا عقوبة الله عز وجل العاجلة أو الآجلة ، أو يطمعوا في نفس الوقت بالمثوبة عند الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة .

ان العباد بحسب التقويم الذي فطرهم الله تعالى عليه قد خلقهم ليختبر ارادتهم وأعمالهم ، وليبلوهم أيهم أحسن عملا .

اذا ان الانسان جاء الى دار الدنيا للاختبار والامتحان .

وقد أشار الله تبارك وتعالى الى ذلك المعنى بقوله : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) (١)

فان مجموعة البشرية التي هي في أوائل التجربة الانسانية ، هي بحاجة للتقويم الخلقي والسلوكي الذي تقتضي ضرورة التعايش بينهم على الوجه الأفضل . وهم في هذه الأدوار لابد لهم حتما من الشرائع السماوية تضعهم في طريق الخير والاصلاح والفضيلة .

لذلك كان ارسال الرسل ضروريا ، والعباد جميعا بحاجة اليهم ولهديهم الذي يأتون من عند الله تبارك وتعالى . (٢)

---

(١) سورة الملك ، آية ٢ .

(٢) أنظر كتاب « العقيدة الاسلامية وأسسها » للدكتور عبد الرحمن حبنكة جـ ٢ ص ٤٨ وما بعدها .
الطبعة الأولى : ١٣٨٥هـ .

قال الشيخ محمد عبده في هذا المقام ما يلي :

((ان الله تعالى أخذ على نفسه ارسال الرسل رحمة بالناس ، اذ لو ترك الناس وشأنهم ما عرفوا طريق الحق ، والشياطين تقعد لهم كل مرصد ، وقد ركب الله في الانسان القوة الشهوية التي تدفعه الى اللذة الجسدية ، أو لذة جمع المال أو الجاه ، وركّب فيه كذلك القوة الغضبيّة التي بها يظلم ويطغى . والصراع دائم ما دامت الحياة ، وكل يريد الظفر وحده الا من عصم الله ، وقد جعل الله تعالى رسله وسيلة للتبصير والهداية ، وتلك مهمتّهم ، وقصور الانسان عما حولـه لا يخفى . فكيف بمعرفته بما غاب عنه ؟ فقد يظهر الخير شرا والشر خيرا .

نرى من ذلك أن ارسال الرسل اقتضته الحكمة الالهية ، ووجوب الحكمة في أفعال الله تتبع لوجوب الكمال في علم الله وارادته)) (١)

فالغرض الاساسي اذا من بعثة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه منذ بزوغ الرسالة الالهية من لدن نوح عليه السلام الى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو الهداية الى الله تعالى ، والتوحيد له بأنه لا شريك له ، والايمان باليوم الآخر الذي لا ريب في قيامه . جميع الرسل عليهم السلام جاءوا لهذا الغرض النبيل ، وبينوا لأقوامهم بأن الله واحد لا شريك له .

وجاء على لسان أول رسول على وجه الارض نوح عليه السلام قوله تعالى : (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) (٢)

---

(١) رسالة التوحيد ، للشيخ محمد عبده ، تحقيق محمد أبو ريّة ، مصر : دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، والشيخ محمد عبده هو : ابن خير الله ، مفتي الديار المصرية ، وله مصنفات وتوفي سنة ١٣٢٣هـ ، ترجمته في الاعلام للزركلي جـ٧ ص ١٣١

(٢) سورة الاعراف ، آية (٥٩)

وعلى هذا تتابع جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام .

العقل لا يكفي وحده على تحقيق السعادة الدنيوية والاخروية :

لو أن الانسان خلق عاقلا مجرّدا عن الاهواء والشهوات ، لاستقامت الامور وصلحت الأعمال ، ولأمكن للبشر أن يعيشوا أسرة متحابة متآلفة متعاونة . ولكن هذا الانسان الضعيف ركّب فيه الى جانب القوة العاقلة ، القوة الشهوانية والقوة الغضبية ، وهما قد تخرجان الانسان عن حد الاعتدال ، فتحملانه على انتهاك الأعراض ، والحرص على اكتساب الأموال من أية جهة كانت .
وكما تحملانه على سفك الدماء والغدر والظلم والتفنن في أنواع الشر

ولهاتين القوتين المذكورتين خطرهما الشديد لشدّة التجاوب بينها وبين النفس الأمّارة .
وقد تتغلبان على القوة العاقلة في كثير من الأحيان .

ولا يمكن لحكيم مهما بلغ من الرقي والمعرفة أن يضع تشريعا عاما يحقق جميع ما يحتاج اليه البشر في دنياهم ، وكما لا يمكن له أن يبين بالتفصيل أحوال الحياة الاخرى وما فيها من ثواب للمؤمنين ، وعقاب للكافرين ، لأنها حياة مغيّبة عنه لا يحيط بها الا علام الغيوب .

ان منزلة الرسل عليهم الصلاة والسلام من البشرية بمنزلة الروح من الجسد ، وهل يحي الجسد بدون روح ؟
اختلف العلماء في التكليف ، هل يتوقف كله على ارسال الرسل أم

يمكن أن يعرف كلّه أو بعضه بالعقل ؟

فقالت طائفة : لا يجب على أحد ايمان ولا عمل صالح ، ولا يحرم على أحد كفر ولا جرم ، ولا يستحق أحد ثوابا ولا عقابا على شيء الا من بلغته دعوة رسول قامت بها عليه الحجة ، فانه يكلف العمل بما جاء به حينئذ ، ولا يجازى الا على ما عمل .

وذهبت طائفة الى أن التكليف بعد بعثة الرسل عليهم السلام ما يتعدى ما جاءوا به لمن بلغته .

وأما من لم تبلغه دعوة ، فانه يمكن أن يدرك بعقله حسن الأشياء والأعمال وقبحها ، ويجب عليه أن يعمل الحسن ويترك القبيح .

والله سبحانه وتعالى يؤاخذه بحسب ما يدركه من ذلك العقل ، كما يؤاخذه بحسب ما يدركه بالشرع . . (١)

ان العقول والأفهام تظل في القصور عن استطلاع ما وراء هذا الكون المادي المحسوس من عالم الغيب ، حتى تأتيها رسالة الله تبارك وتعالى تدعوها للايمان بالملائكة والجن واليوم الآخر ، والجنة والنار ، والوقوف بين يدي الله العزيز الجبار ، لتناقش الحساب على ما اكتسبت من خير أو شر .

الهداية الى أمر الآخرة :

يرى الانسان اذا بعد عن الايمان بالله واليوم الآخر قد رانت على فؤاده الشهوات ، ودخلت على قلبه حب المادة ، واتخذ الغي لنفسه سبيلا .

---

(١) أنظر تفسير المنار ، للشيخ رشيد رضا ، جـ ٦ ص ٧٢ وما بعدها القاهرة : مطبعة الاستقلال الكبرى ، الطبعة السابعة ١٣٩٢هـ

فاذا وردت عليه النصائح ليكف عن الظلم أنكر أن يتلقى على عمله أي حساب ، وهؤلاء الذين لا يؤمنون بيوم الحساب ، وينكرون دار الآخرة والحساب على أعمالهم . جاء قوله تعالى بشأن هؤلاء المنكرون : (وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون) (١)

وما لهؤلاء المنكرون بذلك من علم ولا مستند على ما قالوا ، وامرهم الظن الباطل من غير أن يكون لهم دليل واضح .

فجاءت الرسالات الالهية تقيم الأدلة على اليوم الآخر .

والذى أوجد الانسان من عدم هو القادر على اعادة الحياة اليه بعد أن أماته . أشار الله الى ذلك بقوله سبحانه : (قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٢)

والله سبحانه وتعالى واهب الحياة متصف بالعدالة المطلقة والحكمة التامة ، فلابد أن يجعل البارى عز وجل يوما للحساب والجزاء يحشر الناس بعد موتهم ، فيحاسب كل واحد منهم على عمله فى الدنيا ، وينصب ميزان القسط ، ويأخذ حق المظلوم من الظالم .

قال تعالى فى هذا المعنى فى سورة الأنبياء : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (٣)

---

(١) سورة الجاثية ، آية ٢٤ .

(٢) ،، ،، آية ٢٦ .

(٣) سورة الانبياء ، آية ٤٧ .

ولولا الحساب في دار الآخرة لما كان للحياة في الدنيا معنى مقبولا . اذ تكون حينئذ سببا للظلم ، وهذا لا يعقل أبدا ، ومتناف مع حكمة الله تبارك وتعالى وعدالته .

لذلك نزلت الرسالات الالهية تخبر الناس أنه يوم كائن لا محالة .

فالبشر اذا محتاجون الى تعريفهم بهذا اليوم المحتوم ، لذلك كان الناس بحاجة الى الرسل الذين يأتون بالوحى من عند الله تعالى .

بيان العقوبات الزاجرة :

جاءت الرسالات الالهية بالتنفير من زخارف الدنيا ومتاعها المحرم ، وحذرت من الشر والفساد .

وهناك ضعاف النفوس ممّن تستهويه الشهوات ، فيقترف ما تسوّل له نفسه من مضار فردية كانت أو اجتماعية .

والله سبحانه وتعالى الذى فطر النفوس هو أعلم بما يصلحها أو يفسدها ، ولذلك أشار الله عز وجل بقوله : (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (١) ، فالله سبحانه وتعالى أعلم بالعقاب الزاجر المناسب لكل قبيحة يرتكبها الانسان فى حق نفسه أو غيره .

لذا فقد شرع الله عز وجل من أنواع العقوبات ما يصون به الانسان ويحفظ عليه ضروريات وجوده الانسانى .

والشريعة الالهية بما اشتملت عليه من معاملات وأخلاق وعقوبات ، جاءت تبين وتوضح للناس الحق من الباطل ، والخير من الشر .

---

(١) سورة الملك ، آية ١٤ .

لتظهر للأفق البشري دائرة الطيب متميّزة من الخبيث ، ويظهر أيضا للمرء ما ينبغي أن يفعل أو يترك ، وما يترتب على كل من ثواب ، أو عقاب .

وبذلك يمكن للنفس الانسانية أن تصفو من كدر نوايا السوء وفاسد الأعمال ، وتتوفّر لها أسباب بناء المجتمع الأخوى القوى السليم .

فالرسالة الالهية روح العالم ونوره المشرق وقوام حياته ، وأى خير للعالم أجمع عدمه ذلك كله ؟

وكيف له أن يصلح فساده المتأزم ؟

فالدنيا زاخرة بالشرور والآثام والفوضى والمظالم ، الا ما سطعت عليه أنوار شمس الرسالة الالهية . لذلك كان الناس بحاجة ماسة الى ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام .

فوائد بعثة الرسل :

هناك فوائد كثيرة من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ويمكن ذكر أهمها :

ان كثيرا من الحقائق العلمية التى لا غنى عنها لاصلاح العباد وتقويم سلوكهم فى الحياة ، والتى يبلغها للناس هم الرسل عليهم السلام المؤيدون من عند الله العليم الخبير . ولا يمكن للعقل البشرى أن يتعرف على هذه الأشياء بنفسه بالوسائل الانسانية العادية .

لذلك كان لا بد من أن يتعرف الانسان عليها عن طريق المتصلين بالوحى ، العارفين ما فى الغيوب بعد اخبار الله تبارك وتعالى لهم والمبلغين عن الله عالم الغيب والشهادة . وهؤلاء هم الرسل الكرام ولولا هم لبقيت هذه الحقائق العلمية الغيبية غير موضّحة .

ولبقى الناس غارقين فى بحور من الخرافات المختلفة حول تلك المغيبات التى ذكرناها . لهذه الأسباب وغيرها كان الناس بحاجة الى رسل الله لتبليغ رسالاته وبيان الحقائق الغيبية الى الناس جميعا .

ومن فوائد بعثتهم عليهم السلام الى عباد الله ، الاخبار بتفاصيل ثواب المطيع وعقاب العاصى ترغيبا فى الحسنات وتحذيرا عن السيئات.

ان العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك ما يرضى الله تعالى من الاعتقادات والأعمال ، حتى يفعله الانسان ليكون مثابا فى الآخرة . ولذلك لا يعرف ما الذى يغضب البارى عز وجل حتى يجتنبه لئلا يعرض نفسه للعقاب .

فالانسان محتاج أكثر من كل شى لمن يعرّفه ذلك بالتفصيل .

فالذين يخبرون بتفاصيل هذه الأشياء هم الرسل عليهم صلوات الله وسلامه الذين اختارهم الله تعالى من أكرم الناس انسانا وأطهرهم أخلاقا .

وأن البارى عز وجل قوى عقول رسله وأرواحهم لتكون مستعدة لتلقّى وحى الله تعالى شرائعه .

فلولا الرسل عليهم السلام لكان الناس همجا لا يتحقق العدل فى مجتمعاتهم .

وأن الله تعالى لم يترك الناس أحرارا فى اتباع الرسل ، أو عدم اتباعهم ، بل حكم بالكفر على من لم يطع الرسل وعصى أوامرهم وكفر برسالاتهم ، قال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) [١] ، أى : ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله ومن خالف أمره وعصى فكأنما عصى الله عز وجل ، لأن ، الرسل مبلغون عن الله تعالى .

---

(١) سورة النساء ، آية ٨٠ .

ولا توجد أمة انقادت الى رأى عاقلهم على انه الصواب ، أو عمل أهلها لما فيه المنفعة لعامتهم وخاصتهم ، أوانتهوا عنه لما يجلبه عليهم من مضار وأخطار لمجرد أن يأمرهم عاقلهم بذلك .

سواء هذا كان فيلسوفا أو سياسيا أو مصلحا اجتماعيا ، فان هذا لم يحصل فى أى زمان أو أى مكان ، وانما ينقادون لتعاليم الانبياء والرسل عليهم السلام . وفى عكس ذلك كان مصير الذين لم ينقادوا الى تعاليم الرسل مصيرهم الخزى فى الدنيا والعذاب والنكال يوم القيامة .

فاتباع الفلاسفة أقل من القليل .

أما اتباع الرسل فأكثر من هؤلاء بمئات المرات .(١)

هل يستوى هدى الرسول وهدى فيلسوف أو مصلح اجتماعى ، والرسول نور الله فى الأرض ، وقد يكون ذاك على الباطل تماما .

والى هذا أشار الله تعالى بقوله : (وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور)(٢)

وقد نبه القرآن الكريم الى المصلحة من ارسال هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام ، أشار الى ذلك بقوله سبحانه : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)(٣)

وأن الله تعالى قد صرح بأنه أنزل مع رسله الكتاب والميزان لاجل أن يقوم الناس بالقسط ، وهو العدل والانصاف .

---

(١) محاضرات للدكتور محى الدين الصافى ص ١٦ ومابعده

(٢) سورة فاطر ، آية ١٩ ، ٢٠ .

(٣) سورة الحديد ، آية ٢٥ .

وقال الله تعالى فى هذا المعنى أيضا فى سورة الشورى :

(الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) (١)

يبين البارى عز وجل فى هذه الآية الكريمة أنه هو الذى أنـــزل الكتاب فى حال كونه متلبّسا بالحق الذى هو ضد الباطل . والمراد بالكتاب هو جميع الكتب السماوية . كما أن الله أنزل الكتاب أنزل الميزان ، وهو العدل والانصاف .

روى : أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه الى نـوح عليه السلام ، فقال : مر قومك يزنوا به . (٢)

---

(١) سورة الشورى ، آية ١٧ .

(٢) أضواء البيان فى ايضاح القرآن بالقرآن ، تأليف : محمد الامين محمد المختار الشنقيطى . أنظر جـ ٧ ص ١٨٣ .
الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ .

الباب الأول

الفصل الثاني

بيان أن أصول أديان الانبياء واحدة ، وشرائعهم مختلفة وأخذ الله الميثاق على النبيين والمرسلين . أنهم ان جاءهم رسول مصدق لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه :

أصول أديان الأنبياء واحدة :

ان الدين الذى جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام هو عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له .

والتوحيد قديم منذ الأزل ، وهو أساس كل دين نزل على كل رسول ونبى ، والدين كله من عند الله تعالى من عهد أبينا آدم الى عهد خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة .

وبعد ذكر رسالة الأنبياء ودعوتهم تأتى تلك الحقيقة الناصعة التى أكدها القرآن الكريم ، ألا وهى وحدة الاله ووحدة الأمة . والى ذلك أشار القرآن بقوله تعالى : (ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)(١) . ويقرر الاسلام أنه دين الفطرة دين التوحيد الذى أوحى الله تعالى الى جميع رسله عليهم الصلاة والسلام .

وقد ورد فى الحديث فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء أخوة علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد))(٢)

---

(١) سورة الأنبياء ، آية (٩٢)

(٢) هذا الحديث رواه الامام البخارى فى كتاب الانبياء باب رقم ٤٨ ورواه مسلم فى باب الفضائل (١٤٣) . وأبو داود فى سننه (١٣)

وكلمة " علّات " فى الحديث بفتح العين وتشديد اللام .

وقال صاحب فتح البارى (١) : أصل هذه الكلمة ومعناها : أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنّه علّ منها ، والعلل الشرب بعد الشرب ، وأولاد العلّات الاخوة من الأب وأمهاتهم شتى ، .

ومعنى المراد من الحديث : أن أصل دين الأنبياء واحد وهو التوحيد وان اختلفت فروع الشرائع . (٢)

ان دين الله واحد ، ولا يقبل البارى عز وجل من أحد غير دين الاسلام ، والاسلام هو دين جميع الأنبياء والامم .

قال تعالى فى محكم كتابه : (ان الدين عند الله الاسلام) (٣)

وقال سبحانه فى السورة نفسها : (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) (٤)

ولا شك أن كل شريعة قامت على توحيد الله تبارك وتعالى ، وعدم الاشراك به

وأن العبودية لله الواحد القهار وليس لأحد سواه .

وكل رسول مبعوث دعا الى دين الله عز وجل ، لان دين الله واحد حقيقته التوحيد وجوهره الايمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله والايمان باليوم الآخر .

---

(١) هو : أحمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى ، أبو الفضل شهاب الدين المشهور بابن حجر ، وقد أقبل على الحديث ، أصبح حافظ الاسلام فى عصره . وكان عالما بالعلوم محدثا حافظا وألف كتبا كثيرة جدّا . وفى سنة ٨٥٢ توفى فى القاهرة .
أنظر ترجمته فى الاعلام ، للزركلى : جـ ١ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
ومعجم المؤلفين جـ ٢ ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى جـ ٦ ص ٤٨٩ . نشر وتوزيع ، رئاسة ادارات البحوث العلمية ، بالمملكة العربية السعودية

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٩ (٤) سورة آل عمران ، آية ٨٥

وقد أشار الله في كتابه العزيز الى تفرده في الألوهية ووحدانيته دون شريك بقوله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) (١)

وقلنا ان الاسلام هو دين الله لجميع الأمم ، أخبر الله تعالى على لسان أول رسول على وجه الأرض (٢) نوح عليه السلام بقوله سبحانه (وأمرت أن أكون من المسلمين) (٣)

وقال خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : وهو قوله سبحانه : (قل اني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين) (٤) . وهناك آيات كثيرة تدل على أن جميع الرسل عليهم السلام دعوا الى دين الاسلام الذى لا يقبل الله سواه .

كما سبق ذكره أن أصول الرسالات السماوية واحدة ، ولذلك نرى أن أسس رسالات الرسل ومبادىء دعوتهم واحدة ، لأنهم رسل مرسل واحد ، فلا خلاف في العقائد التى دعوا اليها ، ولا خلاف في روح العبادات التى أمروا بها .

كما لا خلاف في مبادىء التعامل المادى والأخلاقى التى نادوا بها .

وقد خاطب الله تبارك وتعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنه شرع لهذه الأمة من الدين الذى وصى به سائر الرسل من أولى العزم عليهم الصلاة والسلام .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٢٥ .

(٢) أن نوحا عليه السلام أول رسول على الأرض كما ثبت في البخارى ، ويأتى بيانه انشاء الله تعالى .

(٣) سورة يونس ، آية ٧٢ .

(٤) سورة الزمر ، آية ١١ ، ١٢ .

أشار الله عز وجل في سورة الشورى بقوله : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب) (١)

يقول الله عز وجل : شرع لكم يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من الدين ما وصى به نوحا ومحمدا وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ،

وانما خص هؤلاء بالذكر ، لأنهم من أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة .

ومعنى شرع : أي سن وأوضح لكم ، أي نهج وبيّن المسالك .

والشارع هو : الطريق الأعظم ، فقد شرع لهم يشرع شرعا . (٢)

ان الله لم يبعث نبيّا قطالاّ وصاه الله عز وجل باقامة الصلاة وايتاء الزكاة ، والاقرار لله بالطاعة فذلك دينه الذي شرع لهم .

ثم لمّا أمرهم باقامة الدين نهاهم عن الاختلاف فيه ، وأن الله أمر رسله بألا يتفرقوا ولا يختلفوا في التوحيد والايمان بالله وطاعة رسله الكرام ، وقبول شرائعه عز وجلّ .

فان هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع ، وتوافقت فيها الأديان ، واقامة الدين في الآية المذكورة التي نحن بصددها هو : الايمان

---

(١) سورة الشورى ، آية (١٣) .

(٢) أنظر تفسير القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، جـ٧ ص ٥٨٣٠ . القاهرة ، دار الشعب والامام القرطبي : هو : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الانصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسر الفقيه ، وله مصنفات كثيرة ، وتوفي رحمه الله سنة ٦٧١هـ ، وله ترجمة في التفسير والمفسرون . د . حسين الذهبي ، وطبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ، ص ٦٥ . ومعجم المؤلفين جـ ٨ ، ص ٢٣٩ كشف الظنون جـ ١ ، ص ٥٣٥ .

الكامل بالله واليوم الآخر ، والمحافظة عليه من الزيغ والخرافات ، والمواظبة على كل ما يتطلبه الشرع .

وأن ماشرع الله من الدين عظم على المشركين الكافرين ما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم اليه من التوحيد ورفض الأوثان .

كبر على المشركين شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له .

ولكن الله أبى الا أن ينصر كلمة التوحيد ويعليها ، ويظهرها على من عاداها .

وأنه تعالى يختار لتوحيده والدخول فى دينه من يشاء من عباده . (١)

ومن المعروف أن الاتفاق فى الدين والتوحيد خير من أن يتفرق الناس الى المعتقدات الباطلة ، فقد أشار الله عز وجل على لسان يوسف عليه السلام بقوله سبحانه : (ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) (٢)

ان الأمم قديمها وحديثها جميعا أمروا من قبل الله عز وجل باتفاق الكلمة واقامة الدين ، وما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم الحق والعلم بغيا بينهم وحسدا وعنادا وحبّا للرياسة ، لذا دعت كل طائفة الى مذهب باطل أو محرف وأنكرت ما عداه .

وأن سبب التفرق بعد مجىء العلم لهم ناشىء من البغى بينهم وليس ناشئا عن قصور فى الوسالات والحجج .

---

(١) أنظر تفسير فتح القدير ، الجامع فنى الرواية والدراية من علم التفسير للامام محمد بن على بن محمد الشوكانى ، جـ ٤ ص ٥٣٠ ومابعدها مصر: مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ كان رحمه الله مفسرا محدثا ومجتهدا ، تفقه على مذهب الزيدية وله تصانيف كثيرة . المتوفى سنة (١٢٥٠) هـ
وله ترجمة فى كتاب : التفسير والمفسرون ، حسين الذهبى جـ٢ ص ٢٨٥ . والاعلام جـ ٧ ص ١٩٠ ، ١٩١ . ومعجم المؤلفين : جـ ١١ ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

ان تفرق واختلاف الأمم السابقة كان مبعث ذلك هو عدم الايمان - المصحيح الكامل ، قال تعالى : (وما تفرّقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) (١)

والله سبحانه أمر جميع الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه وهو دين الاسلام - دين التوحيد . ما تفرق الأمم الا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة ، ولكن هؤلاء الضالون من طريق الحق فعلوا ذلك للبغي بغير الحق ، فصار ذلك سببا لوقوع الاختلاف .

لقد أمر الله عز وجل نبيه الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم ، بأن يقول لأهل الكتاب الذين ضلوا الطريق وهم يعلمون بأنهم ليسوا على الحق ، ولكنهم اتبعوا شهواتهم وأهوائهم الفانية الزائلة ، بأن يقول الرسول الكريم لهم كلمة الحق ، ويدعوهم الى توحيد الله تعالى لا شريك له ، وذلك قوله عز وجل . : (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) (٢)

وما نراه الآن على وجه الأرض من معتقدات كثيرة بين أتباع الرسالات السماوية صحيحة الأهل ، فانما ذلك من التحريف والتبديل الذى دخل الى مبادىء هذه الأديان ، ومن اتباع ذوى غايات سيئة حرّفوا وبدّلوا ، وفق شهواتهم وأغراضهم الخاصة . (٣)

---

(١) سورة الشورى ، آية ١٤ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٦٤ .

(٣) أنظر كتاب العقيدة الاسلامية وأسسها ، للدكتور عبد الرحمن حبنكة جـ ٢ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

ولو أن هذه الديانات السابقة بقيت على أصولها من غير تحريف ولا تبديل مما لا ريب فيه لالتقى متبعوها بصدق واخلاص مع المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم التقاء كاملا .

ولكان اتباع الديانات السماوية كلهم اتباع ملّة حنيفية واحدة .

ومن الأصول التي لا تتغيّر ولا تتبدّل في جميع الأديان ما علم من الدين بالضرورة ، وهي ما تسمى بالضروريات الخمس . (١)

وهي : حفظ الدين ، والعقل والمال والعرض وحفظ النسب .

وجاء في كتاب الحدود في الاسلام مانصه : (" ما من دين سماوي الا ويدعو الى الاعتصام بالدين والدفاع عنه والثبات عليه وعدم الالحاد فيه . وما من دين الا ويدعو ويحض على صيانة النفوس وتحريم سفك الدماء بغير حق ؛ وما من دين الا ويدعو الى المحافظة على صيانة الأنساب والأعراض ، وما من دين الا ومن مقاصده المحافظة على المنحة الربانية وهي العقل ، وما من دين سماوي الا ويحث على صيانة الأموال وعدم أكلها بالباطل ، واذا وجد عند بعض أهل الأديان السماوية ، أو في كتبهم ما يخالف ذلك ، فاعلم أن ذلك من تحريفاتهم وتبديلاتهم ، وشرائع الله بريئة من هذا لأن هذه الضروريات الخمس من الأصول التي لا تختلف باختلاف الشرائع ، ولا باختلاف الزمان والمكان ") (٢)

ان الله تبارك وتعالى قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأمره بأن يدعو الى الاتفاق على الملة الحنيفية ، والاستقامة عليها وعلى الدعوة اليها ، وكما نهى الباري عز وجل رسوله أن لا يتبع أهوائهم المخالفة

---

(١) أنظر تفصيل ذلك - التفسير الكبير ، للامام فخر الدين الرازي ، جـ٢٧ ، ص١٥٦ طهران : دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية والامام الرازي هو : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي المكري الطبرستاني الرازي المشهور ، فخر الدين ، شافعي المذهب ، كان اماما في التفسير والكلام والعلوم العقلية وعلوم اللغة وله تصانيف كثيرة ، المتوفى سنة ٦٠٦ وانظر ترجمته ، طبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ص ٢١٤ ومعجم المؤلفين جـ ١١ ص ٧٩ والاعلام : للزركلي جـ٧ ص ٢٠٣

(٢) كتاب الحدود في الاسلام للدكتور محمد أبو شهبة ص ١٢٧ القاهرة ١٣٩٤هـ

والى ذلك أشار الله تعالى بقوله سبحانه : (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهوائهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير) (١)

المعنى المراد : من قوله " وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب " يعنى الايمان بجميع الكتب المنزلة ، لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وأن اله الكل واحد ، وكما أن كل واحد مخصوص بعمل نفسه . فوجب أن يعمل كل واحد فى الدنيا بنفسه .

فان الله سبحانه وتعالى يجمع بين الأمم يوم القيامة ويجازى كلا على عمله . (٢)

---

(١) سورة الشورى ، آية ١٥ .

(٢) تفسير الرازى ، المسمى بمفاتيح الغيب ، للامام فخر الرازى جـ ٢٧ ، ص ١٥٨ وما بعدها .

شرائع الأنبياء مختلفة :

ومما سبق بيانه أن أصول أديان الأنبياء واحدة .

وهنا نبين بأن شرائع الأنبياء والرسل مختلفة .

ان الله تعالى أخبر أنه جعل لكل رسول من الرسل ولكل أمة من الأمم شريعة ، وأوجب لاقامة أحكامها منهاجا وطريقة للهداية ، وفرض عليهم سلوكه لتزكية أنفسهم واصلاحها .

لأن الشرائع العملية وطرق التزكية الأدبية تختلف باختلاف المجتمعات واستعدادات البشر . .

والى هذا أشار القرآن الكريم وهو قوله سبحانه : (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)(١) .

المعنى الاجمالي للآية الكريمة : أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم الى النبي بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، وهي الكتب المنزلة قبل الرسول صلى الله عليه وسلم شاهدا عليه ، وبعد هذا أمر الله تعالى سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله عليه من القرآن ، ونهاه أن يتبع أهواءهم بعد ما جاءه الحق المبين .

---

(١) سورة المائدة ، آية (٤٨) .

وقد بين البارى عز وجل بعد ذلك بأنه تعالى جعل لكل أمة من الأمم شريعة ومنهاجا .

معنى مهيمنا : شاهدا عليه ، وقيل معناه : أمينا عليه .

هيمن يهيمن هيمنة وهو مهيمن .

ان شرعة وشريعة هما فى المعنى واحد .

الشرعة والشريعة الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها الى النجاة .

وهى فى اللغة : الطريق الذى يتوصل منه الى الماء .

والشريعة فى الاصطلاح الشرعى : هى ما شرع الله لعباده من الدين .

والمنهاج معناه : هو الطريق الصحيح الواضح ، يقال : نهجت الى الطريق أى : أوضحته . (١)

قلنا : الشريعة هى الطريقة الى الماء .

شبه بها الدين لكونه سبيلا موصلا الى ما هو سبب للحياة الأبدية ، كما أن الماء سبب للحياة الفانية .

جاء فى تفسير بن كثير ما نصه : ((هذا اخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله من الشرائع المختلفة فى الأحكام المتفقة فى التوحيد ، قال تعالى : " ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)) (٢) وأما الشرائع المختلفة فى الأوامر والنواهى فقد يكون الشىء فى هذه الشريعة حراما ثم يحل فى الشريعة الأخرى ، وبالعكس ، وخفيفا فيزداد فى الشدة فى هذه دون هذه .

---

(١) أنظر تفسير القرطبى الجامع لاحكام القرآن ،للامام للقرطبى جـ ٣ ص ٢٢٠٨ .
وأنظر أيضا ، تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ص ١٤٤ ، تحقيق السيد أحمد صقر ، بيروت : دار الكتب العلمية ، وابن قتيبة هو : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، أبو محمد ، من أئمة الأدب سكن الكوفة ثم تولى قضاء الدينور مدة . وله تصانيف مفيدة . وله ترجمة فى : الاعلام للزركلى : جـ ٤ ص ٢٨٠ ،ومعجم المؤلفين جـ ٦ ص ١٥٠ ، ١٥١ . وطبقات المفسرين ، للداودى جـ ١ ص ٢٤٥ .

(٢) سورة النحل ، آية (٣٦)

وذلك لما له تعالى من الحكمة البالغة ، وأن الله تعالى شرع لكل رسول شريعة ، ثم نسخها أو بعضها برسالة أخرى ، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم الذى بعثه الى أهل الأرض قاطبة وجعله خاتم الأنبياء)) (١)

فقد ظهر لنا من أقوال المفسرين : أن الشريعة هى الأحكام العملية التى تختلف باختلاف الرسل ، وينسخ اللاحق منها السابق .

ان الله تبارك وتعالى جعل لكل الأمم الباقية والخالية شريعة ومنهاجا خاصين بتلك الأمة ، لا تكاد أمة تتخطى شرعتها التى عينت لها ، فالأمة التى كانت من مبعث موسى الى مبعث عيسى عليهما السلام شرعتها التوراة ، والتى كانت من مبعث عيسى الى مبعث النبى محمد صلى الله عليه وسلم شرعتهم الانجيل ، وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فشرعتها القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ،

كأنه قال : أما أنتم أيها الموجودون ، فشرعتكم القرآن الكريم ، فآمنوا به واعملوا بما فيه . (٢)

وليست الأمة مسئولة عن شريعة أمة أخرى . فاننا مثلا غير مخاطبين بالأحكام العملية التى شرعها الله عز وجل لقوم نوح ومن بعده من الأقوام ، الا أنها قد تتفق بعض الأحكام مثل حد الرجم عندنا وكما عند اليهود وما شابه ذلك . وموافقتها لبعض الشرائع فى بعض الأحكام كموافقتها لبعض القوانين الوضعية . فى كونها لا يصلح أن تكون سببا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، للامام ابن كثير : جـ ٢ ص ٦٦ ، بيروت: دار الطباعة ، دار المعرفة للطباعة والنشر ١٤٠٠هـ .
والامام ابن كثير هو: اسماعيل بن عمرو بن كثير بن ضو بن زرع القرشى البصرى ، ثم ، الدمشقى ، أبو الفدا ، عماد الدين ، شافعى المذهب ، فقيه ، مفسر ، مؤرخ ، حافظوله كتب كثيرة ، ومن مؤلفاته : تفسير القرآن العظيم ، البداية والنهاية فى التاريخ وكتاب طبقات الشافعية وغيرها ، أنظر ترجمته فى طبقات المفسرين للداودى جـ ١ ص ١١٠ ، ومعجم المؤلفين جـ ٢ ص ٢٨٣ ، والاعلام جـ ١ ص ٣١٧ .

(٢) أنظر تفسير أبى السعود ، للامام أبى السعود محمد بن محمد ==

لشرعها لنا ، فانما كنا مخاطبين بهذه الأحكام بنزولها علينا ، لا بكونها شرعت لمن قبلنا .

ومن قال : أن ماشرعه الله لنا هو عين ما شرعه لهم مناقض لقوله تعالى : ((لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)) الآية .

أما قوله تعالى : ((أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)) (١) فالخطاب في الآية الكريمة للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقد أمره الله عز وجلّ أن يقتدى بهدى الأنبياء الذين سبقوه عليهم الصلاة والسلام ، أن المراد بالاقتداء هنا هو موافقة النبى صلى الله عليه وسلم سنة هؤلاء الأنبياء الكرام وسيرتهم فى الأصول فى دعوة أقوامهم الى الدين والصبر على أذاهم ونحو ذلك من أخلاقهم الحسنة التى بينها الله تعالى فى سيرتهم . (٢)

ولو أراد الله تبارك وتعالى لجعل الناس جميعا أمة واحدة يحتكمون بشريعة واحدة متفقة على دين واحد فى جميع العصور من غير اختلاف بين أمة وأمة . لذلك أشار الله بقوله : ((ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم)) الآية ، سورة الأنعام ٩٠ المذكورة التى فى أيدينا .

المعنى المراد : لم يجعل الله تبارك وتعالى كل الأمم أمة واحدة ، بل شاء ما عليه السنة الالهية الجارية فيما بين الأمم ليعامل الأمم من يبتليهم ويختبرهم من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها وقرونها .

= العمادى ، جـ ٣ ص ٤٥ ، بيروت : دار احياء التراث العربى .

(١) سورة الأنعام ،آية (٩٠)

(٢) أنظر تفسير المنار ، للشيخ رشيد رضا . جـ ٦ ص ٤١٤ ومابعدها .

مخالف بين شرائع الأمم لأجل الاختبار والابتلاء ، ولكى يعرف سبحانه وتعالى المطيع منهم من العاصى .

وأنه تعالى يبتلى الأمم هل يعملون بها مذعنين لها مقتدين أن اختلافها بمقتضى المشيئة الالهية المبنية على أساس الحكم البالغة والمصالح النافعة لهم فى معاشهم ومعادهم ؟
أو ينحرفون عن الحق ويتبعون الهوى ويشترون الضلالة بالهدى . (١)

---

(١) أنظر تفسير الطبرى ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، للامام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى جـ ٦ ص ٢٨٠ .
وأنظر أيضا : تفسير أبى السعود ، لقاضى القضاة الامام أبى السعود محمد بن محمد العمادى جـ ٣ ص ٤٥ .

أخذ الله الميثاق على النبيين والمرسلين أنهم ان جاءهم رسول مصدق لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه

أخبر الله تبارك وتعالى أنه أخذ من النبيين أنهم كلما جاءهم رسول من بعدهم مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه مهما كانوا قد أوتوا من كتاب وحكمة .

لأن القصد الأساسى من ارسال الرسل واحد ، فيجب أن يكونوا متكافلين متناصرين ، فاذا جاء واحد منهم فى زمن نبى آخر آمن به السابق ونصره وصدقه .

ولا يلزم ذلك مجيء نبى نسخ شريعة الأول . أى : هو النبى المتقدم ان المقصود الحقيقى هو تصديق دعوته ، ونصره على من يؤذيه ويخالفه فان تضمنت شريعة النبى الثانى نسخ شيء من شريعة النبى الأول وجب التسليم له ، والا صدّق فى الأصول التى هى واحدة فى جميع الأديان السماوية .

ويؤدى كل رسول من الرسولين مع أمته العبادات والأحكام التفصيلية ولا يعد هذا اختلافا ولا تفرّقا فى الدين .

وان حال النبيين فى هذه الحالة يؤمن كل منهما بما جاء به الآخر مع الموافقة فى الأصول دون الفروع . لأنهما جاءا فى زمن واحد وأرسل كل منهما الى قوم . (١)

---

(١) أنظر تفسير المراغى ، لأحمد مصطفى مراغى ، جـ ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٠ القاهرة : مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده .
الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨٢هـ .

ونستطيع أن نمثل لما ذكرنا نبى الله لوط عليه السلام ، انه آمن بما جاء به ابراهيم الخليل عليهما السلام ، وأيده فى دعوته ، وقد كان فى عصره . وقد دل القرآن على أن لوطا عليه السلام آمن بابراهيم الخليل جاء ذلك بعد قصة نجاته من النار وهو قوله تعالى : ((فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم ووهبنا له اسحاق ويعقوب)) (١)

أما اذا كان الله عز وجل قد بعث رسولين فى أمة واحدة والى بلد واحد ، فانهما يكونان فى ذلك الوقت متفقين فى كل شىء على تحمل الواجبات والأحكام ، وذلك كما حدث لنبيين كريمين موسى وهارون عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

والى ذلك أشار البارى عز وجل فى كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بقوله : (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) (٢)

وبذلك نفهم معنى تصديق النبى صلى الله عليه وسلم بالكتب السابقة وبمن جاء بها من الرسل .

وليس معنى ذلك أن تفاصيل شريعته عليه الصلاة والسلام توافق تفاصيل شرائعهم .

وقد ثبت فى كتاب الله العزيز على أن الله تعالى قد أخذ الميثاق من أنبيائه بتصديق بعضهم بعضا ، وأخذ الأنبياء على أممهم

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة مريم ، آية ٥٢ ، ٥٣ .

قال الله عز وجل : (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنّه قال : أقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى ؟ قالوا : أقررنا قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولّى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون) (١)

المعنى المراد في الآية : يخاطب الله عز وجل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ويقول : أذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم وقت أن أخذ الله الميثاق على الأنبياء بتصديق بعضهم بعضا ، وأخذ الأنبياء على أممهم مهما آتيناكم أيها المخاطبون من كتاب وحكم ونبوة ، ثم جاءكم رسول هو خاتم الأنبياء والمرسلين مصدقا لما معكم لتؤمنّ به ولتنصرنه .

وقيل هذا الرسول المذكور محمد صلى الله عليه وسلم كما سبق .

ويكون المعنى : أن الله عز و جل أخذ ميثاق النبيين جميعا أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وينصروه ان أدركوه .

وكما أمرهم الله تعالى أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم . (٢)

وأن كل الأنبياء لم يؤتوا الكتاب ، وانما أوتى البعض ، ولكن الغلبة للذين أوتوا الكتاب .

والمراد : أخذ ميثاق جميع الأنبياء ، فمن لم يؤت الكتاب من الأنبياء ، فهو في حكم من أوتي الكتاب ، لأنه أوتي الحكم والنبوة .

وكذلك من لم يؤت الكتاب أمر بأن يأخذ بكتاب من قبله ، فدخل تحت صفة من أوتي الكتاب من الأنبياء عليهم السلام .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٨١ ، ٨٢ .

(٢) أنظر تفسير الطبري ، للامام محمد بن جرير الطبري جـ٣ ص ٣٣٢ وتفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، لأبي عبد الله بن أحمد الانصاري القرطبي جـ ٤ ص ١٢٤
والتفسير الواضح ، للدكتور محمد محمود حجازي ، جـ ٣ ص ٧٤ القاهرة : مطبعة الاستقلال الكبرى ، ١٣٩٢هـ .

قال الله تبارك وتعالى : لمن أخذ عليهم الميثاق : أأقررتم وقبلتم ذلك الذكر من الايمان بالرسول المصدق لما معكم ونصرته ؟ أى : هل قبلتم عهدى وميثاقى الشديد ؟

قال الأنبياء عليهم السلام : أقررنا .

انهم نطقوا بما يدل على ثبوته وقبوله ، ثم قال عقب ذلك : (قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) الآية . أى : اشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم ، وأنا معكم من الشاهدين لا يغيب على عن علمى شئ وقيل معناه : فليشهد كل واحد على نفسه .

ومعنى اصرى : أى عهدى ، وأصل الاصر الثقل ، فسمى العهد اصرا لأنه يمنع من الامر الذى أخذ له ، وثقّل وشدّد (١) ، وجاء فى موضع آخر فى أخذ الله الميثاق على النبيين ، وأنه تعالى خص بالذكر أولى العزم من الرسل عليهم السلام ، قال تعالى : (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) (٢)

انه تعالى أخبر عن أولى العزم الخمسة وبقية الأنبياء بأنه أخذ عليهم العهد فى اقامة دين الله تعالى وابلاغ رسالته .

ومن مقتضى ذلك الميثاق الذى أخذ الله على أنبيائه ، أن الأنبياء والرسل عليهم السلام متفقون ومتحدون جميعا فى دين الله تعالى ، فمن أعرض بعد هذا الميثاق والاقرار والتوحيد عن هذه الوحدة ، واتخذ الدين آلة للتفريق والعدوان ، ولم يؤمن بالنبى المتأخر المصدق لمن تقدّمه ولم ينصره ، وهؤلاء هم الفاسقون الخارجون عن حدود الله تعالى ، أولئك الذين كانوا يجحدون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويؤذونه .

---

(١) أنظر تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ص (١٠٧)

(٢) سورة الأحزاب ، آية (٧)

فاولئك هم الفاسقون الخارجون من ميثاق الله الناقضون لعهده تعالى وليسوا من دين الله فى شىء . والى ذلك المشهد أشار البارى عز وجلّ بقوله : (فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) (١)

وفى هذا الموضوع يمكننا أن نقول : اذا كان الدين واحدا ، والرسل الكرام متفقون فى الأصول العامة للأديان ، فما بال أهل الكتاب المعاصرين ؟ أيتولون بعد هذا البيان فيبغون غير دين الله الذى هو الاسلام ؟

وفى هذه الحقيقة يبدو أن الذين يتخلفون من أهل الكتاب عن الايمان بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومناصرة تأييده . .
تمسكا بدياناتهم لا بحقيقتها ، فان حقيقة دياناتهم تدعوهم الى الايمان به ونصرته مع أن رسلهم الذين حملوا اليهم الديانات قد قطعوا على أنفسهم عهدا ثقيلا مع ربهم فى مشهد عظيم جليل . .
انه لا يعرض عن اتباع هذا الرسول الا فاسق خارج عن دين الله تعالى (٢) .
ان الايمان بالدين الجديد واتباع رسوله ونصرة منهجه على كل منهج هو الوفاء الحقيقى بهذا العهد .

ولله سبحانه وتعالى استسلم من فى السماوات والأرض ، وخضعوا له وانقادوا لتصرفه تعالى بالتكوين والايجاد ، وهو المتصرف فيهم ، وهم الخاضعون له ، فكل ما يحلّ بالناس ان كان هذا عن رضى فهم طائعون ، وان كان من غير رضى فهم كارهون .
والى الله الواحد القهار يرجع من اتخذ غير الاسلام دينا من اليهود والنصارى وسائر الخلق ، وحينئذ يحاسبون أشد الحساب بسبب تركهم الدين الحق .

---

(١) سورة آل عمران ، آية (٨٢)
(٢) أنظر فى ظلال القرآن ، لسيد قطب جـ ١ ص ٤٢٠ وما بعدها بيروت : دار الشروق ، الطبعة الثامنة ١٣٩٩هـ .
والتفسير الواضح ، للدكتور محمد محمود حجازى جـ ٣ ص ٧٥

والى ذلك أشار الله عز وجل بقوله : (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون)(١)

وبعد هذا المشهد العظيم يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يعلن هذه الحقيقة كلها ، ويعلن أيضا ايمان أمته بجميع الرسالات التى جاء بها رسل الله الكرام ، واحترامها لجميع الرسل ومعرفتها بطبيعة دين الله الذى لا يقبل الله من الناس سواه .

قال تعالى : (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)(٢)

---

(١) سورة آل عمران ، آية (٨٣) .

(٢) " " " (٨٤) .

الفصل الثالث

مقاصد القصص في القرآن الكريم ، وبيان الأسرار والحكم في أنّ القرآن الكريم لم يسق القصص القرآني مساق التاريخ

أولا : مقاصد القصص في القرآن الكريم :

القصة لغة : من قصّ الشيء يقصه قصا وقصصا ، بمعنى تتبع الأمر وغاية ينتهي اليها من ذلك التتبع .

جاء معنى القصة لغة في تاج العروس ما نصه : ((قص الأثر يقصه قصّا وقصيصا وصوابه قصصا كما في اللسان .

وفي التهذيب : القص اتباع الأثر ، ويقال : خرج فلان قصصا في أثر فلان وقصّا ، وذلك اذا اقتصّ أثره ، وفي قوله تعالى : (وقالت لأخته قصيه)[1] أي : تتبعي أثره .

وقيل : القص تتبع الأثر شيئا بعد شيء .

وقيل : القص هو : تتبع الأثر بالليل ، والصحيح في أي وقت كان .

وقص عليه الخبر قصصا ، أي : أعلمه به وأخبره ، ومنه قص الرؤيا ، يقال : قصصت عليه الرؤيا : أقصّه قصّا ، ومنه قوله تعالى : ((فارتدا على أثرهما قصصا))[2] أي : رجعا من الطريق الذي سلكاه ، يقصان الأثر أي يتبعانه .

والقاص : هو الذي يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر ، أو سوقه الكلام سوقا))[3]

---

(١) سورة القصص ، آية ١١ (٢) سورة الكهف ، آية ٦٤ .
(٣) تاج العروس ، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسيني الزبيدي الملقب بمرتضى اللغوي النحوي ، المحدث الأصولي الأديب الناظم ، الناثر ، المتوفى سنة (١٢٠٥) جـ٤ ص ٤٢١ ، وله ترجمة في معجم المؤلفين جـ ١١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .
والاعلام : للزركلي جـ ٧ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

وقال صاحب كتاب لسان العرب : القصص الخبر المقصوص .

القصة : الأمر والحديث . واقتصصت الحديث أى : رويته على وجهه .

وقيل القصة : هى الجملة من الكلام . يقال : فلان فى رأسه قصة ، أى : جملة من الكلام .

والقصص : بفتح القاف ، اسم على الخبر المقصوص ، وضع موضع المصدر

والقصص : بكسر القاف جمع القصة هى : التى تكتب . (١)

معنى القصة فى الاصطلاح :

هى تعبير عن معان نفسية بأساليب متنوعة لها وجود فى الواقع ، وليس لها وجود فيه ، قصد بها غاية معينة أو لم يقصد .

والقصة القرآنية مع غايتها الدينية المقصودة للعظة والاعتبار تعدّ قصة أدبية واقعية من حيث الأسلوب والصدق .

وكلمة القصة جاءت فى عدة مناسبات فى القرآن الكريم بما يؤدى المعنى الذى تتطلبه . قال الله عز وجل فى قصة يوسف عليه السلام : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن) (٢) وقوله تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا ومنهم من لم نقصص عليك) (٣)

وقوله تعالى أيضا : (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد) (٤)

وكما جاء فى قوله سبحانه : (انّ هذا لهو القصص الحق) (٥)

وغيرها من الآيات الكريمة التى وردت فى كتاب الله تعالى فى هذا الموضوع

---

(١) أنظر لسان العرب لابن منظور ، جـ ٧ ص ٧٣ .
وابن منظور هو : محمد بن مكرم بن على جمال الدين بن منظور الانصارى ، وهو الامام فى اللغة وألف كتبا كثيرة ، توفى سنة ٧١١ هـ بمصر ، وله ترجمة فى الاعلام للزركلى جـ ٧ ص ٣٢٩ ، ومعجم المؤلفين جـ ١٢ ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) سورة يوسف ، آية (٣) (٣) سورة المؤمن ، آية (٧٨)

(٤) سورة هود ، آية (١٠٠) (٥) سورة آل عمران ، آية (٦٢)

مفهوم القصة فى القرآن الكريم :

ان القرآن الكريم قد سمى الأحداث والوقائع قصصا .

وللقصة فى القرآن الكريم مفهوم يحدده ما ورد فيه من أنباء خاصة سيقت على وجه العبرة والعظة للمؤمنين المصدقين ، والردع للمكذبين الضالين .

فالقصة فى نفس الوقت توجه الصادقين الى الثبات على الحق والاستزادة من عمل الخير ، وتصف الذين كذبوا بالحق عن الباطل والشرك وكل أنواع الشر بقدر ما فيهم من استعداد وتهيؤ .

والقصة فى كتاب الله العزيز محدودة فى الدائرة التى علم الله تعالى حاجة العباد الى المعرفة بمضمونها ، وذلك كأنباء الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم مثل ، أو غير أقوامهم ، مثل أنباء غير الأنبياء فى تلك الدائرة بقدر الحاجة .

ان القصص القرآنى تتبع أحداثا ماضية واقعة - تعرض منها ما ترى عرضه ، وعلى ذلك كانت تسمية الأخبار التى جاء بها القرآن الكريم قصصا واذا نظرنا فى القصص القرآنى نجد أنه يأتى بأخبار كلها من الماضى البعيد - دون أن يكون فيه شيء من الواقع الحال ، أو متوقعات المستقبل ولذلك فهى من أنباء الغيب التى أخبر الله بها رسوله الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم . (١)

---

(١) أنظر بحوث القصص القرآنى ، السيد عبد الحافظ عبد ربه ، ص ٤٤ ، ٤٥ . بيروت : دار الكتب اللبنانى .
وكتاب / القصص القرآنى فى منظومه ومفهومه ، لعبد الكريم الخطيب ص ٤٤ وما بعدها ، بيروت : دار المعرفة للطباعة ١٩٧٥م

ليس من وظيفة القصة فى القرآن الكريم تصوير الأحداث الدائرة فى محيط الدعوة ، ولا تصوير الأحداث المستقبلة التى تتنبأ بانطلاق هذه الدعوة وظروفها عبر المستقبل وعلى مدى الأيام .

وذلك لأن القرآن الكريم فى منهجه وأغراضه قد تكفّل بكل هذه الأحداث الدائرة والمستقبلة بعيدا عن أسلوب القصص .

وتولى بالضرورة كشف النقاب ورفع الغطاء عن كثير من الحوادث وقت نزول ترتيله .

ان القصة فى القرآن الكريم تختلف عن القصص الأدبى وغيره فى الوصف وفى غيره . فالقصة فى القرآن الكريم صدق بكل كلمة فيها ، وبكل جملة من تراكيبها ، أما غير القصص القرآنى فلا يلتزم فيه ذلك ، فانه يتخللها كثيرا ما لا يطابق الواقع للحاجة اليه فى ترويج أمر ، أو مبالغة فى تصوير شىء ، وهكذا .

ان مقاصد القرآن فى أعلى درجات السمو والرفعة ، فهو كتاب هداية من عند الله العليم الخبير الذى لا يخفى عليه شىء ولا يعجزه أمر .

أنواع القصص فى القرآن الكريم :

يمكن حصر أنواع القصص فى القرآن فى ثلاثة :

١ - قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وقد تضمّنت دعوتهم الى قومهم ، والمعجزات التى أيدهم الله بها ، وموقف المعاندين من أقوامهم ومراحل دعوة الأنبياء والرسل وتطورها ، وعاقبة المؤمنين الصادقين وعاقبة المكذبين الضالين ، كقصة نوح وابراهيم وموسى وهارون وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وغيرهم من الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم .

٢ - النوع الثانى : القصص القرآنى فى الذى يتعلق بحوادث غابرة وأشخاص لم تثبت نبوتهم ، كقصة طالوت وجالوت ، وقصة ابنى آدم عليه السلام ، وأصحاب الكهف ، وذى القرنين ، وقارون وأصحاب السبت وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل ونحوهم .

٣ - أما النوع الثالث من أنواع القصص فى القرآن الكريم ، فهو قصص يتعلق بالحوادث التى وقعت فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كغزوات الرسول مثل : غزوة بدر ، وأحد ، وغزوة حنين وتبوك والأحزاب وكذلك الهجرة والاسراء والمعراج ونحو ذلك من الوقائع .

منهج القرآن الكريم فى قصصه :

والقرآن الكريم عندما يعرض قصص الأنبياء عليهم السلام وغيرهم يأخذ مواد القصص من أحداث التاريخ ووقائعه ، لكنه يعرضها عرضا أدبيا ، ويسوقها سوقا عاطفيا يبين المعانى ويؤيد الأغراض ويؤثر بها التأثير الذى يجعل وقعها على النفس يستثير فيها العاطفة والوجدان ، ويخرج القصة من الدائرة التاريخية الى الدائرة الدينية .

ومن هذا الاتجاه الذى يقصده كتاب الله العزيز لا يصح حينئذ أن يقال : ان القرآن الكريم لا يتناول القصة من جميع أطرافها .

ذلك أن القرآن الكريم يأخذ من القصة ما يحقق من التهذيب والوعظ فبعض الأحيان يقص القصة كلها مرتبطا بعضها ببعض فى تسلسل واتساق يرتبط السابق منها بلاحقه حتى تصل القصة الى خاتمتها . .

كما نراه فى سورة يوسف عليه السلام ، ان قصته عليه السلام تبدأ من أول السورة وتستمر بلا فاصلة وبأسلوب مشوّق الى نهاية السورة ، وفى معظم الأحيان يأخذ من القصة بعضها ، لأن فى هذا البعض ما يحقق الهدف

قصص الأنبياء :

ان تاريخ الأنبياء والرسل عليهم السلام تاريخ عظمة وجلال . وحياتهم كلها حياة كفاح ونضال .

لا يستطيع البشر جميعا غير الرسل مهما أوتوا من قوة وعقل أن يدركوا شأن الأنبياء ادراكا كاملا أو يصلوا الى ما وصلوا اليه من سمو فى النفس وكمال فى الخلق وزهد فى الدنيا .

وأنهم قدموا تضحيات فى سبيل الله من أجل اعلاء كلمته وتبليغ دعوته ونشر رسالة الحق .

وحياتهم مليئة بأنواع البطولات وألوان الصبر والشجاعة النادرة التى قلما يجد الانسان مثلها فى تاريخ أى شخصية أخرى .

لأن الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه صنعوا على عين الله عز وجل ، كما قال تعالى لموسى عليه السلام : (وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى) (١)

ان رسل الله عليهم السلام كانت حياتهم مليئة بالجهاد ضد الباطل والصمود وراء الحق وتحمّل الأذى فى سبيل الله تعالى .

لأن البارى سبحانه قد منحهم من العزائم والهمم الذى يعجز عنه الأقوياء من الرجال العظام . (٢)

وكانوا عليهم الصلاة والسلام أهلا لقيادة الأمم والشعوب ، ولهداية البشرية الى طريق الحق والصواب .

---

(١) سورة طه ، آية (٣٩) .

(٢) أنظر كتاب النبوة والأنبياء ، للشيخ محمد على الصابونى ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ .

الحكمة والغاية من قصص الأنبياء والرسل :

هناك حكم كثيرة من قصص أنبياء الله ورسله عليهم السلام ، نستطيع أن نذكر أهمها :

ليست الغاية من ذكر قصصهم الا أن يتخذ الدعاة الى الله والمصلحون ، من سيرتهم العطرة طريقا يستضيئون بضيائه ويهتدون بهديه وأن يسيروا على نهج هؤلاء الرسل الكرام ، فيجعلوهم القدوة الحسنة في جميع التصرفات والأعمال .

وأن يكون امام الدعاة المثل الأعلى من حياتهم .

لا يكون الغرض الأساسي من ذكر القصص في القرآن الكريم التسلية أو الترفيه عن النفس فقط ، وانما الغرض الحقيقي والاساسي من ذكر القصص العظة والعبرة للناس ، والى ذلك أشار الله تبارك وتعالى بقوله : (لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الألباب) (١)

كما أشار الله تعالى في آية أخرى الى ضرورة الاستفادة من قصص كتاب الله العزيز بالتفكر والتدبر والسير على منهاج الرسل عليهم السلام قال تعالى : مخاطبا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) (٢) ، المعنى : فاقصص يا محمد صلى الله عليه وسلم على المكذبين قصص الكفار الذين خلوا لعلهم يتفكرون . فيقفون على جلية الحال وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال .

ان الغرض من قصص الأنبياء تثبيت الدعاة الى الله على الدعوة والسير فيها وتقوية عزائمهم باطلاعهم على سيرة الأنبياء الأطهار وما تحملوه من أنواع الأذى في سبيل الله تعالى ، وقد بين الباري عز وجل الغرض الذي ذكرناه بقوله : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) (٣)

---

(١) سورة يوسف ، آية (١١١) (٢) سورة الأعراف ، آية (١٧٦)

(٣) سورة هود ، آية (١٢٠) .

وحينما جاء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بهذه القصص الرائعة عن الأنبياء عليهم السلام وبعض الأحداث التي وقعت في الماضي بهذا البيان والتفصيل المحكم ، وهو النبي الأمي ، ومع ذلك كان عليه السلام يقدم على قومه هذه القصص هو أعظم دليل على أن ما يأتي به هو وحي الهي من لدن حكيم خبير .

وقد أشارت بعض الآيات القرآنية الى ذلك ، قال تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين) (١) وقوله سبحانه أيضا : (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) (٢)

من الذي علم هذا النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم هذه الحقائق الغيبية ؟ انما علّمه الله فاطر السماوات والأرض وهو بكل شيء عليم .

أسلوب العرض القصصي في القرآن الكريم :

الملاحظ في القصص القرآني أنه التزم طريق الرواية . بأنك انما تسمع أخبارا قد ذهب أشخاصها في التاريخ ، وانتهى دورهم في الحياة ، وانها في هذا العرض ما هي الا بعث جديد جاءت تسعى اليك ، أو أنك في رحلة زمنية عبر القرون الماضية اليها ، فهي غائبة وحاضرة في نفس الوقت ، تحدّثك بلسانها .

---

(١) سورة يوسف ، آية (٣) .

(٢) سورة هود ، آية (٤٩) .

وهذه أمارة من أمارات الصدق الذى لا يتلبّس به شيء أو يدخل عليه لون من ألوان الخداع أو التخييل .

وهذا مالا يليق بمقام القرآن المجيد وبجلاله . حيث يرتفع مقام القرآن الكريم وجلاله من أيّة شائبة تمسّ الحق الذى نزل به أو تعلق به ، ويشهد لذلك قوله تعالى : (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) (١)

ان القصص القرآنى هو بعث الآثار التى مضت ، أو قص الأخبار التى ذهبت ، فاذا عرضها عرض بهذا الاسلوب الغيبى الذى لا يملك من شارك فى هذه الأحداث من أشخاص وأشياء أن يظهر عيانا ، أو يتحدث فى حضور - الا أن يكون ذلك عن طريق التخييل والتمثيل .

وهنا يبدو سر من أسرار هذا التدبير الحكيم فى التزام هذا الصدق وتصفية المواقف التاريخية من كل ما يشوبها ، ويعرض وقائعها للشك والارتياب .

ذلك أن أسلوب الرواية الذى التزمه القصص القرآنى يقيم مشاعر الانسان وأحاسيسه مع الأحداث التى تروى على مقام واحد منها .

وهو أنه يسمع أخبارا ، وأن هذه الأخبار تأتى من جهة عالية .

ولا يمكن أن يأتى الشك والارتياب من جهة القرآن الكريم وأخباره التى يحدث بها ... ، وهذه الأخبار من عند الله الذى تنزّهت أسماؤه وأخباره عن كل باطل يخالف الصدق . (٢)

اذا لم يكن الذين يستمعون الى القرآن والى قصصه وأخباره يؤمنون بالله تعالى فان فى آيات القرآن الكريم برهانا ذاتيا يقوم منها شاهدا على أن القرآن هو كلام الله تعالى ، ولا يمكن لبشر أن يأتى شيئا مثله قال تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (٣)

---

(١) سورة الاسراء ، آية (١٠٥)
(٢) أنظر كتاب القصص القرآنى ، لعبد الكريم الخطيب ص ٨١ ومابعدها
(٣) سورة الاسراء ، آية (٨٨)

التكرار في قصص القرآن الكريم :

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع .

فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن ، وتعرض في صور مختلفة في التقديم والتأخير ، لأن التكرار في القرآن الكريم موجه الى صميم العقيدة أكثر من سواها ، وكان تأكيده لحقيقة التوحيد بتكرره اياها في صور متنوعة ، وابرازها في القصص والأمثال على الخصوص من أهم العوامل في تقريرها وترسيخها .

ان القرآن الكريم لم يكرر من القصص أو من حلقاتها الا ما كان أشد تجاوبا مع بيئة الدعوة ، وأكثر استجابة لأهدافها وخدمة لأغراضها .

مثل : قصص آدم ونوح وابراهيم ولوط وهود وصالح وشعيب وموسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام .

ومما يؤيد ذلك ويقويه انا لا نجد تكرارا في غير قصص الأنبياء ، كقصة أهل الكهف ، وقصة العبد الصالح الذي ذكر مع موسى عليه السلام في سورة الكهف ، وقصة ذي القرنين الذي اختلف في رسالته ونبوته وغيرهم كما أنه لم يكرر ولم يذكر من قصص الأنبياء عليهم السلام الا ما يقوى عزيمة الدعاة الى الله تعالى ، ويثبت قلوبهم وينير طريقهم .(١)

حكمة هذا التكرار :

نجد حكما كثيرة لتكرار القصص القرآني ، يمكن حصر أهمها في نقاط :

أولا : بيان بلاغة القرآن واعجازه في أعلى مراتبها ، فمن خصائص البلاغة

---

(١) أنظر كتاب : مباحث في علوم القرآن ، لمؤلفه : مناع القطان ، ص (٣٠٧) بيروت . مؤسسة الرسالة .
وكتاب ، سيكلوجية القصة في القرآن ، دكتور : التهامي نقرة ، ==

ابراز المعنى الواحد في صور مختلفة ، والقصة المتكررة تعرض في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الأول ، وتصاغ في قالب غير الأول .

ان الانسان لا يملّ من تكرار القصة أبدا ، بل تتجدّد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الاخرى .

ثانيا :
ـــــ الاهتمام بشأن القصة لتمكين معاني العبرة في النفس .

فان التكرار من طرق التأكيد وعلامات الاهتمام . كما هو الحال في قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون ، لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل ، مع أن القصة تلك لا تتكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها .

ثالثا :
ـــــ ومن حكم تكرار القصة في القرآن الكريم : اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة . فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام ، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال .

جاء في كتاب سيكلوجية القصة في القرآن ما نصه : ((اذا تتبعنا مواطن التكرار في قصص القرآن يمكن استخلاص مبرّراته وأسبابه .
ولقد تكررت قصة آدم وابليس ، وتكررت قصة نوح عليه السلام ، لأنه هو الرائد الأول للرسل ، ودياناته أقدم الديانات . فكان أول رسول بعث الى أهل الأرض (١) ، وكان قومه يعبدون الأصنام دهرا طويلا .
فقد جعل الله تعالى ذرية نوح عمّارا لهذه الأرض وخلفائها ، وشاء الله أن يبقى ذكره في الأجيال الى آخر الزمان .

فتكرار القصة في عدة سور بأساليب مختلفة انما يهدف الى تمكين هذه السنن في النفوس وتثبيتها في القلب ، حتى تقوى عزيمة الاصلاح عند المصلح ، فلا يجد اليأس سبيلا اليه)) (٢)

== ص (١١٦) وما بعدها ، الشركة التونسية لفنون الرسم ١٩٧٤م
(١) ان نوحا عليه السلام هو أول رسول على الأرض . وقد ثبت في الصحيحين في حديث الشفاعة ، سيأتي ذكره ان شاء الله تعالى .
(٢) سيكلوجية القصة في القرآن ، للدكتور التهامي نقرة ص ١١٦

لماذا التكرار في القصص القرآني ؟

والذي نشهده في القصص القرآني في عرض القصة في معارض كثيرة حيث تستدعيها الأحداث والمواقف .

نجد بعض الشخصيات تأخذ مواقف متعددة في القرآن الكريم . وذلك في أزمنة متباعدة في عرض القرآن لها حسب نزوله .

ولو كانت الشخصية مقصودة قصدا أصليا في القصة لذكرت أحداثها ومواقفها في معرض واحد .

كنا نجد قصة نوح عليه السلام مثلا في سورة واحدة ، وكذا قصة ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام .

ولكن الذي كان هو : أننا نشاهد الشخصية مع حدث من الأحداث - تتفاعل معه وتمضي به الى غايتها ، ثم ينتهي المشهد . حتى اذا مضى زمن - طال أو قصر - شاهدنا وجه الشخصية من جديد مع حدث آخر يأخذ دوره معه ، ثم يمضي ، وهكذا .

وعلى هذا فان التكرار الذي يقال عنه في القصص القرآني ليس تكرارا للحدث ، ولا اعادة للواقعة بصورتها التي عرضت أولا ، بل ان أكثر القصص القرآني تتكرر فيه الشخصية ، ولا تتكرر فيه الحادثة نفسها .

وانما الذي دعا الى القول بالتكرار في القصص القرآني هو : ظهور الشخصية في مواقف متعددة .

اذا نظر الانسان الى القصة نظرة مجردة بلا تعمّق ولا تبصر يرى أن ذلك من التكرار ، بل التكرار الممل الذي لا تدعو اليه حاجة من حال أو مقام .

هكذا يقول : الذين يجهلون ، ويقرؤون كتاب الله قراءة سطحية ولا يعرفون الحقيقة الواضحة من أن ذلك التكرار هو ليس التكرار الممل

ان الشخصية في القصص القرآني ليست مقصودة لذاتها كما سبق ذكرها ، لأن العبرة والعظة انما هو الحدث نفسه ، وفي موقف الناس منه ، وتلقيهم له من بين مقبل ومعرض ومستقيم ومنحرف .

ومن خلال هذه المواقف التي يقفها المحسنون والمسيئون من الأحداث تتكشف وجوه العبرة والعظة منها .

وهذا ما جاء القصص القرآني من أجله .

هل في تكرار القصص القرآني تعارض ؟

يمكن الجواب على ذلك أنه لا تعارض في تكرار القصص القرآني .

ان فيما تكرر من قصص ظاهرة يجدر ذكرها هنا ، وهي ما يبدو اختلاف في بعض المواقف والأحداث للقصة الواحدة التي تعرض في عدة سور من القرآن الكريم .

ومن ذلك مثلا جاءت في دعوة نوح عليه السلام لقومه ورد هم عليه ردّا عنيفا . قوله سبحانه وتعالى : (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قال الملأ من قومه انا لنراك في ضلال مبين) (١)

وجاء في موقف آخر قوله سبحانه : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) (٢)

ولا يعتبر هذا التكرار اشكالا ، ومن المعلوم أن للأنبياء عليهم السلام مقامات مع أممهم يكون فيها الأعذار والانذار ، ويرجع فيها عودا على بدأ الوعد والوعيد .

---

(١) سورة الأعراف ، آية ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) سورة هود ، آية من ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

ولا يكون دعاء الرسل عليهم السلام الا الى الايمان بالله عز وجـــل ورفض عبادة ما سواه في موقف واحد بلفظ واحد لا يتغير ، بل الواعـظ يتفنّن في مقاله . والجاحد المنكر تختلف أجوبته في مواقفه .

فاذا جاءت الأقوال على اختلافها لم يطالب باتفاقها .

لأنه قال لهم : مرة بلفظ حكى ، ومرة بلفظ آخر في معناه كما فـــي المثالين السابقين .

وكذلك الجواب يرد من أقوام يكثر عددهم ويختلف كلامهم ومقصدهم .

اذا فلا وجه للاعتراض بهذا ونحوه أبدا .

فلا يوجد تعارض مطلقا في التكرار في القصص القرآني .

أهداف القصص في القرآن الكريم :

ان القرآن الكريم قد اعتنى بأمر القصة، والله عز وجل بين أن للقصة مكانة وقيمة في التوجيه النفسي ، وفي الهداية الى الحق والى طريق مستقيم .

ولا ينكر أحدا أبدا ماجاء به القصص القرآني من توجيهات دينية لكل ما جاء به الاسلام من مبادئ وعقائد ، ولكل ما أنكره الاسلام من خلق سيء وعادات وآراء زائفة وعقائد وعبادات باطلة .

وهناك أهداف للقصص في القرآن الكريم نذكر أهمها بالاجمال :

١ - وأول هذه الأهداف هو تثبيت العقائد الصحيحة ونفي الخرافات القديمة ، اذ يبدو بكل وضوح في القصص القرآني وما تدور حوله قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وغير الأنبياء . انه يتجه بذلك الى تحقيق دعوة السماء للارض من الايمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وذلك بشرح العقائد وتصويرها وحسن التصرف في عرضها .

وقد وجه القرآن الكريم الى هذا الهدف في كثير من أياته ، مثل قوله تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)(١) الآية .

ان الدعوة الى عبدة الحق وعلى رأسها توحيد الله عز وجل واخلاص العبادة له هو هدف القرآن في قصصه .

وأن هذا القصص القرآني انذارا للمكذبين من الضالين وتخويفا للمعاندين(٢) .

٢ - اثبات الوحي الرسالة :

لقد كان من أهداف القصة في القرآن الكريم . ان هذا الدين الذي جاء به الرسل ما هو بوحي من الله تعالى ، وأنهم أنبياء

---

(١) سورة النحل ، آية (٣٦)

(٢) أنظر كتاب ، بحث في قصص القرآن ، للشيخ عبد الحافظ عبد ربه ص ٨٩ ، ٩٠ .

مرسلون ، وبالأخص بالنسبة الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
فقد بين القرآن الكريم أن هذا القصص من عند الله تعالى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أمي لا يكتب ولا يقرأ عندما جاء بهذا القصص الرائع عن الأنبياء قبله وعن الأمم . وما وقع لهم وما حل بهم .

جاءت القصص في دقة عجيبة . كقصص نوح وابراهيم ويوسف وموسى وعيسى عليهم السلام . فمجيء القصص بهذه الدقة المتناهية وورودها في القرآن الكريم بهذا البيان المحكم - أعظم دليل على أنه وحي يوحى من عند الحكيم الخبير .

وقد أشارت الآيات القرآنية الى هذا الغرض في مقدمات بعض القصص مثل قوله تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين)(١) وغيرها من الآيات .

٣ - تأييد النبي محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون آخر رسول من رسل الله عز وجل . وأنشأ الله بينه وبين الأنبياء قرونا .
فكم من آلاف السنين بينه وبين آدم عليه السلام وما جرى بينه وبين زوجه؟
وكم من آلاف السنين بينه وبين نوح عليه السلام وقومه ، وتفاصيل الحوار الدقيق بينه وبين قومه ، وما أمره الله من صنع السفينة ، وسخرية المكذبين من صنعته ، ثم الامر بالركوب للسفينة . الى آخر القصة .
ومثل ذلك الحوار الذي جرى بين ابراهيم عليه السلام وبين قومه والذي جاءت به القصة في سورة شتى على الشكل التفصيلي الدقيق ، وغيرها من القصص ، ان ذلك من أنباء الغيب وفيوض الرحمة على هذا النبي الأمي عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سورة يوسف ، آية (٣) .

٤ - ان النصر فى النهاية للرسل عليهم السلام ، وأن الهلاك والدمار للأمم المكذبين . وفى ذلك تقوية للأنبياء وتطييب لخاطرهم . حيث يقرّ الله عز وجل أعينهم فى الدنيا باهلاك أقوامهم المكذبين ، وبانتصار مبدئهم واعتزاز دعوتهم ، وتغلبهم على أعدائهم .

ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه وتعالى : (وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)(١) وتلك هى النهاية الواحدة للمكذبين .

٥ - ومن الأغراض فى القصة القرآنية هو : الترابط الوثيق بين الأديان السماوية ، فليس بينها تعارض أو تصادم ، بل أنها جميعا تستسقى من نبع واحد .

وكل رسول يأتى برسالة متمّمة ومكملة لرسالة النبى الذى سبقه . ويدعو الى الايمان برسالته ، والاعتقاد بصدق ما جاء به من الله تعالى

ويوجد الترابط بوجه خاص بين دين أبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام ودين خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم . المثال لما قلنا قوله تعالى : (ان هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى)(٢) وقوله تعالى أيضا : (وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملّة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس)(٣) وكما يوجد الترابط بين دين الاسلام وبين أديان بنى اسرائيل ، هذا يدل بلا شك على أتم الترابط بين جميع الأديان السماوية .(٤)

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ٣٩ ، ٤٠ (٢) سورة الأعلى آية ١٨ ، ١٩
(٣) سورة الحج ، آية ٧٨ . (٤) أنظر كتاب النبوة والأنبياء = ص ١٠٤ ، ١٠٥

٦ - ومن هذه الأهداف والأغراض الاشارة الى موقف الأمم من الأنبياء الكرام عليهم السلام . فقد كانت المواقف متشابهة .

ما من نبى دعا قومه الى الله والى توحيده الاّ ووقف فى وجهه المجرمون المعاندون والمستكبرون ، وموقف التكذيب والجحود .. كما قال البارى عز وجل : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا)(١) وقوله سبحانه : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين)(٢)

فقد اتحدت فى قصص الأنبياء صيغة الدعوة كما اتحدت من أقوامهم صيغة التكذيب ، كما فى قصة نوح عليه السلام وغيره من الرسل .

قال تعالى فى قصة نوح : (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين)(٣) وقال : فى قصة هود عليه السلام موقف قومه منه (قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين)(٤) وفى قصة صالح عليه السلام مع قومه يقول القرآن حكاية عن قومه : (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوّا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب)(٥)

وهكذا بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نجد أن موقف أقوامهم لا يختلف عن موقف الأمم السابقين فى التكذيب والاستهزاء بدعوة الرسل الكرام لأن المكذبين لآيات الله ولرسله ، وان اختلفت أزمنتهم ، ولكن اتفقت واتحدت أقوالهم وأساليبهم فى التكذيب والعناد .

---

(١) سورة الأنعام ، آية ١١٢ .
(٢) سورة الفرقان ، آية ٣١ .
(٣) سورة هود ، آية ٣٢ .
(٤) سورة هود ، آية ٥٣ .
(٥) " " " ٦٢ .

٧ - من أهداف القصص القرآنى أيضا - تعليم الآداب فى الحوار والمناقشة مهما غلظ المجرمين الكفار يقابلهم الأنبياء الأخيار بالذوق والرقة والتلطف والعطف ، ليتعلم من ذلك من يريد أن يعتنق الخير ويتخذ دين الله رائده فى كل الأمور .

ولقد صور البارى عز وجل خلق المرسلين فى هذا المعنى السامى فى عدة مناسبات فى كتاب الله العزيز ، ألا وهو : التلطف والرقة والعطف تجاه المكذبين اذ يقول الله تعالى فى جملة من رسله الكرام (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعونا اليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسلطان مبين) ويستمر الحوار والمناقشة بين الرسل عليهم السلام وبين المكذبين ، الى قوله تعالى على لسان هؤلاء الرسل : (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) (١)

واذا نظرنا فى قصص هؤلاء الرسل الكرام نرى أممهم متصفين بالغلظة والجفوة والشدة فى الخطاب والقسوة فى المعاملة ، ولكن الرسل عليهم السلام يقابلونهم بكل أدب رفيع وسلوك كريم وتوجيه سليم ، وتسامح ورحمة جديرة أن تحوّل كل عناد الى انقياد والى أدب وهداية ، كما فى الآيات التى نحن بصددها .

وذلك من الدروس المستفادة والعبر الصادقة . (٢)

---

(١) سورة ابراهيم ، آية من ٩ الى ١٢ .

(٢) أنظر كتاب بحوث فى القصص القرآن لمؤلفه عبد الحافظ عبد ربه . ص ١٠٨

٨ - ومن أهداف القصص القرآنى أيضا ، بيان قدرة الله سبحانه على خوارق العادات . وأنه قادر على كل شىء ، فاذا قال لشىء كن فيكون

فقد ذكرت قصة خلق آدم عليه السلام ، وقصة ولادة عيسى عليه السلام وذلك للدلالة على قدرة البارى عز وجل .

فان آدم عليه السلام ولد بدون أب وبدون أم ، وعيسى عليه السلام ولد من أم دون أب ، وحواء خلقت من ضلع آدم ، وكل ذلك وغيره دليل على القدرة الباهرة على الخوارق العجيبة .

قال تعالى فى شأن عيسى عليه السلام : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (١) وقال فى شأن آدم عليه السلام : (اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشر من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) (٢)

وكذلك قصة ابراهيم عليه السلام والطير الذى ذبحه ، ثم عادت له الحياة ، وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، وقد أماته الله مائة عام ثم بعثه الى آخر القصة التى ذكرت فى سورة البقرة ، آية ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

فكل هذه القصص وأمثالها مما يدل على قدرة الله تبارك وتعالى فى خوارق العادات .

وهذه الأغراض كانت أهم مافى الموضوع الذى نحن بصدده .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٥٩ .

(٢) سورة ص ، آية ٧١ ، ٧٢ .

بيان الأسرار والحكم في أن القرآن الكريم لم يسق القصص مساق التاريخ :

لم يكن غرض القصص في القرآن الكريم سرد تواريخ الماضين وذكر شئونهم وأطوارهم ، ولكنها للعظة والاعتبار .

لذلك فليس من الغريب أن تتكرر بعض القصص في كل مناسبة تستدعي الاستشهاد بها وايرادها .

ان القرآن الكريم يذكر القصة في مواطنها بأساليب متغايرة ، في صورة متقاربة ولكل مغزى لا يؤديه غيره .

ولا شك أن القصة القرآنية هو وسيلة للارشاد والايمان والعظة ، ونشر فكر الحق والخير والتعاون بين الناس .

أفليس هذه الأمور من الشرع رغب فيها أو رغّب عنها بأساليب مختلفة وتعابير شتى ؟ . اذا فالقصة القرآنية هي احدى وسائل الوعظ والتبليغ . (١)

مخطئون أولئك الذين يدرسون القصة القرآنية كما يدرسون القصة البشرية والتاريخ ، وهم يريدون تعلم التاريخ من القرآن الكريم ، ويفتشون عن المصادر التي أخذ منها أخباره وقصصه .

لأن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ ، وما ذكر الأنبياء والرسل عليهم السلام والحوادث التي وقعت في الماضي الا للعبرة والموعظة ، وتغذية النفوس بالصلاح والاستقامة ، وتحصين الأخلاق والآداب بسياج الفضيلة .

ومما يتضح - ليست الأحداث التاريخية في القصص القرآني متسلسلة الحلقات في السرد ، لأن التاريخ فيه لم يقصد لذاته ، ولكن لاستخلاص العبرة منه .

---

(١) أنظر كتاب ، التعبير الفني في القرآن ، للدكتور بكري شيخ أمين ص ٢١٢ وما بعدها . بيروت : دار الشروق للطباعة ١٣٩٦هـ

وعلى هذا الأساس أخضع القرآن الكريم فى قصصه وقائع التاريخ الى حقائق دينية ، ووضع الدين فى سجل الأحداث الكونية الى جانب قوانينها الطبيعية والاجتماعية ، اذ ليس فى مجرى هذه الأحداث مايحصل بمحض الصدفة ، أو بتأثير الظروف المادية وحدها . (١)

جاء فى كتاب التصوير الفنى فى القرآن مايلى : ((يقول قائل : ان كثيرا مما ورد من قصص الأنبياء فى القرآن قد ورد كذلك فى الكتب الأخرى ، فما بال هذه الفروق بين هذه الكتب فى هذه القصص ؟ يمكن الاجابة على هذه الشبهة بأن وجود قصص القرآن فى كتب أخرى لا يضعف الحجة ، بل هو من أعظم ما يصدقها ويؤيدها .

ولذلك نرى القرآن الكريم نفسه يستدل بذلك على كونه من عند الله تعالى ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلع على كتب أهل الكتاب. ويجب ألا نستنتج من هذا أن قصص القرآن ينبغى ألا يختلف عن قصص الكتب الأخرى فى شىء ما ، لأن الاستنتاج لو كان صحيحا لما قال الله تعالى : (ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) (٢)

ان قصص القرآن الكريم قد تختلف عما عندهم ، فيبين لهم حقه من باطله .

اذا فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم فى الجملة ، وبين مخالفته لها فى بعض الجزئيات . (٣)

نحن نجد فى القرآن الكريم فيما ترويه قصصه من أحداث التاريخ مايفيد بأن سنن الحياة مخلوقة لله تعالى حيث قال جل شأنه : (سنة الله فى الذين خلو من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا) (٤)

---

(١) كتاب سيكلوجية القصة فى القرآن ، للتهامى نقرة ص ١٧٦

(٢) سورة النمل ، آية ٧٦ .

(٣) أنظر كتاب ، التصوير الفنى فى القرآن ، للدكتور بكرى شيخ أمين ص ٢١٧ وما بعدها .

(٤) سورة الأحزاب ، آية ٣٨

عرض القرآن الكريم للتاريخ :

ان القرآن الكريم لم يلتزم فيما أورد من أخبار التاريخ قواعد تدوينه وعرضه كذكر زمان الواقعة ومكانها وترتيبها الزمني فقد صاغها في أسلوب انشائي مؤثر .

ومن السنن العامة التي انتبه القرآن الكريم وأخبار التاريخ - عقاب كفار الأمم الذين كذبوا رسلهم ، فان عاجزوهم بما اقترحوا عليهم من آيات كونية ، ثم لم يؤمنوا بها أهلكهم الله تعالى بعذاب من عنده ، وان عادوهم وقاتلوهم عاقبهم الله بالخزي في الدنيا وبالعذاب في الآخرة ، ونصر رسله عليهم نصرا عزيزا .(١)

ان عناية القرآن من التاريخ هي أكثر من مجرد عرضه لأخبار مضت ، والقصص القرآني اذا اتجه نحو ماضي الانسانية ما اتجه الا ليكشف عن الحقائق من وراء الأحداث التاريخية . ويستخلص منها سنن الله الحكيمة في النعمة والنقمة ، وفي قيام الأمم وسقوطها وضعفها وقوتها . قال تعالى عن اخبار الأمم الماضية وعاقبة أمرهم من المكذبين لآيات الله تعالى : (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)(٢) ومثل هذه الآيات وما في معناها كثيرة في كتاب الله تعالى .

لابد من البيان وهو أن التاريخ مصدر من مصادر المعرفة في القصص القرآني الخاصة ، وذلك يكشف عنه بعض أحداث القصص من نتائج يتضح فيها نهاية الصراع بين الحق والباطل ، بين الايمان والكفر بين الخير والشر .

وقد لاقى الرسول صلى الله عليه وسلم من رؤس الشرك في قومه من الاذى

---

(١) كتاب سيكلوجية القصة في القرآن ، للتهامي نقرة ص ١٨٠ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ١٣٧ .

والمعارضة والتكبر والجبروت ، قال كبراء قريش فى معرض الاعتزاز بعظمة الغنى والرئاسة كما أشار الله سبحانه بقوله : (بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانّا به كافرون . وقالوا : لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك) (١) الى آخر الآية

وقال فرعون : الذى أفسد قلوب الناس وأظهر فى الأرض فسادا ، قال : فى معرض الاعتزال بالمال والسلطان أيضا . وذلك قوله تعالى : (ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون) الى قوله تعالى : (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) (٢)

وكلا الاعتراضين يبين نفسية التعالى عند دعوة الحق ، والتكبر والتباهى بالجاه والمال . فلا يملأ عين ابن آدم الا التراب .

ومن الملاحظ أن القصة التاريخية فى جميع عهودها وأطوارها تهتم بالخيال الذى يلوّن الأحداث بغير ألوانها الحقيقية ، وتعتمد على ذلك فى اثارة الانتباه ، وتحريك العواطف وتجديد الرغبة التى تدفع بالنفس الى الانصراف عن مختلف الشئون لتتمكّن آثارها فى الشخصيات من سهولة الرياضة النفسيّة على مختلف الصفات التى تنهض بالأمم .

أما القرآن الكريم فهو يعرض عن ذلك الخيال تماما بجمال بيانه وقوة أخذه ودقة اعتباراته فى تصويره العجيب الذى انطلق القلوب القاسية بالشهادات الصادقة .

---

(١) سورة الزخرف ، آية من ٢٩ الى ٣٢ .

(٢) " " " من ٥١ الى ٥٣ .

أما ما يقوله المنحرفون عن الحق الذين يتطاولون على كتاب الله المجيد فيحاولون أن يقرروا أنه يختلف مع حقائق التاريخ في قصصه . لأنه لا يريد القصص التاريخي فلا يعدوا أن يكون مجرد هراء .

واذا كان القرآن الكريم قد سمى أنباء الرسل وأخبار الماضين قصصا فانما يريد تلك الصادقة الرائعة الرادعة للمكذبين - الشافية لصدور الصادقين المؤمنين .

والقصص القرآني يتفق مع سائر القصص في أنه لا بد من شخص وحوار وحدث ، وأنه قد يهمل بعض العناصر لعدم الأهمية بأمره ، ولعدم تعلق الغرض بذكره . فلا يذكر اسم شخص معين لأنه لا عبرة في ذكر اسمه وتقتصر في ذكر معناه وصفته على قدر ما تتطلبه حاجة البيان .

نرى أنه في قصة يوسف عليه السلام مثلا لم يعترض لذكر اسم امرأة العزيز ، ولذكر أسماء اخوته . واسم عزيز مصر نفسه . ترفعا بمستوى القرآن الكريم أن يذكر ما لا تدعو اليه حاجة مطلقا .

ومثل ذلك قصة صاحب القرية الذي لم يذكر القرآن اسمه الصريح ولم يذكر أسماء الرسل الذين أرسلوا الى أصحاب القرية ، وقد ذكرت قصصهم في سورة يس .

وهناك أمثلة غير التي ذكرت في القرآن الكريم .

البـــاب الثانـــــى

يشتمل على الفصول الآتية :

الفصل الأول : حياة نوح عليه السلام : نسبه ، نشأته وحياته ، وبيان عمره ، والمدة التى قضاها فى الدعوة .

الفصل الثانى : بيان الفرق بين النبى والرسول ، وبيان أن نوحا عليه السلام نبى ورسول .
متى أرسل نوح عليه السلام ؟

الفصل الثالث : الأسس التى قامت عليها دعوة نوح عليه السلام ، وذكر الآيات التى استنبطت من هذه الأسس مع شرح الآيات

الفصل الرابع : أساليب دعوة نوح فى الدعوة الى الله تعالى ، وذكر الآيات مع شرحها .

الفصل الخامس : موقف قوم نوح منه وتكذيبهم له - بيان من آمن بـــه من قومه ومن أهله ، وبيان المقصود من خيانة امرأته له عليه السلام - وأن الله نزّه الأنبياء أن تقع مـــن زوجاتهم فاحشة . مع ذكر الآيات الدالة على ذلك مع شرحها .

الفصل السادس : يأس نوح من ايمان قومه ودعائه عليهم - أمر الله له - بصنع السفينة ، ومرورهم وهو يصنعها وسخريتهم منه بيان الاسرائيليات الباطلة التى وردت فى سفينة نوح .

الفصل السابع : مصير قوم نوح - الاهلاك والطوفان - أكان ، الطوفان عاما أو خاصا ؟ أين يقع جبل الجودى الذى رست عليه السفينة ؟ . التعرض للحوار الذى جرى بين نوح وابنه قبيل الطوفان - وبيان المراد من قوله تعالى : ((انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح)) وشرح الآية الكريمة .

الباب الثاني

الفصل الأول

حياة نوح عليه السلام : نسبه - نشأته وحياته - وبيان عمره ، والمدة التي قضاها في الدعوة

نسب نوح عليه السلام :

أول رسول بعثه الله تعالى الى وجه الأرض بعد ما كثر الفساد وعبادة الأوثان والاشراك بالله تعالى ، هو : نوح ابن لامك بكسر الميم وقيل : لمك بفتح اللام وسكون الميم ابن متّوشلخ بفتح الميم وتشديد التاء المضمومة وسكون الواو وبفتح الشين واللام وسكون الخاء ابن متوشلخ بن خنوخ بفتح الخاء وضم النون الخفيفة وسكون الواو والخاء .

واخنوخ هو ادريس عليه السلام فيما يقال . (١)

ووصّل المؤرخون نسب نوح عليه السلام الى آدم عليه السلام . وأن خنوخ هو ادريس بن يرد بن مهلائيل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم أبي البشر .

وأمه : جاء في كتاب قصص الأنبياء للثعلبي نسب نوح من جهة أمه ما نصه ((أما اسم أمه نينوش بنت راكيل ، وقيل : بنت كابيل بن محوئيل بن خنوخ)) (٢)

---

(١) جاء ذلك في البداية والنهاية ، للامام الحافظ اسماعيل بن كثير جـ ١ ص ١٠١ ، وأنظر أيضا في تاريخ الرسل والملوك للامام محمد بن جرير الطبري ، المشهور بتاريخ الطبري ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . مصر : دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ

(٢) قصص الأنبياء ، لابي اسحاق المعروف بالثعلبي ص ٤٦ مصر مطبعة عيسى الحلبي وشركاه .
وهو : أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي النيسابوري ، أبو اسحاق مفسر ، مؤرخ ، وله تصانيف . وقد توفي رحمه الله سنة ٤٢٧هـ وله ترجمة في كتاب الاعلام للزركلي جـ ١ ص ٢٠٥ ، ٢٥٦ . ومعجم المؤلفين : جـ ٢ ص ٦٠ وطبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ٦٥

قال الامام الحافظ بن كثير في تاريخه : ((كان مولد نوح عليه السلام بعد وفاة آدم بمائة وستة وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير وغيره . وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وستة وعشرون سنة وكان بينهما عشرة قرون . كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما ((كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام)) . فان كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو متبادر عند كثير من الناس بين آدم ونوح عليهما السلام ألف سنة .

وان كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى : (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح)[1] وقوله تعالى : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن)[2]

فقد كان الجيل قبل نوح - عليه السلام - يعمرون الدهور - الطويلة وكان بعضهم يعمر أكثر من مائة سنة ، بل مئات السنين . فعلى هذا يكون بين آدم ونوح عليهما السلام آلاف السنين))[3]

ولا يمكن الانسان أن يجزم بالقول في ذلك ، لأنا لا نجد نصوصا قرآنية أو أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الشأن .

ولا يمكن الاعتماد الكلي على أقوال المؤرخين من القدماء والمحدثين ، لأنهم أخذوا أكثر هذه الأخبار من كتب أهل الكتاب ، أو من روايات الذين أسلموا من أهل الكتاب .

وهذه الأخبار تحتمل الصدق وغيره . والله أعلم بذلك كله .

---

(١) سورة الاسراء ، آية ١٧ .

(٢) سورة مريم ، آية ٧٤ .

(٣) البداية والنهاية ، الحافظ بن كثير جـ ١ ص ١٠١ وما بعدها .

نشأة نوح عليه السلام وحياته :

لقد نشأ نوح عليه السلام في الوقت الذي كثر فيه الفساد والطغيان ، وانتشرت بين قومه عبادة الأصنام والأوثان ، وكان عليه السلام قبل بعثته يرى من القوم هذه الأعمال الباطلة .

ولا شك أنه عليه السلام كان يعلم قومه ما هم عليه من الضلال ويفكر في كيفية اصلاحهم .

جاء في تفسير القرطبي : ((قال مقاتل وجويبر : ان آدم عليه السلام حين كبر ورقّ عظمه قال : يارب الى متى أكدّ وأسعى ؟ قال الله تعالى : يا آدم حتى يولد لك ولد مختون فولد له نوح عليه السلام بعد عشرة أبطن (١) .

وجاء في كتاب " الكامل في التاريخ " ما نصه : ((نكح أبو نوح عليه السلام لمك بن متوشلخ ابنة براكيل بن محوئيل ، وكان عمر لمك مائة وسبعة وثمانين سنة فولدت له نوحا عليه السلام - وهو النبي المرسل ، فعاش لمك بعد مولد ابنه نوح خمسمائة وخمسة وتسعين سنة ، وولد له بنون وبنات ثم مات . ونكح نوح عليه السلام وكان عمره خمسمائة سنة فولد له أولاد ، ولما أدرك نوح قال له أبوه : قد علمت أنه لم يبق في هذا الجيل غيرنا ، فلا تستوحش ولا تتبع الأمة الخاطئة . (٢)

والله أعلم .

وحياة نوح عليه السلام مليئة بالجهاد والنضال والكفاح .

ويصعب علينا بيان شيء من حياته قبل بعثته عليه السلام ، لأننا لا نعلم كيف كانت حياته قبل بعثته ، وكيف عاش ، ولا نستطيع الاعتماد الكلي

---

(١) أنظر تفسير القرطبي - الجامع لاحكام القرآن - لابي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي . جـ ٦ ص ٥٠٤٩ .

(٢) كتاب ، الكامل في التاريخ . لابن الاثير علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المتوفى سنة ٦٣٠هـ ، جـ ١ ص ٣٦ . بيروت : دار الكتب العربي .

على كتب أهل الكتاب لدخول التحريف والتبديل فيها .

وانما عرفنا حياة نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام من خلال آيات القرآن الكريم التي قصت علينا قصة كاملة من بعد بعثته الى الطوفان .

وكما عرفنا حياته عليه السلام من خلال أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي بينت بعض جوانب من قصته .

ويمكننا أن نبين حياته بأهم الأشياء والأحداث التي وردت بعد بعثته .

ان الله عز وجل أرسله الى قومه بأن ينذرهم ويدعوهم الى عبادة الله وحده ، لأن قوم نوح كانوا يعبدون الأصنام .

كانت حياته عليه السلام مع قومه في فترة الرسالة ألف سنة الا خمسين عاما . حياة مكللة بالصبر والعزم والثبات ، وانه لم تنقص من عزيمته شيء . وكان يدعوهم بكل أساليب الدعوة ويجادلهم بالحسنى ، كل ذلك لم ينفع مع قومه ، بل أعرض قومه عن دعوته ، وكلما زاد نوح عليه السلام الدعاء والتذكير لهم زادوا فرارا واعراضا عن الحق ، واصرارا في البقاء على الباطل ، وأنهم لم يتمكنوا أن يروا نور هداية الله تبارك وتعالى خلال دعوته عليه السلام لهم .

وأن قوم نوح استمروا على عبادة الأصنام ومخالفة نبيهم وايذائه وايذاء متبعيه ، انهم قد أنكروا دعوته ، ولم يقف الأمر على ذلك ، بل كذبوه واتهموه بأنه يفتري على الله تعالى ، وقالوا : انه بشر مثلهم فكيف يكون رسولا ؟ .

وبعد اعلام الله تعالى نوحا عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه الا الذين قد آمنوا ، بعد ذلك دعا على قومه الكفار بالهلاك ، لأن بقاءهم لا ينفع ، بل يضر الأجيال القادمة ويفسد عليهم عقيدتهم .

أمر الله سبحانه وتعالى نوحا بصنع السفينة تحت رعايته وعنايته .

ونوح عليه السلام بدأ يصنع السفينة وهم يمرّون عليه ويسخرون منه على عمله وكانوا يقولون : بعد أن كنت نبيا أصبحت الآن نجارا ؟

وهم كانوا يسخرون من نوح عليه السلام بأن السفينة العظيمة كهذه كيف تجرى فى البر ، وأين له المياه التى تجرى وتحرك هذه السفينة ؟

وبعد اتمام صنع الفلك أمره الله عز وجل أن يحمل معه فيها من كل صنف من الحيوان زوجين اثنين ، ويحمل معه أيضا الذين آمنوا معه ، وسال الطوفان وتفجرت عيون الأرض وبدأت السفينة تجرى بأمر الله فى الأمواج .

ولم ينته الأمر بهذه ولكن بدأ حزن نبى الله نوح عليه السلام على ولده الذى لم يركب السفينة معهم بسبب عدم ايمانه .

وناداه والده الحنين فأبى ، ثم دعا نوح ربه فقال : يارب ان ابنى من أهلى أرجو نجاته من الغرق ، فأخبر الله عز وجل بأنه ليس من أهله لأنه كافر وعمله غير صالح ، فكان ابن نوح عليه السلام من المغرقين وبعد اغراق الكفرة الذين لم يركبوا سفينة النجاة استوت السفينة على جبل الجودى . (١)

وهذه الامور التى بيناها هى بعض الجوانب من حياته عليه السلام ، اننا لا نعرف ماذا حصل له بعد الطوفان لأن القرآن الكريم ذكر القصة من أول بعثته الى نهاية الطوفان .

العلم كله عند الله عز وجل . . .

---

(١) سوف تأتى تفاصيل هذه الأمور فى الفصول الآتية ان شاء الله تعالى .

بيان عمر نوح عليه السلام :

لقد عاش نبى الله نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام طويلا وعمّر كثيرا ، وكان عليه السلام أطول الأنبياء عمرا وأكثرهم جهادا لأنه بقى فى دعوته قومه أكثر من أى رسول من الرسل عليهم السلام . وأنه قد تحمّل من الأذى مالم يتحمّله أحد من الرسل الا الذين قتلوا من قبل أقوامهم .

دعا قومه الى توحيد الله تعالى بدون انقطاع ، وفى هذه الفترة الطويلة كان يعظهم ويذكّرهم أيام الله ويدعوهم الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكنه عليه السلام لم يلق من قومه الا التكذيب والاضطهاد والصدود ، كانت قلوبهم أشد من الحجارة وأصلب من الحديد .

مع هذه المدة التى أقامها بينهم لم يؤمن برسالته الا عدد يسير جدا . كما قال تعالى : (وما آمن معه الا قليل) (١)

اختلف المؤرخون فى عمر نوح عليه السلام يوم بعث .

قال الامام ابن كثير فى ذلك فى كتابه البداية والنهاية ما يلى : ((كان عمره يوم بعث خمسين عاما ، وقيل : كان عمره - عليه السلام - ثلاثمائة وخمسين عاما ، وقيل : كان أربعمائة وثمانين عاما حكاها ابن جرير ، وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - بعث نوح لأربعين سنة من عمره ، ولبث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين عاما حتى كثر الناس وفشوا)) (٢)

---

(١) سورة هود ، آية (٤٠)

(٢) البداية والنهاية ، للحافظ بن كثير . جـ ١ ص ١٠٢ .

والقرآن الكريم أشار الى أن نوحا عليه السلام مكث فى قومه بعد بعثته الى الطوفان تسعمائة وخمسين عاما (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) (١) .

وأن الله سبحانه وتعالى هو أعلم كم عاش نوح قبل البعثة وكم عاش بعد الطوفان . وقيل : أنه عليه السلام عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين عاما .

فيكون المجموع الكلى ألفا وسبعمائة وثمانين عاما (١٧٨٠) على الأقوال المذكورة .

وهناك روايات أخرى حول عمر نوح عليه السلام قبل البعثة و بعد الطوفان ، لا يستطيع الانسان أن يقطع بالقول على واحدة من هذه الأقوال ، لأنها تختلف بعضها من بعض . ولا يوجد نص قطعى لا فى كتاب الله عز وجل ، ولا فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كم كان عمر نوح عليه السلام يوم بعث ، وكم سنة عاش بعد حصول الطوفان . ؟

العلم بذلك كله عند الله علام الغيوب . وما ذكر بيان هذه الأقوال والآراء الا ليكون القارىء الكريم على علم بذلك .

---

(١) سورة العنكبوت ، آية (١٤)

المدة التى قضاها نوح عليه السلام فى الدعوة الى الله :

لقد تابع نبى الله نوح عليه السلام الدعوة فى قومه منذ بعثته اليهم حتى نهاية عمره . ومن ذلك يظهر مدى المشقة التى نالها عليه السلام فى الدعوة ، وهى سلسلة من حياة قاسية مليئة بالفضال والكفاح والعذاب والبلاء ، لا يقدر على تحملها الا أصحاب الصبر وأولى العزم من الرسل الكرام ، لهذا كان نبى الله نوح من أولى العزم الذين ذكرهم الله تعالى لسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله : ((فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم)) (١)

ولقد بعث الله تعالى نوحا رسولا الى قومه بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله عز وجل ليخلص قومه من عبادة الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ، ليوجههم الى عبادة فاطر السماوات والأرض .

ان نوحا عليه السلام لبث فى قومه بعد بعثته ألف سنة الا خمسين عاما جاء بيان ذلك فى كتاب الله العزيز وهو قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) (٢) ، انه بقى فى قومه يدعوهم هذه المدة التى ذكرها القرآن الكريم فى هذا النص القرآنى القطعى الثبوت الذى لا يحتمل غيره .

ولكن يبقى بيان عمر نوح من ولادته الى وفاته . . والله أعلم .

---

(١) سورة الأحقاف ، آية (٣٥)

(٢) سورة العنكبوت ، آية (١٤) .

كان لنوح عليه السلام خصائص كثيرة ، ومن أهم خصائصه عليه السلام أنه كان أول نبى من أنبياء الشريعة ، وأول داع من الله تبارك وتعالى ، وأول نذير عن الشرك ، وأول من عذبته أمته لرد هم دعوته ، وأهلك الله تعالى أهل الأرض بدعائه .

قال الله لنوح عليه السلام بعد الطوفان (١) : (انى خلقت خلقى وأمرتهم بطاعتى ، فانتهكوا معصيتى فاشتد لذلك غضبى ، فعذبت بذنوب العاصين مالم يعصنى ، وعذبت بذنوب بنى آدم جميع خلقى ، فبى حلفت انى لا أعذب مثل هذا العذاب أحدا من خلقى بعدها . ولكن أجعل الدنيا دولا بين عبادى ، ثم أجزيهم بأعمالهم اذا اجتمعوا عندى . . ومن خصائصه عليه السلام أنه أطول الأنبياء عمرا وشيخ المرسلين ، ولم يكابد أحد من الرسل فى الدعوة مثل ما كابد نوح عليه السلام ، وكان يدعو قومه بلا انقطاع ليلا ونهارا . ولم يلق نبى من أمته من الضرب والشتم وأنواع الأذى ما لقى نوح ، فلذلك قال الله عز وجل : (وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى) (٢)

وجعله الله تبارك وتعالى ثانى المصطفى فى الميثاق والوحى . قال الله سبحانه : (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) (٣)

أشار الله أيضا الى الميثاق بقوله : (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) (٤) وقيل : انه عليه السلام أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وسماه الله تعالى عبدا شكورا . وذلك قوله تعالى : (ذرية من حملنا مع نوح

---

(١) أنظر كتاب ، قصص الأنبياء : لابى اسحاق أحمد بن محمد النيسابورى ، المعروف بالثعلبى ، ص ٥٢ وما بعدها .

(٢) سورة النجم ، آية (٥٢) (٣) سورة النساء ، آية (١٦٣)

(٤) سورة الأحزاب ، آية (٧) .

انه كان عبدا شكورا) (١)

وأكرمه ربه عز وجل بالسلامة والبركة وقال : (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم من معك) (٢)

ومن وصاياه عليه السلام لابنه ، جاء في كتاب قصص الأنبياء مايلي :

((أن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه : انى قاص عليك وصية ، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين : آمرك بلا اله الا الله ، فان السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا اله الا الله في كفة رجحت بهنّ لا اله الا الله .

ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمّته لا اله الا الله وسبحان الله وبحمده ، فان بها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق ، وأنهاك عن الشرك والكبر)) (٣)

هكذا أوصى نوح عليه السلام لابنه وصية هامة بيّن له فيها الأصول في عبادة الله عز وجل .

وكان عليه السلام زاهدا لا يهتمّ ولا يعطى للدنيا قيمة ، كما هو شأن جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام .

قيل : بنى نوح عليه السلام بيتا من قصب ، فقيل له : لو بنيت غير هذا ، فقال : هذا كثير لمن يموت . وقيل أيضا : لما أتى ملك الموت نوحا ليقبض روحه قال : يانوح انك عشت زمنا طويلا فكيف وجدت الدنيا ؟ قال : مثل دار لها بابان ، دخلت من هذا وخرجت من هذا .

سلام الله على نوح في العالمين (٤)

---

(١) سورة الاسراء ، آية (٣) . (٢) سورة هود ، آية (٤٨)

(٣) كتاب قصص الأنبياء ، للامام بن كثير ، جـ ١ ص ١١٨ تحقيق مصطفى عبد الواحد ، القاهرة : مطبعة دار التأليف ، الطبعة الاولى ١٣٨٨ هـ .

(٤) أنظر تفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، للامام القرطبي جـ ٦ ص ٤٠٩٢ .

الباب الثاني

الفصل الثاني

بيان الفرق بين النبي والرسول ، وبيان أن نوحا نبي ورسول ، ومتى أرسل نوح عليه السلام؟

معنى النبوة والرسالة لغة واصطلاحا :

النبيّ لغة : اذا كان مهموزا من النبأ الذي هو الخبر ، فيكون النبي بالهمزة بمعنى المنبيء أي المخبر عن الله تبارك وتعالى على وزن مفعل اسم فاعل ، ولكنه في استعماله أخص من مطلق الأخبار . فهو يستعمل في الاخبار بالأمور الغائبة كما في قوله تعالى : (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) (١)

وجمع النبي : أنبياء بالهمزة ، وقد قرئ بها .

أو غير مهموز : اما بالتخفيف باسقاط همزته أي بتخفيف الياء ـ ألنبي ، واما بالتشديد ، النّبيّ : الرفيع المنزلة . فمن أنبأه الله تعالى وجعله منبّأ فلا يكون الا رفيعا عليّا .

جاء في كتاب " المفردات في غريب القرآن " مايلي : " قال بعض العلماء النبي هو من النبوة أي الرفعة ، وسمي نبيا لرفعة محله عن سائر الناس المدلول عليه بقوله تعالى : (ورفعناه مكانا عليّا) (٢)

فالنبي بغير الهمزة أبلغ من النبي بالهمزة ، لأنه ليس كل منبأ رفيع المحل والنبوة بفتح النون وسكون الباء والنباوة والارتفاع ، ومنه قيل : نبا بفلان مكانه " (٣)

---

(١) سورة آل عمران ، آية (٤٩) . (٢) سورة مريم ، آية (٥٧) .

(٣) المفردات في غريب القرآن ، للراغب الاصفهاني ص ٤٨٢ .
وهو : الحسين بن محمد بن الفضل أبو القاسم الاصفهاني ـ المعروف بالراغب" أديب ومن كبار العلماء" له تصانيف كثيرة ، توفي سنة ٥٠٢هـ

معنى النبوة فى الاصطلاح الشرعى :

هو : اصطفاء الله تعالى عبدا من عباده بالوحى اليه ، وعلى هذا فالنبى مخبر بالغيوب التى يتلقاها عن الوحى ، أو مرتفع عن غيره ، بسبب اصطفاء الله له بالوحى . (١)

أما الرسالة لغة :

تأتى على الانبعاث ، فاشتق من الرسول ، والرسول هو المنبعث . الرسول يقال : تارة للقول المتحمّل ، وتارة المتحمّل القول ، والرسالة ، وجمع الرسول رسل . يرسل الله تارة يراد بها الملائكة كقوله تعالى : (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) (٢) وتارة يراد به الأنبياء ، كما فى قوله تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) (٣)

وأنظر تفاصيل ذلك فى كتاب المفردات فى غريب القرآن . (٤)

الرسالة فى الاصطلاح الشرعى :

هو : تكليف الله عز وجل نبيّا من أنبيائه بتبليغ شريعته للناس .

والرسول هو النبى المكلف من قبل الله تعالى بتبليغ شريعته لخلقه .

جاء تفصيل ذلك فى كتاب " النبوات " : ((فرسول الله الذى أرسله الله ، فكذلك نبى الله . هو بمعنى مفعول أى منبّأ الله الذى نبّأه الله تعالى فالنبىّ اذا كان الذى ينبئه الله ، كما أن الرسول هو الذى يرسله الله . فالذى نبّأ الله حق وصدق ليس فيه كذب لا خطأ ولا عمدا ، فالذى اصطفاه الله لانبائه وجعله نبيّا له كالذى اصطفاه لرسالته وجعله رسولا له) (٥)

== وله ترجمة فى الاعلام : للزركلى جـ٢ ص ٢٧٩ ومعجم المؤلفين جـ ٤ ص ٥٩ .

(١) أنظر كتاب العقيدة الاسلامية وأسسها ، دكتور عبد الرحمن حبنكة جـ ٢ ص ٤٠ .

(٢) سورة العنكبوت ، آية (٣١)

(٣) سورة المؤمنون ، آية (٥١) . (٤) للراغب الاصفهانى - ص ١٩٥ .

النبوة : هو فضل الهى ووهبة ربانية يهبها الله تبارك وتعالى لمن يشاء من عباده ، ويختص لها من يريد من خلقه ، قال تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (١)

والنبوة لا تدرك بالجدّ والتعب ، ولا تنال بكثرة الطاعات والعبادة لله تعالى ، وانما هى بمحض الفضل الالهى . اذا فالنبوة : الاصطفاء والاختيار ، ولا تكون الا لمن اختاره تعالى لها ممن هم أهل لهـا . لأنها حمل ثقيل وتكليف عظيم .

والنبوة والرسالة لا تكون بالوراثة ، ولا بطريق الغلبة ، ولكن يختار الله تعالى لهذه المهمة أفضل خلقه وصفوة عباده ، ويختارهم اللـه عز وجل لحمل الرسالة ، وأنه تعالى يصطفيهم من بين سائر البشـر لهذا العمل الجليل .

كما أوضح الله تبارك وتعالى فى كتابه بقوله : (ان اللع يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير) (٢) وقوله تعالى : (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) (٣) قال تعالى أيضا : فى معرض الحديث من بعض الرسل عليهم الصلاة والسلام : (انا أخلصناهم بخالصة ذكر الدار وانهم عندنا لمـن المصطفين الأخيار) (٤)

= النبوات : لشيخ الاسلام ابن تيمية ، ص ١٧٧ . بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر .
وابن تيمية هو : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم النميرى الحرانى الدمشقى الحنبلى المذهب المشهور بشيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية . كان عالما جليلا . فقيها ـ مفسرا وناقدا ـ وله تصانيف كثيرة جدا ، وله ترجمة فى :
الاعلام جـ ١ ص ١٤٠ . ومعجم المؤلفين جـ ١ ص ٢٦١ .
طبقات المفسرين للداودى : جـ ١ ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ .

(١) سورة الأنعام ، آية (١٢٤) .

(٢) سورة الحج ، آية (٧٥) . (٣) سورة آل عمران ، آية (٣٣)
(٤) سورة ص ، آية ٤٦ ، ٤٧ .

الفرق بين النبى والرسول :

ان الوصف بالرسالة مغاير للوصف بالنبوة ويشهد لذلك وصف الله تعالى بهما معا ، وفى هذا اشعار بتغاير مفهوميهما فى الاصطلاح الشرعى .

ومن ذلك قوله تعالى : (واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا) (١) وهذا الرأى للامام فخر الرازى ذكره فى تفسيره ،

ان العلماء فى اجابتهم على سؤال هل هناك فرق بين النبى والرسول ؟ انقسموا الى فرقتين :-

الأولى : هى الفرقة المعتزلة ، وأن هذه الفرقة قررت أنه لا يوجد أى فرق بين النبى والرسول ، فكلا اللفظين معناهما الانباء والاخبار . وقالوا : النبى هو من ينبىء والرسول هو الذى يبلغ الرسالة ، وعلى ذلك فلا فرق بينهما . وعندهم كل رسول نبى وكل نبى رسول) (٢)

وقد احتجت المعتزلة بقوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) (٣)

ومن أدلتهم أيضا أن الله تبارك وتعالى خاطب سيدنا محمد فى القرآن كثير (ياأيها النبى) و (ياأيها الرسول)

الثانية : جمهور العلماء من أهل السّنة والجماعة . فقد قرروا وجود فرق بين لفظى النبى والرسول . وأنهم ردوا على المعتزلة وقالوا : أن شيئا من ذلك الوجوه لا يبطله ، بل هذه الآية التى استدلوا بها على مذهبهم دالة عليه ، لانه عطف النبى على الرسول ، وهو من باب عطف العام على الخاص .

---

(١) سورة مريم ، آية (٥١)

(٢) أنظر تفسير الرازى ، لمؤلفه الامام فخر الدين الرازى جـ٣ ص ٤٩ .

(٣) سورة الحج ، آية (٥٢)

أنّ الجمهور استشهدوا أيضا بقوله تعالى : (واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيّا) (١)

ان توارد الصفتين ، الرسول ـ والنبي على موصوف واحد في التنكير والتعريف يقتضي تباينا ولو من وجه ، كما يقتضي تغايرا ولو في المفهوم

وهذه الأدلة أهم مافي هذا الموضوع على وجود الفرق بين النبي والرسول ، وبها يرجح رأي الفرقة الثانية . وهم الجمهور من أهل السنة والجماعة .

وقد اختلفت آراء العلماء في تحديد الفرق بين النبي والرسول ، بل أن بعضهم اختلفوا هم أنفسهم على أحوال وآراء .

قيل : الرسول هو من له كتاب ، ونسخ لبعض الأحكام الشريعة السابقة وأما النبي قد يخلو من ذلك .

جاء في أقوال الامام الرازي ما نصه : ((الرسول هو : من جمع الى المعجزة الكتاب المنزّل عليه . والنبي غير الرسول هو : من لم ينزل عليه كتاب ، وانما أمر أن يدعو الى كتاب من قبله . وقيل : أن من كان صاحب معجزة وصاحب الكتاب ، ونسخ شرع من قبله فهو رسول . ومن لم يكن قد جمع هذه الخصال فهو نبي غير الرسول ، وقيل : أن من جاءه الملك ظاهرا وأمره بدعوة الخلق فهو رسول ، ومن لم يكن كذلك ، بل رأى في المنام كونه رسولا ، وأخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله ، فهو النبي الذي لا يكون رسولا)) (٢)

---

(١) سورة مريم ، آية (٥٤)

(٢) أنظر تفسير الرازي ، للامام فخر الدين الرازي جـ ٢٣ ، ص ٤٩

والمشهور في الفرق بين النبى والرسول : النبى هو : انسان حر من بنى آدم ، أوحى الله تعالى اليه بشرع ولكنه لم يكلف بالتبليغ .
أما الرسول فهو : انسان حر من بنى آدم أوحى الله سبحانه وتعالى اليه بشرع وأمره بالتبليغ .

والشرط الأساسى فى الفرق بين النبى والرسول هو اشتراط التبليغ فى الرسالة دون النبى . والرسالة أعلى مرتبة من النبوة ، وكل رسول نبى وليس كل نبى رسولا .
اذا ، ان كل من نزل عليه الوحى من الله عز وجل على لسان جبريل الأمين عليه السلام وكان مؤيدا بنوع من المعجزات الخارقة للعادات فهو نبى ، ومن حصلت له هذه الصفات وخص أيضا بشرع جديد ، وبنسخ بعض أحكام شريعة كانت قبله فهو رسول .

جاء فى كتاب " النبوات " فى بيان الفرق بين النبى والرسول ما يلى :
((النبى هو : الذى ينبئه الله تعالى بما أنبأ الله به . فان أرسل مع ذلك الى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله تعالى فهو رسول .
وأما اذا كان انما يعمل بالشريعة قبله ، ولم يرسل هو الى أحد يبلغه عن الله تعالى رسالة فهو نبى وليس برسول ، قال تعالى : ((وماأرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى)) الآية ، فذكر ارسالا يعم النوعين ، وقد خص أحدهما بأنه رسول ، فان هذا - هو الرسول المطلق الذى أمره - بتبليغ رسالته الى من خالف الله تعالى ،كنوح عليه السلام ، كما ثبت أنه أول رسول بعث الى أهل الأرض ، وقد كان قبله أنبياء كشيث وادريس وآدم عليهم السلام .))

---

(١) أنظر كتاب " النبوات " لشيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ . ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

وعلى ذلك كله تكون مهمة النبي الذى لم يؤمر بتبليغ رسالة وله أن يفتى بشريعة رسول سابق له . كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون مايبلغه العلماء من الرسول .

وقد يوحى الله تعالى الى أحد الأنبياء وحيا خاصا في قصة معينة ولكن كانوا على شرع التوراة مثلا ، كالعالم الذى يفهمه الله تعالى فى قضية معنى يطابق القرآن الكريم .

ويدل على ذلك . أننا اذا نظرنا فيمن تحدّث عنهم القرآن الكريم بأنهم أنبياء نجد بعضهم أنه لم يؤمر بتبليغ رسالة الى قومه ، كما لم يذكر هذا النبي في عداد الأنبياء . ويمكن الاستشهاد على ذلك بقوله تعالى : (ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى . اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا يقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قالوا وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا)) (١) وهذا النبي لم يذكر فى عداد الأنبياء والرسل عليهم السلام مع أنه جرى التنويه بقصته . . ومثل هذا النبي المذكور فى الآية مع التنويه اليه وغيره ، وهؤلاء يمكن أن نسميهم أنبياء لا رسلا .

أن الاصطفاء بالنبوة سابق على الاصطفاء بالرسالة ، وأننا نفهم من الآيات القرآنية الكريمة أنه لا يتم الاصطفاء بالرسالة الا لمن تم اصطفاؤه بالنبوة . ويدل على هذا عدة نصوص من القرآن الكريم .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

منها : قوله تعالى : (وكم أرسلنا من نبى فى الأولين) (١) وقوله سبحانه : (يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) (٢) بأن النبوة تكون محققة أولا ، ثم يأتى بعدها الارسال .

نفهم من هذا أنه قد تمرّ على النبى فترة الاصطفاء بالوحى قبل أن يؤمر بالتبليغ ، فيكون فى هذه الفترة بالنظر لواقع حاله نبيّا لا رسولا ؛ فاذا أمره الله تعالى بالتبليغ صار فى واقع حاله نبيا ورسولا . (٣)

وذلك كالفترة التى كانت للنبى محمد صلى الله عليه وسلم بين بدء الوحى وبين أمر الله له عليه الصلاة والسلام بالتبليغ ، وذلك فى مثل قوله تعالى : (يا أيها المدثر قم فأنذر) (٤) وقوله سبحانه وتعالى : (يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلّغت رسالته) (٥)

وقد سبق الكلام بأن الرسول هو صاحب الشريعة ، وأنه أمر بتبليغ هذه الرسالة وليس من الضرورى أن يأتى الرسول بشريعة جديدة ، أو كتاب ، وأن هناك بعض الرسل عليهم السلام لم يؤتوا بشريعة جديدة ، ولكنهم كانوا يحكمون بشريعة رسول كان قبلهم .

فان نبى الله اسماعيل عليه السلام كان رسولا ، وكان يسير على شريعة أبيه ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام . وقد بين الله تعالى رسالة اسماعيل عليه السلام بقوله : سبحانه : (واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيّا) (٦) وكما أن يوسف عليه السلام كان رسولا ، وكان على ملة ابراهيم عليه السلام أيضا .

---

(١) سورة الزخرف ، آية (٦) (٢) سورة الأحزاب ، آية (٤٥)

(٣) أنظر كتاب العقيدة الاسلامية للدكتور عبد الرحمن حبنكة الميدانى جـ ٢ ص ٤١ .

(٤) سورة المدثر ، آية ١ ، ٢ .

(٥) سورة المائدة ، آية (٦٧)

(٦) سورة مريم ، آية (٥٤) .

جاء على لسان مؤمن آل فرعون قوله تعالى :(ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) (١) . أنظر تفاصيل ذلك فى كتاب النبوات (٢)

انما نؤمن بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا بد أن يكون معهم دستور للشريعة التى يحكمون بها ، قال الله عز وجلّ فى صدد ذلك : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) (٣) .

وقد بين الله عز وجل فى هذه الآية الكريمة بأن الناس كانوا أمة واحدة أى : كلهم متفقين على كلمة الحق ودين الاسلام . وبعد ما اختلفوا وتفرّقوا - بعث الله تعالى الرسل الكرام عليهم السلام مبشرين لمن أطاع الله تعالى ومنذرين لمن عصى الله عز وجل ، وأنه أنزل مع بعض هؤلاء الرسل الكتاب لا مع كل واحد منهم ، اذ لم يكن لبعضهم كتاب كما أسلفنا آنفا . وانما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم ، وانزال هذه الكتب مع الرسل لكي يحكم الرسل بين الناس فى الحق الذى اختلفوا فيه .

صفات الأنبيـــاء :

لقد اختار الله تبارك وتعالى أنبيائه ليكونوا سفراء بينه وبين عباده ، واصطفاهم من بين سائر الخلق ليحملوا الأمانة العظيمة ، وهى أمانة الوحى وتبليغ رسالات الله لعباده .

وقد اقتضت حكمة البارى سبحانه أن يجعل أنبياءه أكمل البشر خلقا وأفضلهم علما وأشرفهم نسبا وأعظمهم أمانة ، وأن يحفظهم الله تعالى بعنايته

---

(١) سورة المؤمن ، آية (٣٤)

(٢) النبوات ، لشيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن تيمية ، ص ١٧٣ وما بعدها .

(٣) سورة البقرة ، آية (٢١٣)

ويربيهم على عينه ، كما قال الله لسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم : (واصبر لحكم ربك فانّك بأعيننا) (١)

وقال أيضا لكليم الله موسى عليه السلام : (وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى) وقوله : (واصطنعتك لنفسى) (٢)

واذا تتبعنا نرى أسلوب القرآن الكريم فى الحديث عنهم أسلوبا يتدفق بالحياة ، فيذكرهم الله تعالى بالثناء العاطر ويصفهم بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية .

كل ذلك يدل على أن الأنبياء والرسل عليهم السلام جميعا هم الصفوة المختارة من خلق الله تعالى ، والمثل العليا الكاملة للبشرية ، كما أشار الله سبحانه وتعالى بقوله : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) (٣)

وقال تعالى عند ذكر رسوله وخليله ابراهيم عليه السلام : (واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيّا) (٤)

وقال فى نبيه اسماعيل عليه السلام : (واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيّا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيّا) (٥)

وا لقرآن الكريم وصف جماعة من الأنبياء المكرمين وقال : (واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الايدى والأبصار (٦) انا أخلصناهم

---

(١) سورة الطور ، آية (٤٨) . (٢) سورة طه ، آية ٣٩ ، ٤١

(٣) سورة الأنبياء ، آية (٧٣) . (٤) سورة مريم ، آية (٤١)

(٥) سورة مريم ، آية ٥٤ وآية ٥٥ .

(٦) معنى " أولى الايدى والابصار " قال الامام القرطبى عند تفسير هذه الآية : والأبصار أنها البصائر فى الدين والعلم وأما الايدى : فأهل التفسير يقولون : انها القوة فى الدين ، وقوم يقولون : معناها أصحاب النعم ، أى الذين أنعم الله عليهم / تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٥٦٦١ .

بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار)(١)

وقد مدح الله جل ثنائه أنبياءه الكرام بأحسن الصفات التى تليق بهم

وأن الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم هم من البشر يأكلون ويشربون ويصحون ويمرضون وينكحون النساء ، وتأتيهم العوارض التى تمرّ على البشر من ضعف وشيخوخة وموت .

الا أنهم يمتازون عن باقى البشر بخصائص ، ويتصفون بصفات عظيمة(٢) جليلة . وهذه الصفات بالنسبة لهم من الضروريات .

وهى : الصدق - والتبليغ - والأمانة - والفطانة - والسلامة من العيوب المنفّرة - والعصمة .

ونبدأ بشرح هذه الصفات ببيان موجز .

الصدق :

هذه الصفة ملازمة للنبوة وهى وان كانت ضرورية لكل البشر ، الا أنها بالنسبة لدعوة الأنبياء صفة لازمة ، بل هى من الصفات الفطرية فيهم ، فلا يمكن لأى نبى من أنبياء الله تعالى أن يصدر منه ما يخلّ بالمروءة كالكذب والخيانة وغيرها من الصفات التى لا تليق بالأنبياء لأن هذه الصفات لا تليق برجل عادى ، فكيف بنبى مقرّب مرسل ؟

ولو جاز وقوع الكذب من الأنبياء ، لما أصبح هناك ثقة فيما يتلقّونه من أخبار الوحى ، ويروونه عن الله تبارك وتعالى .

---

(١) سورة ص ، آية من ٤٥ الى ٤٨ .

(٢) أنظر كتاب ، النبوة والأنبياء ، للشيخ محمد على الصابونى ، ص ٤١ وما بعدها .

الأمانـــة :

وهى أن يكون النبى أمينا على وحى الله تعالى - يبلـغ أوامر الله ونواهيه الى عباده دون زيادة أو نقص ودون أى تحريف أو تبديل . امتثالا لقوله عز وجل : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله وكفى بالله حسيبا) (١)

فالأنبياء جميعا أمناء على الوحى ، يبلغون أوامر الله كما نزلت عليهم ولا يمكن لهم أن يخونوا ، لأن الخيانة تتنافى مع الأمانة .

وكلهم قد أدّوا الأمانة على الوجه الأكمل وكل نبى كان يقول لقومه : (انى لكم رسول أمين) (٢) وقد لقّب الرسول محمد صلى الله عليـــه وسلم بهذه الصفة منذ صغره من جهة قومه . حيث لقبوه بالأمين .

التبليـــغ :

وهذه الصفة خاصة بالرسل الكرام عليهم صلوات اللـــه وسلامه ، والقصد بها أن يبلغ الرسل الآيات التى نزلت عليهم الى الناس ويبلغوا الوحى الذى نزل عليهم ولا يكتموا شيئا من الوحى ، حتى ولـــو كان فى تبليغه للناس يؤدى الى ايذاء عظيم لهم .

وقد قال الله فى قصة نوح عليه السلام : (أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) (٣) وقال عن صالح عليه السلام : (فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم) (٤)

وقال فى شعيب عليه السلام : (فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكـــم رسالات ربى ونصحت لكم) (٥) وقد أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم مخاطبا له : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) (٦) وهكذا نجد جميع الرسل يعلنون بكل صراحة أنهم قد بلغوا رسالة الله تبارك وتعالى .

---

(١) سورة الاحزاب، آية (٣٩)
(٢) سورة الشعراء الآيات ١٠٧ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ١٧٨
(٣) سورة الأعراف ، آية (٦٢) . (٤) سورة الأعراف آية (٧٩)
(٥) " " " (٩٣) . (٦) سورة المائدة ، آية (٦٧)

الفطانـــة :

وهي الذكاء والنباهة ، فالأنبياء جميعا كانوا علـــى جانب من النباهة والذكاء الخارق مع كمال العقل والرشد .

نأخذ مشهدا من القرآن الكريم . وانظر الى ابراهيم عليه السلام وهـــو يجادل طاغية عصره الذى نازع الله فى ملكه ، زعم أنه اله يعبد دون الله وأنه الرب المعبود .

كيف كان رد ابراهيم عليه السلام ؟ وكيف كان نبوغه وذكاؤه ؟ وأنه كيف دحض خصمه الكافر العنيد . بدل لهذا المشهد قوله سبحانه وتعالى :

(ألم تر الى الذى حاجّ ابراهيم فى ربه أن أتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفـــر والله لا يهدى القوم الظالمين) (١)

وهكذا جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، لقد منحهم اللـــه عز وجلّ العقل والرشد فكانوا على أكمل وجوه الذكاء . وذلك ليستطيعوا اقامة الحجة على أقوامهم المعاندين ، حتى يظهر الحق من الباطل .

السلامة من العيوب المنفّرة :

وهذه الصفة أيضا من خصائص الأنبيـــاء فانه لا يمكن أن تكون فيهم عيوب خلقية أو خلقية بكسر الخاء أى عيـــوب جسدية ، كما أن الأمراض المنفرة والتشويه الجسدى لا يكون فى أحـــد من الأنبياء .

لأن مهمة الرسل عليهم السلام تستدعى مخالطة الناس . لدعوتهـــم وارشادهم وقيادتهم وسياستهم . كان من الحكمة الله العالية أن يحفظ رسله من مثل هذه الأمراض التى لا ترتاح اليها طبائع الناس وتنفر منهـــا نفوسهم .

---

(١) سورة البقرة ، آية (٢٥٨)

العصمـــة :

ان هذه الصفة من أهم الصفات التي اتصف بها الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وأنهم وان تفاوتوا في الفضل الا أنهم بلغـــوا الغاية من السمو الروحي والصلة بالله تعالى .

ومثل هؤلاء لا يمكن الا أن يكونوا معصومين من الوقوع في الاثم ، ومنزهين عن الوقوع في المعاصي والذنوب ، فلا يتركون واجبا ولا يفعلون محرما ، ولا يتصفون الا بالأخلاق العظيمة التي تجعل منهم القدوة الحسنة ، والمثل الأعلى الذي يتجه الناس اليه .

وقد تولى تأديبهم الباري جل وعلا وربّاهم أحسن تربية ، حتـــى كانوا عليهم السلام قيما يقتدى بهم البشر . قال تعالى بشأن هؤلاء الأخيار : (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بهـا هؤلاء فقد وكّلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين أولئك الذين هدى اللـــه فبهداهم اقتده) (١)

ولو لم يكونوا معصومين عن المعاصي والآثام لسقطت هيبتهم في القلوب ولصغر شأنهم في أعين الناس . وبذلك تضيع الثقة فيهم ولا ينقاد لهم أحد من الناس وتذهب الحكمة من ارسالهم ليكونوا قادة الخلق الى الحق بل لو فعلوا شيئا يتنافى مع الكمال الانساني لفاتت الحكمة من ارسالهم

أن أنبياء الله ورسله الكرام معصومين عن الأمور الاعتقادية أو الخلقية مما يعد الوقوع فيه أمرا شائنا . وقد تقع من بعض الأنبياء أخطاء يعاتبون عليها ، ولكن الله ينبّه على خطئهم ويرشدهم الى الصواب (٢) وذلـك كقصة اعطاء اذن الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض أهل النفاق بـــأن لا يخرجوا معه الى القتال . قال تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) ؟ (٣)

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) راجع اذا أردت التفاصيل أكثر / كتاب النبوة والأنبياء للشيخ الصابوني ص ٥٠ وما بعدها ، وكتاب مع الأنبياء في القرآن ، لعبد الفتاح طبارة ص ١٩ وما بعدها . (٣) سورة التوبة ، آية (٤٣)

بيان أنّ نوحا عليه السلام نبى ورسول :

ونوح عليه السلام نبى من أنبياء الله سبحانه وتعالى ، لأن الله تعالى أوحى اليه بوحى كما أوحى الى باقى أنبياءه عليهم الصلاة والسلام ، وتدل الآيات الكريمة على ذلك بأن نوحا عليه السلام نبى وأوحى اليه ، مثل قوله تعالى : (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) (١) .

ان هذه الآية الكريمة وغيرها تدل دلالة واضحة على نبوة نوح عليه السلام وأنه تلقى الوحى من الله تبارك وتعالى .

ونوح عليه السلام رسول من رسل الله الكرام الذين ذكروا فى القرآن الكريم ، وهو أحد أولى العزم من الرسل الذين ذكرهم الله فى كتابه الكريم بقوله : (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) (٢)

ان الله عز وجلّ أوحى اليه بوحى وأمره بتبليغه للناس ، وأنه عليه السلام كان بشيرا ونذيرا . وهناك نصوص عديدة توضّح رسالة نوح عليه السلام ، ومن هذه النصوص أيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

أما الآيات : منها قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) وقوله : (قال ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون) (٣) وقوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا

---

(١) سورة النساء ، آية (١٦٣)

(٢) سورة الأحزاب ، آية (٧) .

(٣) سورة الأعراف ، آية ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ .

الى قومه اني لكم نذير مبين) (١) وأيضا قوله عز وجلّ : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون) (٢) وقوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا فى ذرّيتهما النبوة والكتاب) (٣) وقوله تعالى : (انا أرسلنا نوحا الى قومه أن انذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال يا قوم انى لكم نذير مبين) (٤)

ان هذه الآيات الكريمة قد دلت على أن نوحا عليه السلام مرسل من عند الله سبحانه وتعالى .

نوح عليه السلام أول رسول على وجه الأرض :

والرسول صلى الله عليه وسلم أكد على رسالة نوح عليه السلام . جاء ذلك عند البخارى وغيره فى حديث الشفاعة الطويل الذى بيّن فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بأن نوحا عليه السلام أول رسول على وجه الأرض .

أخرج الامام البخارى رحمه الله تعالى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم ، فرفع اليه الذراع - وكانت تعجبه فنهس منها نهسة (٥) ثم قال : أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون ممّا ذلك ؟ يجمع الناس . الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون . فيقول الناس : ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم ، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى مانحن فيه ؟ ألا ترى الى ما قد بلغنا ؟ فيقول

---

(١) سورة هود ، آية (٢٥) . (٢) سورة المؤمنون ، آية (٢٣)
(٣) سورة الحديد ، آية ٢٦ . (٤) سورة نوح ، آية ١ ، ٢
(٥) ومعنى نهس منها نهسة : اى أخذ منها بأطراف أسنانه عليه الصلاة والسلام .

آدم : ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه نهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى نوح . فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح انك أنت أول الرسل الى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول : ان ربى عز و جلّ قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وانه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى ابراهيم) (١) الحديث . ولا أرى حاجة الى سوق الحديث الطويل الى نهايته ، وذكر هذا الحديث فى هذا المقام كما هو الموضح أن نوحا عليه السلام أول رسول على وجه الأرض ، وأن الأنبياء الذين سبقوه كآدم وادريس وشيث عليهم السلام انما كانوا أنبياء غير المرسلين . والله أعلم .

وفى حديث آخر قد أكد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بأن نوحا عليه السلام رسول من عند الله . وقد بلّغ رسالة ربه الى قومه ، كما دعا قومه الى توحيد الله تبارك وتعالى . وأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته يشهدون لنوح عليه السلام يوم القيامة ، أنه قد بلّغ رسالة الله عز وجلّ .

من أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد

---

(١) الحديث رواه الامام البخارى فى صحيحه ، فى كتاب الأنبياء ، باب ذرية من حملنا مع نوح . فتح البارى لشرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى جـ ٨ ص ٣٩٥ .

وأمته ، فيشهدون أنه قد بلّغ ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، فذلك قوله جلّ ذكره : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (١) والوسط العدل " (٢)

والمراد فى الحديث الأول وهو حديث الشفاعة الطويل هو قوله : ((فيأتون نوحا فيقولون : يانوح انك أن أنت أول الرسل الى أهل الأرض)) .

وقد علق على هذا الامام الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى عند شرح هذا الحديث وقال : ((فأما كونه أول الرسل ، فقد استشكل بأن آدم كان نبيا بالضرورة ، تعلم أنه كان على شريعة من العبادة وأن أولاده أخذوا ذلك عنه ، فعلى هذا فهو رسول اليهم ، فيكون هو أول رسول فيحتمل أن تكون الأولية فى قول أهل الموقف لنوح مقيدة بقولهم الى أهل الأرض ، لأنه فى زمن آدم لم يكن للارض أهل ، أو لأن رسالة آدم الى بنيه كانت كالتربية للأولاد ، ويحتمل أن يكون المراد أنه رسول أرسل الى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل اليهم مع تفرقهم فى عدة بلاد ، وآدم انما أرسل الى بنيه فقط وكانوا مجتمعين فى بلدة واحدة)) (٣)

والصحيح الذى عليه الأكثرون أن نوحا عليه السلام هو أول رسول الى أهل الأرض كما فى حديث الشفاعة المذكور .

وبهذا الاعتبار هو أول رسول ، وليس أول نبى ، لأن قبله كانوا أنبياء كآدم وادريس وشيث عليهم السلام كما سبق ذكره .

---

(١) سورة البقرة ، آية (١٤٣)

(٢) الحديث ، رواه البخارى فى كتاب التفسير باب " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا " فتح البارى لشرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى جـ٨ ص ١٧١ .

(٣) فتح البارى لشرح صحيح البخارى - للامام بن حجر العسقلانى جـ ٦ ص ٣٧٢ .

متى أرسل نوح عليه السلام ؟

بعث الله عز وجلّ نبيه ورسوله نوح نوحا عليه السلام الى قومه بشيرا ونذيرا في الوقت الذى عبدت فيه الأصنام والأوثان ، وشرع الناس في الضلال والكفر ، وأن الله تبارك وتعالى بعثه رحمة للعباد ليوجههم الى عبادة الواحد الأحد وينهاهم عبادة ماسواه ، وكان قومه يقال لهم : بنوراسب فيما ذكره ابن جرير وغيره (١)

ولا يمكننا أن نحدد الوقت الذى أرسل فيه نوح عليه السلام ، لأننا لانجد نصا لافي كتاب الله تعالى ولا في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام يبيّن صراحة واضحة أن الله أرسل رسوله نوحا عليه السلام في التاريخ المعلوم .

ولكن هناك أقوال أهل التاريخ توضح بعض الجوانب بصدد ما نحن فيه . وأنهم ذكروا : على أن مولد نوح عليه السلام بعد وفاة آدم بمائة وستة وعشرين سنة (١٢٦) .

وارسال الله تبارك وتعالى رسوله نوحا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام في الوقت الذى أشرك الناس بالله عز وجل . وكان قوم نوح قد اتخذوا آلهة من دون الله اعتقادا منهم أنها تضر وتنفع وتبصر وتسمع ، وأن الأصنام في نظر المشركين تستطيع أن تجلب لهم الخير ، وتدفع عنهم السوء ، وتغنى عنهم من دون الله تعالى . وهكذا تفكير الكفار والمشركين في كل زمان ، وفي كل مكان . تشابهت قلوبهم في الاعتقادات الباطلة والأفكار المنحرفة .

---

(١) راجع البداية والنهاية ، للامام بن كثير جـ ١ ص ١٠٨ .

وقوم نوح أول ماعبدوا الأصنام وأشركوا بالله تعالى ، ولهذا بعثه الله اليهم رسولا لينذرهم ويخوفهم كما قال تعالى : (انا أرسلنا نوحا الى قومه و أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم . قال يا قوم انى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) (١)

ويمكننا القول بأن الناس قبل بعثة نوح عليه السلام كانوا مقرين بوحدانية الله تعالى ، فلهذا لم يبعث الله سبحانه اليهم رسولا لينذرهم ويحذرهم بذلك يكون هو أول رسول بعث بالانذار والتخويف .

قال الامام ابن جرير الطبرى : كان قوم نوح قد رسخوا فى الضلال ، واذدادوا فى العناد والفساد ، وعتوا عتوّا كبيرا ، فقد جاءهم نوح عليه السلام بالدلائل الواضحات ، والبراهين الساطعات على وحدانية الله تعالى ، وأن ما جاء به من عند الله حق لا ريب فيه ، وأنه رسول أمين يبلغ رسالة الله تعالى ، ومع هذا كله مالقى عليه السلام منهم الا صدودا واعراضا (٢)

كيفية انتشار الوثنية فى زمن نوح وقبل بعثته :

لقد وجد نوح عليه السلام قومه عند ما أرسله الله اليهم ، أنهم لا يعبدون الله وحده ، بل كانوا يشركون به سبحانه ، دعاهم الى التوحيد وأن سبحانه وتعالى خالقهم ورازقهم ، وظل عليه السلام يدعوهم قرونا فلم يستجيبوا له ولدعوته الا عدد لا يذكر . وقد أشار الله تعالى الى ذلك المشهد بقوله : (قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ومكروا و مكرا كبّارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا) (٣)

---

(١) سورة نوح ، آية ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) راجع تفسير الطبرى ، للامام محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ ، جـ ١

(٣) سورة نوح ، آية من ٢١ الى ٢٤ .

ان قوم نوح كانوا يعبدون هذه الأصنام المذكورة فى الآية الكريمة وذلك فى الوقت الذى بعث نوح عليه السلام اليهم رسولا من عند الله تعالى .

روى البخارى رحمه الله (١) فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما عند تفسير هذه الآية التى نحن بصددها قال : ((صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد . أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، واما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع . أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن أنصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا ، وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عبدت)) (٢)

جاء معنى الحديث فى فتح البارى : ودومة الجندل ، بضم الدال وسكون الواو مدينة بالشام ، وأما الجرف بضم الجيم والراء ، ومعنى : أنصبوا : أى صنعوا أحجارا . والنصب وضع الحجارة .

ومعنى : وتنسّخ العلم أى علم تلك الصور بخصوصها ، والحاصل : فاذا مات رجل منهم فخاف عليه فجعل لا يبصر عنه ، فاتخذ مثالا على صورته

---

(١) الامام البخارى : هو محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخارى ، الجعفى المشهور بأبى عبد الله . امام الحديث ، حافظ ، فقيه ، مؤرخ ، وانه قد شارك لعلوم كثيرة ، ورحل فى طلب الحديث الى سائر محدثى الامصار ، وله تصانيف كثيرة ، منها : الجامع الصحيح ، والتاريخ الكبير ، والاسمى والكنى ، وغيرها من الكتب . وقد توفى رحمه الله فى سنة ٢٥٦هـ وله ترجمة فى معجم المؤلفين جـ ٩ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ . وغيرها فى كتب التراجم

(٢) رواه البخارى فى كتاب التفسير ، باب " ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق " .
فتح البارى جـ ٨ ص ٦٦٧ .

كلما اشتاق اليه ، ثم مات ففعل به كما فعل ، حتى تتابعوا على ذلك فمات الآباء فقال الأنبياء : ما اتخذ آباؤنا هذه الأصنام الا أنهـــا كانت آلهتهم فعبدوها . (١)

ونوح عليه السلام دعاهم الى الله تعالى طيلة حياته ، وأنه نصحهم ولكن قوم نوح لا يحبون الناصحين .

وكان مصيرهم الهلاك والوبتـــار ...

---

(١) راجع فتح البارى ، لشرح صحيح البخارى ، لابى حجر جـ ٨ ص ٦٦٩

الباب الثالث

الفصل الثالث

الأسس التي قامت عليها دعوة نوح عليه السلام

وتشمل على العناوين التالية :

أولا : الايمان بوحدانية الله تبارك وتعالى ، وعدم الاشراك به .

ثانيا : الايمان بيوم القيامة ، وما فيها من نعيم أو عقاب .

ثالثا : الايمان بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، وأنهم أمناء على وحي الله تبارك وتعالى .

رابعا : الأنبياء والرسل عليهم السلام من البشر لا من الملائكة .

خامسا : نبي الله نوح رسول أمين كغيره من الرسل تجب طاعته .

سادسا : أن الرسل عليهم السلام لا يأخذون أجرا على تبليغ الرسالة .

سابعا : الصبر في الدعوة .

ثامنا : التذكير بمظاهر قدرة الله تبارك وتعالى .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أولا : الايمان بوحدانية تبارك وتعالى ، وعدم الاشراك به .

لقد كانت مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعا أن يوجّهوا الفطرة وجهتها السليمة الى الله تعالى ، وأن يحفظوا ذلك الشعور من الانحراف حتى لا يعبد الانسان الا الله الواحد القهار ، ولا يشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعض المخلوقات أربابا من دونه .

وفى الفترات التى (١) فيها الأمد على دعوة الرسل ، ضل الناس الطريق السوى ، وعبدوا أنواعا من الآلهة لا يكاد العقل يصدقها .

وأن أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم وأكبر همّهم فى كل زمان وفى كل بيئة هو تصحيح العقيدة لله تعالى ، وتصحيح الصلة بين العبد وربه ، والدعوة الى اخلاص الدين وافراد العبادة لله وحده .

وهو النافع والضار المستحق للعبادة ، وأن الدعاء والالتجاء والنسك لله سبحانه وتعالى .

وكانت جهود الأنبياء والرسل عليهم السلام مركزة وموجّهة الى الوثنية القائمة فى عصورهم ، الممثلة بصورة واضحة فى عبادة الأوثان والأصنام .

وكل من يتدبر القرآن الكريم ، وهو الكتاب المهيمن على الكتب السابقة يعرف بداهة أن القضاء على هذه الوثنية والانكار عليها ومحاربتها ، وانقاذ الناس من ظلماتها كان هدف النبوة الأساسى .(١)

---

(١) راجع كتاب : النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن ، للشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى ، ص ٤٩ وما بعدها .
الدار السعودية للنشر ، الطبعة الثالثة .

ان القرآن الكريم يقول تارة بالاجمال عند بيان وحدانية الله تبارك وتعالى كقوله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) (١) ، وتارة يقول بالتفصيل ، فيسمى نبيًا نبيًا ، ويذكر البارى عز وجل أن افتتاح دعوته كان الى التوحيد فقال الله عز وجل على لسان نبى الله نوح عليه السلام : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ألا تعبدوا الا الله) (٢)

وقال فى هود عليه السلام : (والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) (٣) وغيرهما من الرسل الكرام ، كان أول دعوتهم الى توحيد الله تبارك وتعالى ، وعدم الاشراك به .

بهذه الكلمات كان كل واحد من رسل الله يقول لقومه : يا قوم انى لكم نذير واضح أعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا .

ولقد قضت سنة الله عز وجل فى خلقه أن يكون للعقائد سلطان على الأعمال فما يكون فى الأعمال من صلاح أو فساد ، فانما مرجعه فساد العقيدة أو صلاحها .

فالتوحيد الخالص من الشوائب ، الصادر من القلب تتبعه حتما جميع الفضائل .

فان كلمة التوحيد ترسخ فى قائلها بأن لا معبود ولا محيى ولا مميت ولا رازق ولا نافع الا الله تبارك وتعالى .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية (٢٥)

(٢) سورة هود ، آية ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) " " " (٥٠)

أ ـ دعوة نوح عليه السلام قومه الى عبادة الله وحده .

كان التوحيد أساسا من أسس دعوة نوح عليه السلام كما كان أساسا لكل نبى ورسول عليهم الصلاة والسلام .

فنوح عليه السلام هو من أوائل الرسل الذين دعوا قومهم الى وحدانية الله عز وجلّ ، وعدم الاشراك به .

وقد استمرت دعوته قرونا ، وكان عليه السلام يدعوهم ويعظهم ويخوّفهم بما هم فيه من الشرك بالله تعالى ، قال تعالى : (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) (١)

وقال تعالى أيضا فى سورة المؤمنون : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون) (٢)

ولقد بيّن الله تبارك وتعالى فى هذه الايات الكريمة بأنه سبحانه وتعالى أرسل نبيه نوحا عليه السلام الى قومه ، وهم كانوا يعبدون الأصنام من دون الله عز وجل ، فخاطبهم نوح بتلك الكلمة التى جاء بها كل رسول فكان عليه السلام يقول لهم : يا قوم : اعبدوا الله وحده ، انما الهكم واحد وهو الله سبحانه ، ولا يحق لكم أن تعبدوا غيره .

فهذه الكلمة التى لا تتبدل فى جميع الأزمان وعند جميع الأنبياء والرسل . وهى قاعدة هذه العقيدة التى لا توجد الا بها ، وهى عماد الحياة الانسانية الذى لا تقوم على غيره . ان كلمة التوحيد وعدم الاشراك بالله تعالى هى ضمان وحدة الوجهة ، ووحدة الهدف ووحدة الرباط .

---

(١) سورة الأعراف ، آية (٥٩) .

(٢) سورة المؤمنون ، آية (٢٣) .

ان دين الله تعالى منهج للحياة ، قاعدته أن يكون السلطان كله في حياة الناس لله الواحد الأحد ، وهذا هو معنى عبادة الله وحده ، ومعنى أن لا يكون للناس اله غيره .

قال الامام محمد بن جرير الطبرى ما يلى : ((قال الله تعالى : انا أرسلنا نوحا داعيا الى طاعتنا وتوحيدنا ، والبراءة من كل معبود سوانا ، وقال لهم : يا قوم اعبدوا الله تعالى وذلّوا له بالطاعة . ما لكم من معبود يجوز لكم أن تعبدوا غيره . وقال لقومه الذين لا يخافون الله : يا قوم أفلا تخشون بعبادتكم غيره عقابه أن يحل بكم (( )) ؟ .(١)

وقد أنكر قوم نوح دعوة رسولهم ، وأنهم لم يقدّروا قدره بأنه ناصح لهم وأنه رسول رب العالمين .

هذا هو شأن الكفار الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا يؤمنون بما أنزل على رسله الكرام فى جميع العصور . وأن أقوالهم متشابهة تماما . وقد أخبر الله عز وجل فى كتابه الكريم بأن جماعة من رسل الله الكرام جاءوا الى أقوامهم ليدعوهم الى عبادة الله وحده . ولكن أقوام الرسل الذين كفروا وكذبوا بآيات الله أعرضوا عنهم ، وعن دعوة الحق ، وذلك قوله تعالى : (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا : انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعونا اليه مريب)(٢) .

المعنى الاجمالى : يقول الله عز وجل مخاطبا الكفار : ألم يأتكم خبر الذين من قبلكم — أى أتاكم ، ومجىء الخبر ليتدبروا ما أصاب كل واحد من الكفار

---

(١) تفسير القرطبى ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، لابى جعفر بن محمد بن جرير الطبرى جـ ١٨ ص ١٦ .

(٢) سورة ابراهيم ، آية (٩)

الذين خلوا فى القرون الماضية ، فيتركوا ماهم عليه من الشرك بالله تعالى . وهؤلاء الأقوام هم قوم نوح وعاد وثمود الذين أشركوا بالله غيره ، وكذلك الأقوام الذين جاؤا من بعدهم لا يعلم ولا يحصى عددهم الا الله تعالى ولا يعرف نسبهم الا الله .

وهؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام جاؤا بالدلائل الواضحات على وحدانية الله تعالى . ومعنى قوله : ((فردّوا أيديهم فى أفواههم)) أنهم تركوا ما أمروا به ولم يسلموا وجعلوا أيديهم فى أفواههم ليعضّوها عضّا مما جاء به الرسل ، وذلك اذا كان فيه تسفيه أحلامهم وشتم أصنامهم . (١) .

وأن أقوام الرسل هؤلاء قالوا : لرسل الله ،انّا كفرنا بالارسال على زعمكم ، انهم أعلنوا الكفر بالله عز وجل ، وأنكروا ما جاء به رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وأنهم أعلنوا أيضا وقالوا : انا فى شك وريب مما يدعونا اليه هؤلاء الرسل من التوحيد لله .

وبعد ذكر هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها . فقد بيّن البارى عز وجلّ موقف الرسل الكرام تجاه أقوامهم الكفار الذين أشركوا بالله ولم يصدقوا برسل الله وبما جاؤا به من ربهم .

ونبى الله نوح عليه السلام هو أول الرسل ، ومن أطولهم دعوة الى توحيد الله تبارك وتعالى .

قال الله تعالى على لسان جماعة من الرسل : (قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمّى) (٢) نما كان الذى يدعوهم اليه رسلهم هو الاعتقاد بالالوهية

---

(١) راجع تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ص ٢٣٠ .
وأنظر أيضا تفسير القرطبى ، الجامع لاحكام القرآن ، للامام القرطبى جـ ٤ ص ٣٥٧٤ .

(٢) سورة ابراهيم ، آية (١٠)

لله وحده ، وربوبيته للبشر بلا شريك من عباده . فان الشك في هذه الحقيقة الناطقة التي تدركها الفطرة ، وتدل عليها أيات الله تعالى المنتشرة في ظاهر الكون .

وأن رسل الله الكرام استنكروا هذا الشك ، وبيّنوا بأن السماوات والأرض شاهدتان على وحدانيته سبحانه وتعالى .

قالت الرسل عليهم السلام لأقوامهم مستنكرين : أيكون الشك في وجود الله تعالى ووحدانيته ، والسماوات والأرض تنطقان للفطرة بأنه تعالى أبدعها ابداعا . وأن السماوات والأرض آيتان بارزتان لوحدانيته تعالى وكيف يكون الشك في وجود الله تعالى ووحدانيته ؟ + .

ثم أخذ الرسل يعدّون نعم الله على البشر في دعوتهم الى الايمان الموءدي للمغفرة .

هكذا نرى المعركة تشتد بين الرسل وأقوامهم حول رسالة الحق ودعوة التوحيد . وتنتهي بانتصار الحق ، وتغلب الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهلاك المكذبين المعاندين المستكبرين . وصدق الله حيث يقول : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون) (١) . ما أروع هذه البشرى لعباد الله المرسلين ؟ وكذلك لدعاة الحق الى يوم الدين . قال الله عز وجل في صدد ذلك : (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) (٢) .

ان الله سبحانه وتعالى ينصر رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام والذين آمنوا كذلك على أعدائهم الكافرين المكذبين .

---

(١) سورة الصافات ، آية ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) سورة الموءمن ، آية (٥١)

ب - براهين عقلية على وحدانية الله تبارك وتعالى :

الاسلام دين منطق وعقل لا يأمر معتنقيه بعقيدة الاّ بعد أن يعرض البراهين العقلية على صحتها ، ولا يهاجم أخرى الاّ بعد أن يبيّن تفاهتها وبعدها عن الصواب .

فتعدد الآلهة مثلا يجعل الناس عبيدا لآلهتهم ، ولذا يخاطب القرآن الكريم المشركين على لسان نبى الله يوسف عليه السلام قائلا : (ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه الا أسماء سمّيتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألاّ تعبدوا الاّ اياه) (١)

فالقرآن الكريم يستهل خطابه ببيان الفرق العظيم بين عبادة اله واحد يخضع الجميع لحكمه ، وما يستدعى ذلك التوحيد من التخفيف عن كاهل الانسان من التضحيات المرهقة والشعائر الوهمية ، كما أن هذا التوحيد يوحّد بين البشرية ، ويقضى على كثير من أسباب الخلاف الذى نشأ بسبب اختلاف المعتقدات .

ثم ينتقل القرآن الكريم الى محاجّة المشركين قائلا : كيف تعبدون آلهة هى من صنعكم ؟ أطلقتم عليها أنتم وآباؤكم أسماء مختلفة ما أنزل الله بها من سلطان وبرهان عقلى يطمئن بها من يعبدها من دون الله تعالى .

قال تعالى : (لو كان فيها آلهة الاّ الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) (٢)

لو كان فى السماوات اله وفى الأرض اله لاختل النظام فى الكون .

---

(١) سورة يوسف ، آية ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية ٢٢ .

جـ- وحدة الأنظمة الكونية تدل على وحدانية الله تعالى :

ومن البراهين المدهشة التي تفرد بها القرآن الكريم في الدلالة على وحدانية الله تبارك وتعالى ، تقرير وحدة الأنظمة الكونية ، هذه الأنظمة التي تدل على موجد واحد لها . وقد أشار الله عز وجل الى ذلك بقوله : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوّا كبيرا تسبّح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا) (١)

يخاطب الله تبارك وتعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ويقول له : قل يا محمد صلى الله عليه وسلم للمشركين : لو كان مع الله سبحانه آلهة كما يقول المشركون : لطلب هؤلاء الالهة طريقا يصلون به الى الله صاحبا لينازعوه عليه . حاشاه تعالى من أن يكون معه آلهة ، وكيف يكون له شريك ؟ والسماوات السبع والأرضين وما فيهنّ ومن فيهما تشهد له بالوحدانية ، وتنزهه وتقدّسه حمدا له ، ولكن لا نفقه هذا التسبيح ولا ندرك كنهه .

ولقد جاء الاسلام يدعو الى عبادة الله تعالى وحده ، كما دعا الى التوحيد جميع الأديان السماوية ، وترك عبادة كل ما سواه ومن سواه من الآلهة المزعومين . ان روح الاسلام هو التوحيد - توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية الذي هو افراد الله عز وجلّ بالعبادة .

---

(١) سورة الاسراء ، آية ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

وأن عنوان الاسلام في جميع العصور من لدن أبينا آدم عليه السلام الى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها هي تلك الكلمة العظيمة التي هي أفضل ما قاله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والنبيون من قبله ، قوله : ((لا اله الا الله)) احدى كلمتي الشهادة .

ان أول وصية في القرآن الكريم ، وأول مبدأ كان يبايع عليه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كل من اعتنق دينه هو : ((اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا)) .

وأن أول دعاء ما دعا اليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ملوك الأرض هو : هذه القضية الكبرى بأن يعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تطرح الآلهة الباطلة والأرباب التي اتخذها الناس من دون الله تعالى .

ومن هنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يختم رسائله التي أرسلها الى قيصر والنجاشي وغيرهما من ملوك وأمراء الدول في ذلك الزمان بهذه الآية الكريمة الآتية : وهي قوله سبحانه : (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[1] هكذا يخاطب الله عز وجل محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقول لأهل الكتاب : تعالوا الى كلمة التوحيد حيث لا يختلف فيها الرسل والكتب المنزّلة وهي أن لا تعبدوا الا الله ونخلص له العبادة .

---

(١) سورة آل عمران ، آية (٦٤)

ولا نجعل غيره شريكا له في استحقاق العبادة ، " ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله " أي بأن نقول عزير ابن الله والمسيح ابن الله .

ويقول الله لنبيه : فان تولوا وأعرضوا عما دعوتهم اليه من التوحيد وترك الاشراك ، فقل أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمون : اشهدوا يا أهل الكتاب بأنّا مسلمون دونكم أنتم ، وأنكم كافرون بسبب اشراككم بالله تعالى .

لقد شدد الاسلام حملته على الشرك ، وحاربه بكل سلاح ، وقرر أنه الاثم العظيم والضلال البعيد والذنب الذي لا يغفره الله أبدا .

وجاء في قوله تعالى : (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) (١)

وقد ثبت في الصحيحين قول الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((من مات وهو يدعو من دون الله ندّا دخل النار ، ومن مات وهو لا يدعو لله ندّا دخل الجنة)) . (٢)

وفي هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة أن أهل التوحيد الخالص الذي لا يشرك صاحبه بالله تعالى شيئا يعفى لهم ما لا يعفى لغيرهم . وكل ذنب يمكن أن يغفره الله بفضله وكرمه ، ويقبل فيه شفاعة الشافعين الا الاشراك به سبحانه .

ان التوحيد المخلص يحرق الذنوب والخطايا وان كانت مثل زبد البحر ، كما أن الشرك يمحق الحسنات وان كانت مثل عدد الرمل

---

(١) سورة النساء ، آية (١١٦)

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ، باب " ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا " فتح الباري لشرح صحيح البخاري لابن حجر ، جـ ٨ ص ١٨٦ .

ثم أن الشرك بالله ، فضلا عما فيه من انحطاط وقذارة وهوان للانسان ففي نفس الوقت هو كذب على الحقيقة وتزوير للواقع .

وصدق الله حيث يقول : (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) (١)

المعنى المراد من الآية الكريمة :

ان الله تعالى يأمر عباده بأن يبتعدوا عن عبادة الأوثان والأصنام ، فان عبادتها رجس أى الشيء القذر . كما أمر باجتناب قول الزور الباطل وقوله : " حنفاء لله غير مشركين به " أى مستقيمين أو مسلمين مائلين الى الحق . وقوله : " ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء " خرّ من السماء أى سقط من السماء ، هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أشرك به ، فى هلاكه وبعده من الهدى .

وقال بعض المفسرين : هو يوم القيامة بمنزلة من لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عن نفسه ضرا ولا عذابا ، فهو بمنزلة من خرّ من السماء .

وقوله : " فتخطفه الطير " أى تقطعه بمخالبها ، وقيل : هذا عند خروج روحه وصعود الملائكة بها الى سماء الدنيا ، فلايفتح لها فيرمى بها الى الأرض .

ومعنى تهوى به الريح : أى تسقطه وتقذفه فى مكان بعيد .

وسحيق : بعيد . ومنه يقال : بعدا وسحقا . (٢)

الاسلام قد أعلن أنه ليس فى العالم المخلوق شيء يستحق أن يسجد له الانسان أو يتضرع اليه أو يرجوه أو يخشاه .

فالملائكة عباد الله تعالى ، وهم خاشعون خاضعون له ، فالبشر أيضا

---

(١) سورة الحج ، آية (٣١)

(٢) راجع تفسير القرطبى - الجامع لاحكام القرآن - جـ ٥ ص ٤٤٤٧ .
وأنظر أيضا كتاب - تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ، ص ٢٩٣ .

عباد الله تعالى ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم ضرّا ولا نفعـــــا ولا موتا ولا حياة .

فالعبودية هي الوصف اللازم لهم جميعا . والى ذلك أشار اللـه تبارك وتعالى بقوله : (ان كل من في السماوات والأرض الاّ آت الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدّهم عدّا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) (١)

وقد أكد القرآن الكريم أنّ التوحيد هو دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام . كلهم دعا رقومه الى عبادة الله وحده ، واجتناب عبادة الطاغوت ، فان كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت .

فهما معبودان لا ثالث لهما ، أحدها حقّ والآخر باطل . اما اللـه سبحانه وتعالى وامّا الطاغوت . ومن استكبر عن عبادة الله عز وجلّ ، سقط حتما في عبادة الطاغوت . قال الله تعالى : (ولقد بعثنا فـــي كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى اللـــه ومنهم من حقّت عليه الضلالة) (٢) . الطاغوت : هو الشيطان وكل ما يدعو الى الضلالة .

وقوله : " ومنهم من حقّت عليه الضلالة " أي بالقضاء السابق عليه حتـــى مات على كفره .

واننا لا نجد نبيّا من الأنبياء عليهم السلام الا وقد حذر قومه مـــن خطر الوثنية ، ودعاهم الى توحيد الله واخلاص العبادة له سبحانـــه

---

(١) سورة مريم ، آية ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) سورة النحل ، آية (٣٦) .

ثانيا : الايمان بيوم القيامة :

ومن الأسس التي قامت عليها دعوة نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام : الايمان باليوم الآخر الذى هو من أهم الأسس التى قامت عليها دعوات جميع الرسل عليهم السلام بعد الايمان بالله ووحدانيته سبحانه وتعالى .

ان الايمان باليوم الآخر من أركان العقيدة الاسلامية .

وقد بين الله تبارك وتعالى بأن الذين يكفرون بالله واليوم الآخر فقد ضلوا الطريق ، وأن الله أحبط أعمالهم . قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالا بعيدا)(١) ، فعقيدة الايمان بالله تعالى لا تنفك عن الايمان باليوم الآخر ، لأن من مقتضى الايمان بالله تعالى تصديقه فى جميع ما يخبرنا به .

ولقد أكّد الله سبحانه وتعالى حقيقة الحياة الثانية بعد الموت ، وأنها حياة الحساب والجزاء ، وأنها حياة أخرى بعد هذه الحياة الاولى الفانية القصيرة المدى ، التي هي حياة الامتحان والابتلاء .

فعقيدة الايمان باليوم الآخر وما فى هذا اليوم من حقائق ثابتة عقيدة معلومة من الدين بالضرورة .

والمؤمن يؤمن بهذا اليوم ، ولا ينكر شيئا من أحواله وحقائقه التى جاء

---

(١) سورة النساء ، آية (١٣٦)

الاخبار عنها بطريق يقيني صادق ، وأنها ولا شك من أمور الغيب التي لا يستطيع العقل أن يعرف عنها أيّة صورة ما لم يأته نص واضح يبيّن له حقائقها عن طريق الرسول المبلّغ من الله تعالى .

ونبي الله نوح عليه السلام دعا قومه طوال مدة بقائه بينهم الى الايمان بيوم القيامة بعد الايمان بالله تبارك وتعالى .

وكان عليه السلام يوصي قومه ويقول لهم : ان لم يؤمنوا بالله عز وجل وحده ، ولم تعملوا عملا صالحا أخاف عليكم عذاب يوم القيامة الذي فيه يحاسب الله الناس ، ويجازي كلا على عمله .

وكما كان عليه السلام ينذر قومه ويخوفهم من عذاب يوم أليم ،

وقد أشار الله تبارك وتعالى بقوله : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم)(١)

جاء في تفسير روح المعاني ما نصه : ((والظاهر أن المراد باليوم يوم القيامة ، وجوّز أن يكون يوم الطوفان . ووصفه بالأليم أى : المؤلم على الاسناد المجازي لأن المؤلم هو الله تعالى))(٢)

وقوله سبحانه : (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم)(٣) . وقد هدّد نوح عليه السلام قومه بعد ما سخروا منه بالعذاب الذي يخزيهم وهو عذاب الطوفان الذي حل بهم وأهلكهم وأما العذاب الذي يحل عليهم فهو عذاب الآخرة .

---

(١) سورة هود ، آية ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) تفسير روح المعاني ، للالوسي جـ ١٢ ص ٣٦ : والامام الآلوسي هو : أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود أفندي الآلوسي البغدادي جمع كثيرا من العلوم حتى أصبح علّامة في المنقول والمعقول ، وكان محدثا ومفسرا .
وكتان رحمه الله عالما باختلاف المذاهب ، وله تصانيف كثيرة .
وترجمته في ـ التفسير والمفسرون : لحسين الذهبي جـ ١ ص ٢٥٣ والاعلام جـ ٨ ص ٥٣ ، ومعجم المؤلفين جـ ١٢ ص ١٧٠ .

(٣) سورة هود ، آية (٣٩)

وقال تعالى في سورة الفرقان : (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما) (١)

قوله : ((وأعتدنا للظالمين عذابا أليما)) هو عذاب الآخرة .

اذ لا فائدة في الاخبار باعتداد العذاب الذي قد أخر بقومه من قبل ، وأن الله عز وجل بيّن أنه أغرقهم لما كذبوا رسولهم نوحا عليه السلام . وأنه سيجازيهم أشد العذاب يوم الجزاء والحساب .

وقال تعالى في سورة نوح : (انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ( ) (٢) وهذا العذاب الأليم هو اما عذاب عاجل وهو ما حل بهم من الطوفان ، أو آجل وهو عذاب النار يوم القيامة

وجاء قوله تعالى أيضا في سورة نوح عليه السلام : (والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا) (٣)

لقد خاطب نوح عليه السلام قومه وبيّن لهم هذا العهد من أول دعوته قائلا : يا قوم : ان الله تعالى خلقكم أول مرة من تراب ، ثم يعيدكم الى التراب بعد الموت ، ويخرجكم من قبوركم الى يوم الجزاء والحساب .

ان الله عز وجل أكّد في هذه الآية الكريمة على لسان رسوله نوح عليه السلام بأنه يعيدنا جميعا بالدفن بعد الموت ، ويخرجنا من التراب عند البعث والحشر اخراجا محقّقا لا ريب فيه .

وبهذه الأيات الكريمة قد وضح لنا بأن نبي الله نوحا عليه السلام بيّن لقومه وجود يوم الجزاء والحساب ، كما كان جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام أكّدوا لأقوامهم وجود يوم القيامة ، ولا يشك في وقوعه الا الكافرون

---

(١) سورة الفرقان ، آية (٣٧)

(٢) سورة نوح ، آية (١)

(٣) سورة نوح ، آية ١٧ ، ١٨ .

أ ـ ضرورة الايمان باليوم الآخر :

ان الله عز وجلّ منزه عن كل نقص ، وتقتضي حكمته أن يختار أكمل الصور ، ونحن عند ما نلاحظ هذا من منطلق ايماننا بالله تبارك وتعالى لا بد أن نهتدي الى أن حكمة الله تعالى تأبى أن يخلق هذا الكون وأن يخلق الانسان بصفاته التي هو عليها باطلا ، وأن تكون قصة خلق الانسان محدودة بظروف هذه الحياة الدنيا بكل ما نشاهد فيها من أعمال خير وشر تصدر عن هذا الانسان .

ان الايمان بيوم الجزاء مع ملاحظة واقع هذه الحياة الدنيا يهدي الى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى ، ولا بد من قدومها ليتم فيها الجزاء الأمثل وفق ما تقتضيه حكمة الخالق العظيم .

وهكذا يظهر لنا بهذا التسلسل الفكري المنطقي ـ ركن الايمان باليوم الآخر ، وهو أحد الأركان الأساسية التي تألفت منها القاعدة الايمانية في الاسلام ، وفي كل الأديان الربانية التي لم يدخل اليها التحريف والتبديل

ان عقيدة يوم القيامة عقيدة تأتي في الترتيب عقب الايمان بالله تبارك وتعالى . اننا نجد نصوصا قرآنية كثيرة قد اقترن فيها الكلام عن الايمان باليوم الآخر بالكلام عن الايمان بالله تعالى .

ان حياة أخرى قد رتبت في برنامج الوجود الكبير لاقامة كمال العدل وكمال الحكمة فيها ، وفيها يتم تحقيق الصورة المثلى للجزاء الرباني . قال تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون) (١)

---

(١) سورة المؤمنون ، آية (١١٥)

فهذا النص القرآني الكريم يكشف لنا ـ أنه لو لم يكن وراء هذه الحياة التي تنتهي بالموت حياة أخرى تكون فيها الرجعة , الى الله للحساب والجزاء واقامة محكمة العدل الالهية لكانت عملية الخلق ضربا من العبث .

وأن الله سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك .

ب ـ اثبات القرآن الكريم لليوم الآخر :

يسأل كثير من الناس منذ القديم ـ منذ أن أخبر الأنبياء عليهم السلام أنّ وراء هذه الحياة التي يعيشها الانسان حياة أخرى ، فيها الجزاء والحساب ، والسعادة والشقاء والجنة والنار ، يسألون عن حقيقة هذه الحياة وما فيها ، وعن الجنة وأنواع نعيمها ، وعن النار وألوان عذابها وأهوالها . (١)

ان كتاب الله دعا الى الايمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، وجعل لكل منهم دليلا مقنعا يتناسب مع عصره .

ومما أجمع على الاخبار به جميع الأنبياء والرسل وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة يكون فيها الحساب والجزاء والنعيم والعذاب .

ويكفي هذا الطريق وحده لاذعان العقل وتصديقه بهذه الحقيقة الكبرى التي التقت عندها النبوات والديانات قاطبة .

وهكذا نرى القرآن الكريم عرض الحياة الآخرة عرضا يقنع العقل بطريق مباشر ، وكثيرا ما ردّد مناقشة منكري البعث والحساب ، ورد عليهم ردا قاطعا كقوله تبارك وتعالى : (وقالوا أأذا كنا عظاما ورفاتا أانا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم

---

(١) راجع كتاب ، نظام الاسلام : لمؤلفه محمد المبارك ، لبنان : مطبعة دار الفكر ص ١٤٩ وما بعدها ، الطبعة الثالثة .

فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة) (١)

وهكذا ينكر الكفار ويستبعدون البعث والنشور بعد الموت .

ويقولون : هل نحن نبعث بعد ما صرنا عظاما وترابا بعثا جديدا ؟

وكان هذا غاية الانكار منهم . وأن الله تبارك وتعالى يخاطب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمنكرين الذين يقولون : من يعيدنا بعد الموت ؟ بأن الله تعالى يعيدهم ويبعثهم ، وأنه تعالى فطرهم وخلقهم أول مرة ، فتكون الاعادة أهون عليه .

وقال تعالى أيضا : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) (٢)

ان الله تبارك وتعالى يرد ردا قاطعا على المنكرين والذين زعموا أنهم لن يبعثوا بعد موتتهم الأولى ، أنهم سوف يبعثون ويخبرون بما عملوا ، وذلك سهل ويسير على الله عز وجلّ .

والذى لا شك فيه أن من أهم صفات المؤمنين أنهم يؤمنون باليوم الآخر ، ولا يجحدون ما وعدهم الله عز وجلّ به فى الآخرة ، ولا يشكون فى ذلك . فحقائق الآخرة لا تنافى العقل ولا تصعب على قدرة الله القاهرة . وأن الله يعيد الخلق كما بدأه ، بل هذه الاعادة أيسر بالنسبة لقدرة الله جلّت عظمته ، ان الله على كل شىء قدير .

والمؤمنون الذين يعرفون أن الحق من ربهم يؤمنون بما أنزل على رسول الله ، كما يؤمنون بيوم القيامة وما فيها من نعيم للمؤمنين

---

(١) سورة الاسراء ، آية ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ .

(٢) سورة التغابن ، آية (٧)

وعقاب للكافرين ، قال تعالى : (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) (١)

وقد تضمن القرآن الكريم مشاهد حيّة ، وصور واضحة لما سيكون في الجنة من ألوان النعيم ، وما في النار من صنوف العذاب الأليم .

والمسلم يؤمن بأن ما أخبر الله عز وجلّ حق لا ريب فيه ، كما يؤمن بصدق الوعد والوعيد ، وأن الله تبارك وتعالى لا يخلف وعده .

قال الله عز وجلّ : (وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٢) .

لقد صورت هذه المشاهد مشاعر أهل الجنة حين يرى بعضهم بعضا فترجع بهم الذكرى الى الدنيا وأحوالهم فيها ، فيحسّون بفضل الله عز وجلّ حين وفّقهم الى اتباع الحق ، ووجّههم الى سبيله المستقيم .

كما صورت مشاعر الجاحدين المنكرين الذين يكذّبون بيوم الدين حين يواجهون العذاب ويفاجئون بأهواله .

وهم يرون أمم الكفار قبلهم وبعدهم يشاركونهم نفس المصير . (٣)

وقد وصف القرآن الكريم طبيعة العذاب الذى سيلاقيه المكذبون في الدار الآخرة . وبيّن أوصافه بقوله تعالى : (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) (٤)

اننا نؤمن ايمانا يقينا بأن الجاحدين الكافرين سيلاقون في جهنم أنواعا من العذاب ، وقد امتلئوا باليأس والندم .

وهم يسألون أى شيء أدخلهم الى هذا العذاب ؟

---

(١) سورة البقرة ، آية (٤) .

(٢) سورة الروم ، آية (٦) .

(٣) أنظر كتاب شخصية المسلم ، للدكتور مصطفى عبد الواحد ، ص ٤٤ وما بعدها .
القاهرة : مكتبة المتنبى - الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ

(٤) سورة النساء ، آية (٥٦) .

وأن من بين الأسباب التي كانت سببا لدخولهم النار ، هو انكارهم وتكذيبهم بيوم الدين ، وقد أشار الله تعالى الى ذلك المشهد بقوله تعالى : (في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر قالوا : لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنّا نخوض مع الخائضين وكنّا نكذّب بيوم الدين) (١) .

المعنى : يسألون عن المجرمين أيّ شيء أدخلهم نار جهنم ، فيجيبون على السؤال الى أن يقولوا : وكنّا نكذّب بيوم الجزاء - وهو يوم القيامة وهؤلاء يعترفون أنهم كذّبوا بيوم الجزاء والحساب ، ولكن الاعتراف لا يخفف من عذابهم ، ولا يؤدي الى العفو عنهم .

وأما دار الثواب هي التي وعد الله المؤمنين بها في الجنة مقابل ايمانهم بالله تبارك وتعالى ، وبما أنزل الله من كتاب . وتقديمهم أعمالا صالحات ، وجزاء هذا العمل الصالح يكون سببا لدخولهم جنات النعيم .

قال الله عز وجلّ : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) (٢)

وأن الله عز وجلّ أعطى الذين آمنوا بالله وقدموا الاعمال الصالحات أعطاهم جزاء عملهم جنات الفردوس ، وهم خالدون فيها لا يطلبون عنها تحويلا الى غيرها . والحول بمعنى التحويل (٣)

---

(١) سورة المدّثر ، آية من ٤٠ الى ٤٦ .

(٢) سورة الكهف ، آية ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٣) أنظر تفسير القرطبي - للامام أبي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي جـ ١٠ ص ٤١٠٧ .

ثالثا : عقيدة الايمان بالرسل عليهم السلام :

ومن الأسس التى قامت عليها دعوة نبى الله نوح عليه السلام الايمان بالرسل . ولقد بيّن عليه السلام لقومه مدة بقائه فيهم أنه رسول من رب العالمين ، وأن الله بعثه اليهم بشيرا ونذيرا وأنه دعاهم الى الايمان برسالته وما أنزل من وحى الله تبارك وتعالى بعد الايمان بالله واليوم الآخر .

ولكن قوم نوح لم يؤمنوا به ، بل رموه بالضلالة ، ونفوا عنه أنه رسول اليهم مع علمهم بأنه عليه السلام صادق ورسول أمين فيما بينهم ، ولكنهم أنكروا عليه هذا الأمر ظلما وعدوانا .

وهذا الأمر الذى قام به نوح ليس بغريب على نوح عليه السلام ، وأن هذه التهم الباطلة قد وجّهت لجميع الرسل عليهم السلام من قبل أقوامهم المكذبين .

أ - أن نوحا عليه السلام رسول من عند الله ، وأنه بشير ونذير .

لقد أكّد نبى الله نوح عليه السلام لقومه الذين استكبروا بقوله : يا قوم انى رسول اليكم من عند الله العلى القدير ، وقد أرسلنى اليكم بشيرا ونذيرا ، ولكن قومه لم يؤمنوا به ولم يصدقوه ، أنهم لم يكتفوا بذلك ، بل كذّبوه وأنكروا عليه ، وقد اتهموه أنه عليه السلام على ضلالة وأنه يفترى على الله وقالوا له : يا نوح انا لنراك فى ذهاب عن طريق الحق والصواب .

هكذا كان اتهام قوم نوح لرسول الله نوح عليه السلام ، يرى أهل الضلال أن من يدعوهم الى الهدى هو الضال .

هكذا تنقلب الموازين وتبطل الضوابط ويحكم الهوى ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله عز وجلّ - الميزان الذى لا ينحرف ولا يميل .

قال الله تعالى على لسان قوم نوح : (قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين أبلّغكم رسالات ربى وأنصح لكم) (١)

الملأ : جماعة يجتمعون على رأى ، فيملئون العيون منظرا والنفوس بهاء وجلالا ، وهم الأشراف وأصحاب الرأى فيهم .

والضلال والضلالة : العدول عن طريق الحق والذهاب عنه ، أى انا لنراك فى دعائنا الى اله واحد فى ضلالة عن الحق) (٢)

قال قوم نوح انما لنراك يا نوح فى ضلال واضح وظاهر فانك ذهبت عن طريق الحق .

ونبى الله نوح عليه السلام نفى عن نفسه الضلال ، وكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ، فهو لم يبتدعها من أهوائه وأوهامه . انما هو رسول من رب العالمين يحمل لهم الرسالة ومعها النصح والأمانة .

وبعد ما وجّهه له قومه تهمة الضلال والتكذيب ردّ عليهم بالقول : اللّين : يا قوم ليس بى أقل شىء من الضلالة ولكنى رسول مرسل من رب العالمين ووظيفتى هو تبليغ الرسالة لكم .

وجاء فى تفسير روح المعانى عند تفسير هذه الآية الكريمة ما يلى : (قال الأشراف والمستكبرون من قومه انا لنراك فى ضلال مبين . كأنه قيل : فماذا قالوا : بعد ما قيل لهم ذلك : ؟ فقيل لنوح عليه السلام : يانوح انا لنراك فى ضلال ، ورد نوح [illegible]

---

(١) سورة الأعراف ، آية ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

(٢) راجع المفردات فى غريب القرآن . للراغب الاصفهانى ص ٤٧٣ . وأنظر أيضا تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٢٦٧٠ .

الضلال فضلا عن الضلال المبين .

ان القوم لما أثبتوا له الضلالة أرادوا به ترك دين الآباء ودعوى الرسالة فحين نفى الضلالة توهم منه على دين آبائه وترك دعوى الرسالة ، فوقع الاخبار بأنه رسول وثابت على الصراط المستقيم استدراكا لذلك .

وقيل : هو استدراك ممّا قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه أقصى مراتب الهداية ، فان رسالته من رب العالمين مستلزمة لا محالة .

كأنه قيل : ليس بى شيء من الضلالة لكنى فى الغاية القصوى من الهداية)) (١)

وجاء فى سورة الشعراء بيان أن نوحا عليه السلام رسول من رب العالمين . وأن قومه كذّبوه ولم يؤمنوا به . قال تعالى : (كذّبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون انى لكم رسول أمين) (٢)

المعنى : كذبت جماعة قوم نوح المرسلين ، وتكذيبهم للرسلين ، اما باعتبار اجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع ، واما المراد بالجمع الواحد ، وان تكذيب رسول واحد يعتبر تكذيب الرسل جميعا .

وينبغى لكل مسلم موحّد أن لا يفرق بين أحد من رسل الله الكرام.

---

(١) تفسير روح المعانى ، للآلوسى البغدادى جـ ٨ ص ١٥٠ .

(٢) سورة الشعراء ، آية ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

(ب) الايمان بالانبياء والرسل من أركان العقيدة :

من أركان العقيدة الاسلامية وفى جميع الأديان السماوية الايمان ببعثه جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام .

فيجب على كل مسلم أن يؤمن ايمانا صادقا بأن الله تبارك وتعالى أرسل رسلا مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه .
وأنهم قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم الله عز وجلّ ، وتبيين سلطانه القاهر ، وتفصيل أحكامه تعالى لأقوامهم ؛
كما يجب على المسلم الايمان بتصديق الرسل عليهم السلام فى أنهم بلّغوا رسالات الله تعالى للناس على أكمل الوجه وأتمّه .
ويجب أيضا الاقتداء بهم فى سيرهم ، والقيام بما أمروا به والكفّ عما نهوا عنه .

ان القرآن الكريم يدعو الى الايمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام جميعا ، كما يدعو كل أمة أن تؤمن برسولها ، وبالأنبياء والرسل الذين خلوا من قبله ، وكذلك الايمان بجميع ما أنزل اليهم . قال الله عز وجلّ مشيرا الى ذلك : و (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله) (١)

وقد بيّن البارى عز وجلّ فى هذه الآية الكريمة بأن الرسول آمن وصدّق بما أنزل اليه من ربه وكذلك المؤمنون آمنوا ، وكل واحد آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله الكرام ، وأن المؤمنين لا يفرّقون بين أحد من رسل الله تعالى . يؤمنون بجميع الأنبياء والرسل جملة وتفصيلا .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٨٥ .

جـ - : وجوب عقيدة الايمان بالله تعالى لا تنفك عن الايمان بالأنبياء والرسل :

فعقيدة الايمان بالله عز وجلّ لا تنفك عند جميع الأديان السماوية من الايمان برسله الكرام .

وقد أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وأمرنا معه بالايمان بالله تعالى وما أنزل على الرسل . قال تعالى : (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي عيسى وعيسى والنبيّون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) (١) .

ان من مقتضى الايمان بالله تبارك وتعالى تصديقه في كل ما يخبرنا به . وهذا يقتضي الايمان برسله الذين أخبر عنهم في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثم ان الايمان بواحد من الرسل لا ينفك عن الايمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام ، فوجب الايمان بكل منهم .

والمؤمن الذي آمن بالله عز وجلّ لا يفرق بين أحد من رسل الله ، ويؤمن بهم جميعا دون تفريق . لأن الرسل صفوة الله عز وجلّ لعباده .

وقد صرح القرآن الكريم بأن من يؤمن ببعض الأنبياء ويكفر ببعض لا يقبل الله منه ذلك . ويعتبر هو من الكافرين ، قال الله تعالى : (ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا) (٢)

---

(١) سورة آل عمران ، آية (٨٤) .

(٢) سورة النساء ، آية ١٥٠ ، ١٥١ .

د ـ لكل أمة رسول :

قد اقتضت سنة الله تعالى في البشرية أن يرسل الى كل أمة رسولا من أنفسهم يسلك بهم الطريق الذى يؤدى بهم الى ما فيه اسعادهم في الدارين . والمسلم يثق بحكمة الله سبحانه وتعالى ،ويوقن بعدله ويطمئن الى رحمته ، وأنه يعلم علم اليقين أن الله تعالى لم يترك الناس بلا هداية الى الحق واقامة للحجة وتوجيه الى الطريق المستقيم .

وقد خاطب الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله : (انما أنت منذر ولكل قوم هاد) (١) وقال تعالى في سورة فاطر : (وان من أمة الا خلا فيها نذير) (٢) .

والآية الأولى تؤكد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ما هو الا مرسل للانذار من سوء العاقبة ما يأتون ، كالرسل الذين خلوا من قبله عليه الصلاة والسلام . وأن الله عز وجلّ أرسل لكل قوم هاد يهديهم الى طريق الحق .

والآية الكريمة الثانية تؤكد بأن الله تبارك وتعالى ما ترك أمة في جميع الأزمان الا وأرسل فيها رسولا يبلغ اليهم آيات الله تعالى .

ان أنبياء الله تعالى كثيرون ، وقد ذكر الله عز وجلّ في القرآن الكريم عددا من الأنبياء والرسل عليهم السلام .

وهناك عدد كثير من الأنبياء والرسل لم يذكره الله في كتابه ، وأمر بالايمان بالجميع . ونحن نؤمن بجميع أنبياء الله ورسله عليهم السلام المذكورين في القرآن الكريم وغير المذكورين . جاء في ذلك قوله تعالى : (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) (٣) .

---

(١) سورة الرعد ، آية (٨)

(٢) سورة فاطر ، آية (٢٤) .

(٣) سورة النساء ، آية (١٦٤) .

منذ أن عاش الانسان فى هذه الأرض يكافح فى سبيل الحياة ، وكان فى سمعه نداء السماء يقول : أيها الانسان ان لك الها قادرا أنشأك فى هذه الأرض واستخلفك فيها ، وجعل لك أجلا معلوما ، ثم تنتقل الى دار الآخرة ليجزيك أيها الانسان على ما قدمت ، ولتؤمن بـــه ولتخضع لحكمه ولتلتزم نهجه ، فان فى ذلك النجاة والفلاح فى الدنيا والآخرة . (١)

والذين حملوا هذه الدعوة والمهمة الخطيرة العظيمة الى البشر هم صفوة من خلق الله تعالى اصطفاهم ليكونوا عباده المرسلين للبشـــر جميعا . ولقد نادى الرسل بالحق ودعوا الى صراط الله المستقيـم وأنهم لاقوا المصائب فى سبيل هداية البشر وابلاغ وحى الله اليهم .

والأنبياء والمرسلون واجهوا من أقوامهم التكذيب والاضطهـــاد والحرب والاستهزاء ، وأن الله تعالى بيّن هذا فى سورة الحجر بقوله : (ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين وما يأتيهم من رسول الّا كانوا به يستهزؤن) (٢)

المعنى : يقول الله تعالى مخاطبا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم : لقد أرسلنا من قبلك رسلا فى أممهم . والشيع جمع شيعة وهى الأمة ، وكلما كان يأتيهم رسول كانوا يستهزؤن به ، أى كما فعل هؤلاء المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم فكذلك فعل بمن قبله من الرسل (٣) .

هكذا كذّب الرسل عليهم السلام من قبل أقوامهم ، وأنهم صبروا على أذى الكفار ، وفى نهاية الأمر نصر الله تعالى رسله على أعدائـــه وأعداء دينه .

---

(١) راجع كتاب شخصية المسلم كما يصورها القرآن الكريم ، للدكتور مصطفى عبد الواحد ص ٦٤ .

(٢) سورة الحجر ، آية ١٠ ، ١١ .

(٣) أنظر تفسير الطبرى ، جـ ١٤ ص ٨ ، والقرطبى جـ ٤ ص ٣٦٢٢ .

قال الله تعالى مبينا هذا المشهد : (ولقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدّل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين)(١)

المعنى : يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : لقد كذّبت رسل من قبلك من قبل أقوامهم ، وأنهم صبروا على هذا التكذيب والرسل الكرام أوذوا بأنواع الأذى حتى أتاهم نصر الله الذى وعدهم به ، ولا يستطيع أن يدفع أحد لمّا جاء نصر الله تعالى ، لا ناقض لحكمه ، ولا خلف لوعده .

أن التهم التى وجهت للمرسلين من قبل طوائف الضالين كثيرا ما تشابهت حتى فى كلماتها وأساليبها .

وقد كان فى سلوك المرسلين عليهم السلام مع أقوامهم دليل قاطع على صدق دعواهم وشرف غايتهم ، وتنزّههم عن الهوى .

---

(١) سورة الأنعام ، آية (٣٤) .

رابعـا : الأنبياء والرسل من البشر لا من الملائكة .

ان موقف الأمم جميعا من أنبيائهم ورسلهم لم يتغير علـى مرّ التاريخ . وجميع الأقوام استنكر أن يكون الرسول بشرا ، وهـم يظنون أنه لا يكون الا ملكا من السماء لا بشرا من الأرض .

لماذا كان الأنبياء والرسل عليهم السلام من البشر ؟

ونستطيع الاجابة على ذلك ، بأن من تمام الحكمة الالهية الربانية أن يبعث الله تعالى الى البشر رسلا منهم ، وفيه غرائز جميع البشر ليكون فى دعوته وأفعاله وأخلاقه حجة عليهم .

وكما يضرب الرسول بنفسه المثل على استطاعة البشر تطبيق أوامـر الله واجتناب نواهيه . واذا تعجب أهل الكفر أن يكون المرسل اليهم بشرا ، فتعجّبهم من ذلك هو الذى يستدعى العجب !.

ولما كان الغرض من بعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام أن يكونوا سفراء بين الله عز وجلّ وبين عباده لكى يبلّغوا رسالات الله الى الناس .

ويرشدون الخلق الى ما يحبّه البارى عز وجلّ وما يبغضه .

وكما يكونوا عليهم السلام قدوة حسنة للبشر فى سلوكهم وتصرفاتهم .

ولما كان لا بد من وسيط يكون ممن يمكن الاجتماع به والأخذ منـه لذلك بعث الله سبحانه وتعالى رسله من البشر ، ليبلغوا رسالاته الـى الناس ويدعوهم الى سعادة الدنيا والآخرة .

ولو كان الرسل من الملائكة لما استطاع البشر الأخذ عنهم أو الاجتماع اليهم .

ولو كان الرسول المبعوث الى الناس ملكا لكان للناس حجة فى عدم الاتباع للرسل عليهم السلام . وهو أن يقولوا : وهؤلاء الذين بعثهم الله الينا ، وأمرنا باتباعهم ليسوا بشرا من جنسنا ، اذا هم ملائكة ، وطبيعتنا تختلف عن طبيعتهم ، فهم أفضل منّا خلقا لأن الملائكة أطهار أنهم دائما فى عبادة الله تعالى لا ينقطعون عنها ، كما أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، وليس فيهم شهوة أو ميل الى المعصية لأنهم عباد مكرمون .

ومن ناحية أخرى لو كان الرسول الذى بعث الى الخلق ملكا من الملائكة لما استطاع الناس أن يتلقّوا الوحى عنه ، لأنه ان جاءهم صورة ملكية فزعوا وولّوا الأدبار هربا منه ، لأنهم لم يعهدوا مثل هذه الصورة ولم يروا مثل هذا الخلق .

ولو فرض اتيان الرسول للبشر من الملائكة ، فلا بد أن يأتى على صورة بشرية حتى يستطيعوا مشاهدته ، وحتى تتلائم صورته الجسدية مع مستوى حواسّهم .

ثم اذا عرفوا أنه ليس بشرا بتركه الطعام والشراب والنكاح وبقية الغرائز البشرية لكان عند ذلك أبسط عذر لهم أمام هذا الملك الرسول فى تبرير مخالفتهم لأوامر الله تعالى ونواهيه بأن يقولوا للملك : انك لا تحمل مثل غرائزنا ، وليس لنفسك شهوات مثل شهواتنا ، ولو كانت تلك الغرائز وشهوات لخالفت الأوامر والنواهى مثلنا .

ولكان ذلك مادة لاعتراض الناس على ربّهم ، ولأضافوها الى شبهات كفرهم الباطلة .

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في معرض الرد على المشركين حين طلبوا أن يكون النبي المرسل من الملائكة لا من البشر ، قال الله تعالى : (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون)(١)

المعنى : وقال الكفار لولا أي هلا أنزل على الرسول ملك . لم يبين هنا ماذا يريدون بانزال الملك ، ولكن الله بيّن في موضع آخر أنهم يريدون بانزال الملك أن يكون نذيرا آخر مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك في قوله تعالى : (وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا)(٢) الآية وقوله : " ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون " أي ولو أنزل الله ملكا وهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي لجاءهم العذاب من غير امهال ولا انظار .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لو رأوا الملك على صورته لماتوا اذ لا يطيقون رؤيته .(٣)

وقوله : " وللبسنا عليهم ما يلبسون " اللباس : الخلط يقال لبست عليه الأمر ألبسه لباسا بمعنى خلطته أي أضللناهم بما ضلوا به قبل أن يبعث الملك .(٤)

المعنى العام للآية الكريمة : يقول الله تبارك وتعالى على اعتراض المشركين : لو جعلنا النبي المرسل من البشر ملكا كما اقترحوا جعلناه في صورة رجل من البشر ، وذلك ليمكن اجتماعهم به وأخذهم عنه ، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر هل هو بشر أو ملك ؟ فيشكون في أمره .

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٧ ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الفرقان ، آية ، (٧)

(٣) راجع تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٣٩٠ .

(٤) راجع تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ص ١٥١ .

ويعودون الى سيرتهم الأولى فى طلبهم أن يكون النّبى من الملائكة ، وأنهم لا يستطيعون ان يروا الملك فى صورته الحقيقية ، لأن كل جنس يألف بجنسه ، فلا تتمّ بذلك المصلحة .

ولو نقله الله تعالى عن صورة الملكية الى مثل صورتهم ليأنسوا به ويسكنوا اليه لقالوا : انك لست ملكا وانما أنت بشر فلا نؤمن بك .
وهكذا عادوا الى مثل حالهم حيث كانوا يقولون : لسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم أنه بشر ، كما قال أمثالهم لرسل الله الذين خلوا من قبل .
فيلبسون على الناس بهذا ويشككون ، وأعلم الله عز وجلّ أنه لو أنزل ملكا فى صورة رجل لوجدوا طريقا الى الشك .

وقد ذكر الله عز وجلّ فى آية أخرى الحكمة من كون النبى من البشر لا من الملائكة ، وذلك أن المرسل ينبغى أن يكون من جنس المرسل اليهم.
قال تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الاّ أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) (١)
المعنى الاجمالى : ما الذى منع الناس الايمان بالله بالكتاب وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ما منعهم الاّ قولهم الباطل : " أبعث الله بشرا رسولا " الهمزة للانكار . وهو انكار منهم أن يكون الرسول بشرا .
وهذا السبب الذى منعهم عن الايمان بالكتاب وبالرسول . (٢)

ثم أمر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن شبهتهم هذه ، قل يا محمد صلى الله عليه وسلم : لو كان فى الأرض ملائكة بدلا

---

(١) سورة الاسراء ، آية ٩٤ ، ٩٥ .
(٢) راجع فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير لمحمد بن على الشوكانى جـ ٣ ص ٢٦٠ .

من البشر يمشون على الأقدام كما يمشى الانس مستقرين فيها ساكنين بها لنزّل الله تبارك وتعالى عليهم من السماء ملكا رسولا حتى يكون من جنسهم.

وفيه اعلام من الله عز وجلّ بأن الرسول يكون من جنس المرسل اليهم كما سبق ذكره .

أ - اعتراض قوم نوح على نبيهم أن يكون رسولا وهو بشر مثلهم :

لقد اعترض قوم نوح على نبى الله ورسوله نوح عليه الصلاة والسلام ، ويرون أن نوحا بشر مثلهم يأكل مما يأكلون منه ، ويشرب مما يشربون . ومن كان كذلك لا يصح أن يكون رسولا .

ذلك رد المتكبرين من كبار القوم وأشرافهم المتصدرين ، ان هذه الشبهة هى التى قالها أقوام الرسل حينما دعوهم الى الله تعالى (١) وهؤلاء الأقوام قالوا لرسلهم : " ما نراك الا بشرا مثلنا "

الشبهات ذاتها والاتهامات ذاتها ، انها الشبهة التى وقرت فى نفوس المستكبرين ، وأن الجنس البشرى فى نظرهم الفاسد أصغر من حمل رسالة الله تعالى ، فان تكن رسالة فليحملها ملك أو مخلوق آخر ،ألم يعلم هؤلاء الكفار بأن فاطر السماوات والأرض أعلم حيث يجعل رسالته ؟

هكذا اعترض أشراف وكبراء قوم نوح على رسولهم الأمين ، فلنستمع الى موقف الجحود والعناد فى قصة قوم نوح . جاء فى قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) (٢)

---

(١) أنظر كتاب دعوة الرسل الى الله تعالى - تأليف : محمد أحمد العدوى ص ٦ ، بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ

(٢) سورة المؤمنون ، آية ٢٣ ، ٢٤ .

الملأ : وجوههم وأشرافهم وكبراء القوم ، وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه ، وسموا بذلك لما أنهم يملئون العيون مهابة والمجالس بهاء . (١)

والمعنى : قالت جماعة أشراف قوم نوح الذين جحدوا توحيد الله وقالوا : ما نوح أيها القوم الاّ بشر مثلكم ، انما هو انسان كبعضكم ، وهو يريد أن يصير له الفضل عليكم ، فيكون متبوعا وأنتم له تبع .

ولو شاء الله عز وجل أن لا نعبد شيئا سواه لأنزل ملائكة أى ولو أراد الله أن لا يعبد شيء سواه لأرسل بما يدعوكم اليه نوح ملائكة تؤدى اليكم رسالته .

ويقولون : نحن لم نسمع بهذا الذى يدعونا اليه نوح من أنه لا اله لنا غير الله . ما سمعنا ذلك فى آبائنا الأولين فى القرون الماضية .

قال تعالى فى سورة هود فى اعتراض قوم نوح أيضا : (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) (٢)

قال أشراف وكبراء قوم نوح : ما نراك يانوح الا بشرا مثلنا ، وأرادوا بذلك ليس فيك يانوح مزية تخصك من بيننا بالنبوة ، ولو كان ذلك ، لرأيناه . لا أن ذلك محتمل ، لكن لا نراه (٣)

وهذا من اعتراضات قوم نوح ، وهم يقولون : أنه اذا كان الله تعالى يختار رسولا ، فلم لا يكون من هؤلاء الملأ الكبراء فى قومهم المتسلطين العالين ؟ وهذا الرأى من قوم نوح جهل بالقيم الحقيقية ، والتى من

---

(١) راجع تفسير الطبرى ، جـ ٥ ص ٢٩١ .
وتفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ص ٢٩٢ .

(٢) سورة هود ، آية (٢٧) .

(٣) راجع تفسير روح المعانى ، للآلوسى جـ ١٢ ص ٣٧ .

أجلها استحق الانسان الخلافة في الأرض ، واستحق حمل رسالات الله عز وجلّ .

ان هذه القيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو سلطان ، انما هي من صميم النفس واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى بما فيها من صفاء وتفتح وقدرة على التلقّي ، واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على ابلاغها ، وهذه الصفات لا علاقة لها بالاستعلاء .

ولكن أشراف قوم نوح كأقوام كل نبي ورسول . تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلوية ، فانهم لا يدركون مبرّرا لاختصاص الرسل بالرسالة ، وهي في زعمهم لا تكون لبشر ، فان كانت لبشر فهي تكون لأمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض بغير الحق .

ومن اتهامات قوم نوح ، بأن الذين اتبعوا نوحا عليه السلام هم الفقراء والأراذل ، وأنهم يعدّون فقراء القوم والذين لا سلطان لهم وهم آمنوا بالرسول المرسل اليهم يسمونهم أراذل ، كما ينظر الكبراء من الكفار دائما الى الآخرين . وأن الفقراء هم أتباع الرسل السابقين غالبا لأنهم بفطرتهم أقرب للاستجابة للدعوة .

ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف ، وأن أتباع نوح عليه السلام - وأتباع الرسل الآخرين لم يعرفوا العبودية والطاعة والاتباع للاشخاص الزائلة بدلا من الاتجاه لله الواحد الأحد دون شريك .

جاء قوله تعالى على لسان قوم نوح : (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين)(١)

---

(١) سورة هود ، آية (٢٧) .

الأراذل : جمع أرذل ، وأرذل جمع رذل مثل كلب وأكلب وأكالب ، يقال : رجل رذل وقد رذل رذالة ورذولة .

أردوا بذلك أخساءنا وفقراءنا . وهو المرغوب عنه لرداءته ، وجاء أيضا بمعنى الأشرار .

ومعنى بادى الرأى : أى ظاهر الرأى بغير همز ، ومن همزه جعله : أول الرأى . من بدأت فى الأمر فأنا أبدأ . والمعنى : اتبعوك حين ابتدؤا ينظرون ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك . (١)

وقوم نوح يقولون للفقراء أراذل القوم . أنهم لم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها فى الديانة . وكان ذلك جهلا منهم ، لأنهم عابوا نبى الله بما لا عيب فيه ، لأن الأنبياء صلوات الله عليهم انما عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات ، وليس عليهم تصوير الصور والهيئات ، والأنبياء يرسلون الى الناس ، فاذا أسلم منهم الدنىء لم يلحقهم من ذلك نقصان لأن ما عليهم الا أن يقبلوا اسلام كل من أسلم منهم .

وقوم نوح يرون أنّ الفضل عندهم فقط ، ولا يليق للذى ليس عنده مال ، أو سلطان . ويقولون : وما نرى لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب الى الهدى ، أو أعرف بالصواب .

قال الامام الآلوسى عند تفسير هذه الآية : مانصه ((كان جوابهم لنوح عليه السلام حين دعاهم الى ما دعاهم اليه - انا لا نتبعك ولا نترك ما نحن عليه لقولك أنك بشر مثلنا ، ليس فيك ما يستدعى نبوتك ، وكونك رسول الله الينا بذلك ((وأتباعك أراذل - اتبعوك من غير تأمل وتثبت

---

(١) راجع تفسير الطبرى ، للامام ابن جرير الطبرى ، جـ ١٢ ص ١٧ . والقرطبى ، الجامع لاحكام القرآن جـ ٤ ص ٣٢٥١ وما بعدها . وأنظر أيضا تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة . ص ٢٠٣ .

فلا يدل على اتّباعهم على أن فيك ما يستدعى ذلك وخفى عنا ، وأيضا لست ذا تفضل علينا ليكون تفضلك داعيا لنا لموافقتك كيفما كنت ، ولا أتباعك ذو تفضل علينا لنوافقهم وان كانوا أراذل مراعاة لحق التفضل . بل نظنكم كاذبين جميعا لكون كلامكم واحد ودعوتكم واحدة)) (١)

ان قوم نوح يرون أن ذا المال أفضل وذا الجاه أفهم وذا السلطان أعرف هذه هى المفاهيم وتلك هى القيم التى تسود دائما حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمعات .

ب - اعتراض المشركين على بعثة الرسل من البشر :

ولقد اعترض المشركون فى جميع العصور على بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام لكونهم من البشر .

واتخذوا من ذلك ذريعة لتكذيب الرسل الكرام والطعن فى رسالاتهم .

هكذا يكون منطق الشرك والضلال فى كل عصر منطقا لا يكاد يتغيّر .

فما بعث الله تبارك وتعالى نبيّا ولا رسولا الا ووقف المشركون فى وجهه وقفة استكبار وعناد يتساءلون ؟ أن المرسل بشر مثلنا يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب .

لماذا لا يكون الرسول من الملائكة ؟ ولماذا لا يكون من الأشراف العظماء من أهل الثروة والغنى والسلطان ؟

فلنستمع مثلا الى موقف عاد مع نبى الله ورسوله هود عليه السلام ، قال تعالى : (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذّبوا بلقاء الآخرة -

---

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ، للعلامة الآلوسى ، جـ ١٢ ص ٣٩ .

وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولان أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون)(١)

ومعنى : كذبوا بلقاء الآخرة ، أي تكذيبهم يوم البعث والحساب .

وأترفناهم : أي وسّعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا ، وصاروا يؤثرون بالترفة(٢) ومواقف أقوام الرسل كانت مثل موقف قوم نوح وصالح وغيرهم عليهم السلام .

ان صفة البشرية في رسل الله الكرام تعتبر في العقل السليم من كمال الحكمة ، وقد تعلّل بها في رفض دعوة الرسل أقوام كثيرون .

كما هو الملاحظ في تاريخ الرسل مع أقوامهم .

نرى أقوام جماعة من رسل الله عليهم السلام قالوا لرسلهم هذا القول وأن الله حكى عنهم في سورة ابراهيم بقوله : (قالوا : ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا سلطان مبين)(٣)

قال أقوام الرسل : الذين كذبوا رسل الله ما أنتم الا بشر مثلنا في الهيئة والصورة ولستم ملائكة ، وتريدون أن تصرفونا عما كان يعبد آباؤنا وأجدادنا من الأصنام والأوثان .

وقال الأقوام لرسل الله : ان لم يكن الأمر كما قلنا ، بل كنتم رسلا من جهة الله تعالى كما تدّعونه فاتونا بحجة ظاهرة تدلّ على صحة ما تدعونه من النبوة ، هكذا كان خصوم رسل الله عليهم السلام وخصوم الدعاة الى الى الله أيضا . وكان رسل الله عليهم السلام يردّون عليهم بأبسط الرد ود

---

(١) سورة المؤمنون ، آية ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) راجع تفسير القرطبي جـ ٥ ص ٤٥١٣ .
وانظر أيضا تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٩٧ .

(٣) سورة ابراهيم ، آية (١٠)

المقنعة ، فقالوا لأقوامهم كما جاء في قوله تعالى : (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده . وما كان لنا نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(١)

المعنى المراد من الآية الكريمة : قال جماعة من رسل الله لأقوامهم : ما نحن الا بشر مثلكم كما تقولون انا بشر مثلكم ، ولكن الله عز وجلّ يمنّ ويتفضل بالنبوة على من يشاء من عباده .

والرسل عليهم السلام قصدوا أن الامتنان عطية من الله تعالى يعطيها من يشاء من خلقه بمحض الفضل والامتنان .

قال الرسل عليهم السلام هذا القول تواضعا ، ما نحن من الملائكة بل بشر مثلكم في الصورة والهيئة والانسانية ولكن الله يمنّ بالفضائل والكمالات على من يشاء من خلقه ولا يصح لنا أن نأتيكم بحجة فضلا عن السلطان المبين الا باذن الله تعالى .

فان ذلك أمر يتعلق بمشيئة الله سبحانه .

وبالله عز وجل فليثق من آمن به وأطاعه فانا به نثق وعليه نتوكل .(٢)

---

(١) سورة ابراهيم ، آية (١١)

(٢) راجع تفسير الطبري ، لابن جرير الطبري جـ ١٢ ص ١٩١
وأنظر أيضا تفسير القرطبي جـ ٤ ص ٣٥٧٤ .
وتفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٣٧ .

خامسا : نبى الله نوح عليه السلام رسول أمين وناصح لقومه كغيره من الرسل ، والرسول تجب طاعتـــــه :

ان كل نبى يبعث الى أمته يؤكد لهم أمانته واخلاصه فـــى أداء الرسالة ويعلن كل منهم أنه رسول أمين لا يخون أمانته .

وقال نوح عليه السلام لقومه : يا قوم انى لكم رسول أمين ونذيـــر مبين جئت بأمر هو أن اعبدوا الله وحده ، واتقوا عذابه وأطيعونى ، فانه من أطاع الله فقد أطاع الرسول ، قال تعالى : (اذ قال لهم أخوهـم نوح ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون) (١)

المعنى : قال نوح عليه السلام لقومه : انى لكم رسول من الله تعالـى أرسلنى لمصلحتكم لأبين لكم أوامر الله ونواهيه ، وانى مشهور بالامانـة فيما بينكم ، فاتقوا الله يا قوم فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله .

وأطيعونى وأنه عليه السلام رسول أمين صادق فيما بلغ من الله تبـارك وتعالى فواجب على نوح عليه السلام تبليغ الرسالة لقومه كاملة ، وهـى أمانة الله عنده لا يستطيع أن يبدّل فيها أو يغيّر شيئا منها .

وما دام نوح عليه السلام رسول من عند الله أمينا على رسالته ، فينبغى أن يتلقوها بالقبول ويأخذوها بالرضا .

والأنبياء والرسل عليهم السلام بينوا لأقوامهم كنوح عليه السلام أنهـم أمناء على رسالات الله تعالى وتبليغها الى الناس . قال تعالى عن هود عليه السلام : (اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون) (٢)

---

(١) سورة الشعراء ، آية ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٢) " " " ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

وقال هذا القول نفسه : نبى الله صالح ولوط وشعيب وغيرهم من الرسل عليهم السلام . وهذه الوحدة التى تربط بين هؤلاء الأنبياء المبعوثين فى أمم مختلفة وفى عصور مختلفة ذات معنى عميق . (١)

ان الأمانة لرسل الله عليهم السلام ركن أساسى ، ولقد شاءت الحكمة الالهية أن يوصف بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثه . وقد لقبه أهل مكة " بالصادق الأمين " .

لقد اعتبر الله عز وجل اطاعة الرسول اطاعته . قال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (٢) .

ان من أطاع الرسول فكأنه أطاع الله تعالى ، وانما كان كذلك لأن الآمر والناهى فى الحقيقة هو الله تعالى ، وانما الرسول مبلغ لأمر الله ونهيه ، فمرجع الطاعة وعدمها هو الله سبحانه وتعالى .

ومن أعرض عن طاعة الرسول ، فأعرض عن طاعة الله عز وجلّ .

الرسول ناصح لقومه :

وقد نصح نوح عليه السلام قومه بالحق وعدم اتّباع الهوى . قال تعالى : (أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) . (٣)

النصح : اخلاص النية عن شوائب الفساد فى المعاملة بخلاف الغش .

والمعنى : يقول نوح عليه السلام لقومه : يا قوم أبلّغ رسالات ربى وأنصح لكم ، وانى أخاف عليكم عقاب الله ان عصيتموه .

ونوح عليه السلام دعا قومه بالنصح والقول اللين طيلة بقائه فيهم . ولكن قومه لم يكونوا يحبّون النصح . وأن النصيحة لمنفعتهم ومصلحتهم

---

(١) أنظر كتاب النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن ، لابى الحسن الندوى وكتاب ، دعوة الرسل الى الله تعالى ، محمد أحمد العدوى ص١٢

(٢) سورة النساء ، آية (٨٠) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٦٢) .

الخاصة ، وصيغة المضارع للدلالة على تجدد نصيحته عليه السلام لهم وقوله : " وأعلم من الله مالم تعلمون " أى يقول نوح عليه السلام لقومه : انى أعلم بطريق الوحي من شئونه عز وجلّ وقدرته القاهرة وبطشه الشديد بمن لم يؤمن به ويصدق برسله مالا تعلمون .

وجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام نصحوا أقوامهم بالحق وعدم اتّباعهم الهوى وخطوات الشيطان ..

جاء على لسان صالح عليه السلام عند ما قال لقومه : في أسف واستغراب لمّا علم أنهم لا يؤمنون بالله وبما جاء به . جاء في ذلك قوله تعالى : (فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبّون الناصحين) (١) .

وان كان الانسان لا يستطيع تمييز الحق من الباطل والنور من الضلال ، فعندئذ يكون كالأعمى ، بل أشد .

واذا كان هؤلاء الأقوام لا يقبلون النصح ولا يحبون كلام الناصح لهم ، وهم يعلمون أن أنبياء الله ورسله الكرام عليهم السلام لا يدعون الناس الاّ الى الهدى ، وخير الدنيا والآخرة ، ولكن الكفار ينكرون ذلك ظلما وعدوانا . فهم وأمثالهم سوف يعلمون لمن تكون عقبى الدار ؟ ألهم وأمثالهم المنكرين ، أم للذين يؤمنون بالله ويصدقون رسله الكرام ؟

---

(١) سورة الأعراف ، آية (٧٩) .

سادسا : أن الرسل لا يأخذون أجرا على تبليغ الرسالة .

أن الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعا لم يطلبوا أجرا من أحد مقابل تبليغ رسالات الله تعالى ، وهم لا يقبلون ثمنا على ذلك من الناس . انما أجرهم وثوابهم من الله تبارك وتعالى .

فكل رسول كان يعلن على رؤس الأشهاد علانية وجهارا أنه لا يريد أجرا على الدعوة ، وكانوا يقررون بكل وضوح أن دعوتهم لم تكن من أجل طلب الدنيا أو طلب المال .

فلنستمع الى قول نوح عليه السلام وهو يخاطب قومه المستكبرين وذلك قوله تعالى : (فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) (١)

توليتم : معناه أعرضتم . ومن زائدة للتأكيد أى فما سألتكم أجرا .

المعنى : قال نوح عليه السلام مخاطبا قومه : يا قوم ان أعرضتم عما جئتكم به من الآيات فليس ذلك لأنى سألتكم أجرا فيثقل عليكم مكافئتى ما أجرى فى تبليغ الرسالة لكم الا على الله رب العالمين ، ويقول عليه السلام : ياقوم : انى لا أطلب أجرا من أحد من الناس مقابلة تذكيري ووعظى ، وأن الله عز وجل يثيبنى بذلك ان آمنتم أو توليتم ، وأمرت أن أكون فى عداد المسلمين الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئا ولا يطلبون به دنيا .

وقال تعالى فى سورة هود : (يا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله) (٢) وقوله تعالى أيضا : (وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى

---

(١) سورة يونس ، آية (٧٢) .

(٢) سورة هود ، آية (٢٩) .

الا على رب العالمين)[١]

يقول نوح عليه السلام : لا طمع لى فى مالكم ، وما أجرى وجزائى الاّ على رب العالمين الذى يرزق من يشاء بغير حسا .

والرسل عليهم السلام جميعا بيّنوا لأقوامهم أنهم لا يطلبون على تبليغ الرسالة أجرا من الناس . انما يقصدون ثواب الآخرة ووجه الله الكريم . وهود عليه السلام خاطب قومه وقال : (وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين)[٢] هكذا قال نبى الله صالح ولوط وشعيب عليهم السلام ، وغيرهم من الرسل الكرام .

وقد خاطب الله تبارك وتعالى رسوله خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام بقوله : (قل ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا)[٣] خاطب الرسول بأن يقول لقومه : يا قوم لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرا منكم .

وقوله : " الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا " أى الاّ فعل من يريد أن يتقرب الى الله تعالى ويطلب عنده بالايمان والطاعة . فصوّر ذلك بصورة الأجر من حيث أنه متصور الاتيان به . وفى القرآن الكريم آيات غير التى ذكرت كلها تدل على هذا المعنى المذكور .

هكذا كان الرسل الكرام لا يدعون أحدا الى دين الله بقصد الكسب المادى أو الربح الدنيوى ، انما كانوا يعلنون أن أجرهم على الدعوة من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الشعراء ، آية (١٠٩)

(٢) " " " ١٢٧ ، الآيات : ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠ فى نفس الغرض .

(٣) سورة الفرقان ، آية (٥٧) .

أ ـ مطالبة قوم نوح أن يطرد نوح الفقراء الذين آمنوا من عنده :

طلب قوم نوح من نبى الله نوح عليه السلام أن يطرد الفقراء الذين آمنوا معه ، طلبوا أن يطرد هم من عنده بسبب أنهم فقراء . وأنهم لا مال لهم ولا جاه ولا سلطان . وأن القوم سمّوهم بالأراذل ، كما قالوا بأنهم بادى الرأى قال تعالى : (وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون) (١)

ورد عليهم نوح عليه السلام بقوله : لا أستطيع ولا يحق لى أن أطرد الذين آمنوا من مجلسى . أنهم آمنوا وهم من أهل الزّلفى المقربين عند الله تعالى . وأنهم فائزون فى الآخرة بلقاء الله عز وجلّ .

كأنه قيل : لا أطرد هم ولا أبعد هم من مجلسى لأنهم مقربون في حضرة القدس ولكنى أراكم قوما تجهلون فى استرذالكم لهم ، وفى سؤالكم طرد هم) (٢)

وعقب نوح عليه السلام بقوله : (يا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم أفلا تذكرون) (٣) يردّ نوح عليه السلام على طلب القوم ويقول : ياقوم من يدفع عنى غضب الله وسخطه ان طردتهم من مجلسى ؟ وهم بتلك المثابة من الايمان والتقرب الى الله عز وجل .

أفلا تذكرون يا قوم ؟ أى أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل . أفلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغى تذكره حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ وما هم عليه من الصواب .

---

(١) سورة هود ، آية (٢٩) .

(٢) راجع تفسير روح المعانى ، للآلوسى . جـ ١٢ ص ٤١ .

(٣) سورة هود ، آية (٣٠) .

وسألت قريش النبى صلى الله عليه وسلم كسوءال قوم نوح .

طلبت قريش أن يطرد الرسول الموالى والفقراء عن مجلسه ، ويصرفهم ويبعدهم عنه من عنده . حتى يتسنّى للأشراف أن يتقربوا الى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم .

والأشراف يزعمون أنهم اذا آمنوا بالله وبالرسول ، فى هذه الحالة لا بد لهم أن يأتوا الى مجلس الرسول ، وعنده الموالى والفقراء وفى حالة اجتماعهم وجلوسهم مع هوءلاء المومنين الفقراء يلحقهم فى ذلك عار وينقصهم من مكانتهم العالية . وهى المال الكثير والرياسة . انهم هكذا كانوا يزعمون .

وقد خاطب الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وردّ على هوءلاء الاشراف بقوله تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) (١)

نهى الله عز وجلّ فى هذه الآية الكريمة نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم من طرد الضعفاء من المسلمين وفقرائهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى أى بلا انقطاع ، وأنهم يريدون رضى الله تعالى ووجهه الكريم . ويقول الله تعالى : ما عليك يا محمد من حسابهم من شيء ، أى من جزائهم ولا كفالة أرزاقهم ، وجزائهم وأرزاقهم على الله ، " وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . (٢)

---

(١) سورة الأنعام ، آية (٥٢) .

(٢) راجع تفسير القرطبى ، جـ ٣ ص ٢٤٢٨ .

وقد نفى نوح عليه السلام عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه فى الرسول والرسالة . وبيّن عليه السلام لهم أنه كما لا يطلب منهم شيئا من أموالهم على تبليغ الرسالة ، كذلك لا يدعى أن عنده خزائن الله حتى يستدلوا بعدمها على كذبه . وجاء فى ذلك قوله تعالى : (ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا أالله أعلم بما فى أنفسهم انى اذن لمن الظالمين) (١)

المعنى : أخبر نبى الله نوح عليه السلام تذلّله وتواضعه لله عز وجلّ ، وأنه لا يدّعى ما ليس له من خزائن الله تعالى . ولا يعلم الغيب . ولا يعلم الغيب الا الله . ويقول : ولا أقول انى ملك من الملائكة حتى تقولوا : ما نراك الا بشرا مثلنا ، فان البشرية ليست من موانع النبوة : بل من مباديها ..

وقال نوح : أيها القوم انكم اتخذتم فقدان هذه الأمور ذريعة الى تكذيبى ، والحال انى لا أدعى شيئا من ذلك ، ولا الذى أدعيه يتعلق بشىء منها .

وقوله : " ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا "

معنى : تزدرى أعينكم : أى تستقل وتحتقر أعينكم . والمعنى : انى لا أقول لهؤلاء المتبعين المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم لن يأتيهم الله خيرا ، بل قد آتاهم الله الخير العظيم بالايمان به واتباع نبيه ، والله يجازيهم بالجزاء العظيم فى الآخرة . ولا يضرهم احتقاركم لهم شيئا . أالله أعلم بما فى أنفسهم من الايمان والاخلاص له

---

(١) سورة هود ، آية (٣١) .

فمجازيهم على ذلك ، ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء .
انى اذا لمن الظالمين لهم ان فعلت ما تريدونه بهم . (١)

سابعا : الصبر فى الدعـــوة :

ومن الأسس التى قامت عليها دعوة نوح عليه السلام الصبـر فى الدعوة الى الله عز وجلّ .

الصبر من الفضائل الخلقية ، وهو النفحة الروحية التى يعتصم بهـا المؤمن فتخفّف من بأسائه ، وتدخل الى قلبه السكينة والاطمئنان .
فالانسان الصابر يتلقى المكاره بالقبول ويراها من عند الله تعالى .
وعند التأمل يرى الانسان العناية الالهية تسوق الينا الشدائد لحكمة عالية لا يعلمها غيره .
ولولا الصبر لانهارت نفس الانسان من المصائب التى تنزل عليه ، ولأصبح الانسان عاجزا عن السير فى ركب الحياة .

ان الصبر هو الفاصل بين الحياة الروحية والمادة ، ولهذا عنى القرآن الكريم بالصبر ، ومدحه ورفع منزلته ، وأثنى على المتحلين به ثناء لا مزيد عليه ، وهذا يدل على عظم أمره ، لأنه أساس كثير من الفضائل ، فما من فضيلة الا وهى محتاجة اليه .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٢٥٤ .
وتفسير فتح القدير ، للامام الشوكانى جـ ٢ ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ .
وتفسير روح المعانى ، للآلوسى جـ ١٢ ص ٤٣ .

أ - صبر نوح عليه السلام :

لقد بعث الله تبارك وتعالى نوحا عليه السلام الى قوم كانوا يعبدون الأصنام والتماثيل من دون الله . فأرسله اليهم لمحاربة الوثنية الموجودة في زمنهم .

فلبث فيهم عشرة قرون وهو يحارب الكفر والشرك ليقلع الشرك من جذوره ، وليغرس بدله عبادة الله تعالى وحده في قلوب قومه .

ولم تلق دعوته عليه السلام من قومه سوى السخرية والاهانة وأنواع الأذى ، ولكنه عليه السلام كان يتحمل كل ذلك ،

ليكون قدوة للرسل والدعاة الذين سوف يأتون من بعده . (١)

وكان عليه السلام يدعوهم الى الوحدانية ليلا ونهارا ، فلم يجد من قومه رغم تنوع الوسائل وتعدد الأساليب الا العناد والاعراض والتكذيب ، يذهب فيها الآباء ويعقبهم الأبناء ويرحل الأجداد ويأتي الأحفاد في أجيال كثيرة متعاقبة لم يؤمن معه عليه السلام في هذه الفترة الطويلة الا قليل ، ولكنه كان يصبر على كل ذلك بأمل منه من ايمان قومه .

أن سيدنا نوحا عليه السلام مثال حي للصبر والتحمل ، ونواة حية صالحة لغرس اليقين والعزم في سبيل بناء الايمان وهدم الشرك والضلال .

---

(١) أنظر كتاب تاريخ الدعوة الى الله بين الأمس واليوم ، للدكتور عبد الآلوري ص ٤٩ ، القاهرة : مكتبة الوهبة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ .

وبعد نوح عليه السلام توالى جميع الأنبياء والرسل ، وكلهم لاقوا ما لقي نوح من قومه - من الأذى وعدم اتّباع الحق والسخرية وأنواع المحن . ونمثل ببعض الرسل ، فمثلا نأخذ قصة ابراهيم عليه السلام أنه قد صبر على دعوة أبيه وقومه الى توحيد الله تعالى وتحمل المشاق والتهديدات التي وجّهت اليه من قبل أبيه وقومه . قال الله عز وجلّ على لسان أبي ابراهيم عليه السلام : (لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليّا) (١)

أي اذا لم تنته يا ابراهيم عن دعوتك لي الى توحيد الله لأرجمنّك بالحجارة ولاشتمنّك اعتزلني سالما لا يصيبك أ مني أذى .

ويستمر خليل الرحمن في دعوته ويصبر على كل ما يلقاه من قومه ويستمر القوم في ضلالهم . وفي آخر المطاف أخذوا ابراهيم عليه السلام وألقوه في النار ، فما خاف ولا اضطرب ولا التجأ الى غير الله الواحد الأحد ، كان ذكره الدائم على لسانه ذكر ربه ومناجاته . فأنجاه الله من النار وجعل خصومه من الأخسرين . هذا جانب من جوانب صبره عليه السلام في دعوة قومه. (٢)

وموسى عليه السلام صبر على كل ما لقي من بني اسرائيل .

وكان كليم الله يوجّه قومه الى الاستعانة بالله تعالى والصبر به ، حتى ينصرهم الله ويهلك عدوهم ، ولكن قومه اختاروا طريق الضلال ، قال تعالى : (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا انّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) (٣) .

---

(١) سورة مريم ، آية (٤٥) .

(٢) أنظر كتاب الصبر في القرآن ، للدكتور يوسف القرضاوي ص ٧٨ . القاهرة : مكتبة وهبة للنشر . طبعة أولى ١٣٩٧هـ .

(٣) سورة الأعراف ، آية (١٢٨) .

نجد خاتم الأنبياء والرسل عليه الصلاة والسلام يصبر على المصائب والمحن ، وكان يستحضر ما أمره الله به من الاقتداء بأولى العزم من الرسل في صبرهم قال تعالى : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل)(١) وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يتذكر أيضا ما عاناه باقي اخوانه الأنبياء والمرسلين . . .

وأوامر الله عز وجلّ قد كثرت بالصبر قال تعالى في سورة يونس : مخاطبا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ،(واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين)(٢)

وجاء في سورة النحل قوله تعالى : (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله)(٣)

وفي سورة هود قص الله على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قصة شيخ المرسلين نبي الله نوح عليه السلام ، وما حدث له مع قومه ومع ابنه قال تعالى : (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين)(٤)

وهكذا نجد الرسل العظام ، شيخ المرسلين نوحا ، وأبا الأنبياء ابراهيم ، وكليم الله موسى ، وروح الله عيسى ، وسيد المرسلين محمدا صلى الله عليهم أجمعين ، لاقوا في سبيل دعوتهم أشدّ العنت وأقسى الأذى ، وهم صابرون على المكاره ثابتون على الحق ، لم يخافوا ولم ييئسوا ولم يملّوا ، حتى حكم الله بينهم وبين أعدائهم بالحق وهو خير الحاكمين .

---

(١) سورة الاحقاف ، آية ٣٥ .

(٢) سورة يونس ، آية ١٠٩ .

(٣) سورة النحل ، آية ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٤) سورة هود ، آية ٤٩ .

ب - الصبر على الشدائد والصعاب :

أن طريق الدعوة طريق شاق ، والثبات عليه والاستمرار على السير فيه ليس بالأمر الهيّن البسيط ، وحمل الجبال أخف وأهون من حمل الدعوة . ولكن هذا الأمر الصعب يسير على من يسّره الله عليه وخفيف على من صبر في الله تعالى ، واستعلى على المحنة والشدة والبلاء . والمحن طريق الأنبياء وسبيل الأصفياء من عباد الله الصالحين .

قال تعالى : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)(١)

ان الله تبارك وتعالى يبتلي المؤمنين بالمحن والشدائد حتى يعلم من هو الصادق في ايمانه ودعوته ، ومن هو كاذب غير صادق في دعوته .

والدعاة يصيبهم البلاء ليظهر صدقهم ، ويلقون الأذى لتزداد أجورهم حتى تتكون الجماعة المؤمنة الصابرة القوية ، ثم تنطلق بدعوتها لتحطم الباطل وكل ما يقف في وجهها من عقبات .

ويزداد هذا البلاء والامتحان كلما ازداد الايمان حتى يكتمل . والأنبياء والرسل عليهم السلام هم أكثر وأشد بلاء من غيرهم ، ولكنهم صبروا على كل ذلك ، اذا فلا بد من البلاء ، ولا بد من المحن والمصائب وتلك هي سنة الله في عباده المؤمنين . وأن الدعاة ورثة الأنبياء وحاملوا مشاعل النور التي حملها أئمتهم من صفوة المخلصين .

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ٢ ، ٣ .

فلا بد أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم ، فعليهم أن يصبروا على كل شدة تصيبهم ، فان النصر مع الصبر ، وأن مع العسر يسرا . (١)

الصبر وسيلة للرسل عليهم السلام وغيرهم من دعاة المؤمنين في الطريق الطويل الذى قد يبدو أحيانا بلا نهاية ، والثقةبوعد الله عز وجل .

والصبر الحقيقى هو : احتمال جميع الأذى والعذاب بلا هزيمة . واستمرار العزم والاستعداد للوقوف فى وجه الظلم والطغيان .

ان القرآن الكريم يرسم سنة الله فى الدعوات ، دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب ، وتتلقى أصحابها بالأذى .

وقد صبر الدعاة الى الله على الأذى والتكذيب ، ولكن نصر الله كان حليفهم فى نهاية الأمر .

وجاء خطاب الله عز وجلّ لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، بأن الرسل عليهم السلام كذّبوا من قبل أقوامهم - وأنهم صبروا على ذلك حتى أتى نصر الله عز وجلّ ، قال الله تعالى بصدد ذلك : (ولقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) (٢)

واذا كان الصبر ضرورة لازمة لأهل الايمان من الدعاة ، فهو أكثر لزوما لرسل الله الكرام عليهم السلام ، لأنهم مبعوثوا العناية الالهية لتغيير المجتمعات وتحويل وجهاتها الى طريق الحق والصواب .

---

(١) أنظر كتاب الدعوة والدعاة ، لمؤلفه محمد محمود الصواف ص ٧١ .
(٢) سورة الأنعام ، آية ٣٤ .

جـ - الصبر على مشاق الدعوة الى الله :

ليس أمام دعاة الحق الا أن يعتصموا باليقين ، ويتسلحوا بالصبر في وجه القوة الضاربة والسلطات الطاغية .

ليس أشق على نفس صاحب الدعوة من أن يدعو بملء فيه ، ويصيح بأعلى صوته بشيرا ونذيرا ، فلا يجد من قومه الا آذانا صمّا وقلوبا غلفا .

ومن هذا نرى كثيرا من رسل الله الكرام عليهم السلام مع أقوامهم . فمثلا نأخذ أحد هؤلاء المرسلين . ونوح عليه السلام أحد هؤلاء الرسل وأحد أولى العزم منهم . نراه مع قومه يدعوهم الى الايمان وهم يعرضون عن الحق ، ولم ينفع دعاؤه لهم الا بعدا عن اتباع الحق. حيث قال عليه السلام مناجيا ربه عز وجلّ : (قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي الا فرارا) (١)

المعنى : قال نوح عليه السلام لربه : اني دعوت قومي في الليل والنهار أي بدون انقطاع في مدة بقائه فيهم ، ولم يزدهم دعاؤه الا فرارا وهربا وبعدا عن الدعوة .

مع كل الوسائل استمر عليه السلام في دعوتهم صابرا ومتحمّلا أذاهم ، وقد هدده قومه بالرجم ولكنه عليه السلام استمر في مهمته . قال تعالى : (قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) (٢) وأن الله حكى على لسان جماعة من الرسل ردا على أقوال أقوامهم . قال تعالى : (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) (٣)

---

(١) سورة نوح ، آية ٥ ، ٦ .
(٢) سورة الشعراء ، آية ١١٦ .
(٣) سورة ابراهيم ، آية ١٢ .

ثامنا : التذكير بمظاهر قدرة الله تعالى :

ومن الأسس التي قامت عليها دعوة نوح أيضا التذكير بمظاهر قدرة الله تبارك وتعالى .

بعد أن بيّن نبي الله ورسوله نوح عليه السلام لقومه فائدة استغفار الله عز وجلّ ، وما يترتب عليه من السعادة الدنيوية ، حيث أن الله ينزل عليهم المطر ، ويرزقهم بأموال وأولاد اذا ما استغفروا ربهم وتابوا اليه .

ثم وجّه نوح عليه السلام أنظار قومه الى قدرة الله عز وجلّ ، لعلهم يؤمنون بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، ويؤمنون برسالته عليه السلام ، جاء قوله تعالى : (مالكم لا ترجون الله وقارا وقد خلقكم أطوارا)(١)

المعنى : قال نوح عليه السلام لقومه مالكم لا تخشون ولا تخافون عظمة الله تبارك وتعالى وسلطانه .

الرجاء بمعنى الخوف : أى أيّ عذر لكم فى ترك الخوف من الله تعالى مالكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أحدكم بالعقوبة .

وقال سعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح : مالكم لا ترجون لله ثوابا وتخافون له عقابا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : مالكم لا ترجون لله عظمة .

كأنه قال : مالكم لا ترجون لله عاقبة الايمان ، ولا ترجون فى عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيرا .(٢)

---

(١) سورة نوح ، آية ١٣ ، ١٤ .

(٢) راجع تفسير الطبرى ، جـ ٢٩ ص ٩٣ .
والقرطبى ، جـ ٨ ص ٦٧٨٢ .

وبعد ذلك بيّن نوح عليه السلام لقومه أنّ الله عز وجلّ خلقهم وخلق جميع البشر أطوارا .

ومعنى أطوار : يعنى نطفة ثم علقة ثم مضغة .

ومعنى : " وقد خلقكم أطوارا " أى جعل لكم فى أنفسكم آية تدل على توحيده .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : فى معنى أطوارا يعنى نطفة ثم علقة ثم مضغة . أى طورا بعد طور الى تمام الخلق .

وقيل : معنى " اطوارا " اختلافهم فى الأخلاق والأفعال (١)

قال الامام الآلوسى عند تفسير هذه الآية ما يلى : ((والحال أنكم على حال منافية لما أنتم عليه بالكلية ، وهو أنكم تعلمون أنه عز وجلّ خلقكم مدرجا لكم فى حالات عناصر ثم أغذية ثم أخلاطا ثم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ولحوما ثم خلقا آخر . فان التقصير فى توقير من هذا شأنه فى القدرة الباهرة والاحسان التام مع العلم بذلك مما لا يكاد يصدر عن العاقل)) (٢)

وأن معنى الآية المذكورة المبيّنة فى قوله تعالى : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) (٣) .

أن أصل الخلق والايجاد هو أقوى دليل على القدرة الالهية .

ان الآية سيقت فى الدلالة على قدرة الله تعالى على بعثهم بعد موتهم لمجازاتهم (٤) .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٦٧٨٢ .

(٢) تفسير روح المعانى ، للآلوسى جـ ٢٩ ص ٧٣ .

(٣) سورة المؤمنون ، آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

(٤) أضواء البيان فى ايضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين محمد المختار جـ ٨ ص ٥٢٦ .

ثم ذكر نبى الله نوح عليه السلام لقومه دليلا آخر على قدرة الله تبارك وتعالى . قال تعالى : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) (١)

المعنى : ألم تعلموا كيف خلق الله سبع سماوات متطابقة بعضها فوق بعض . ان الله الذى قادر على هذا فهو الذى يجب أن يعبد . وأن الله عز وجل جعل القمر فى السماوات نورا أى ينوّر وجه الأرض فى ظلمة الليل .

كما أن الله تبارك وتعالى جعل الشمس مصباحا لأهل الأرض . والشمس تزيل ظلمة الليل ليبصر أهل الدنيا فى ضوئها وجه الأرض .

ثم قال الله تعالى مبيّنا قدرته أيضا بقوله : (والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا) (٢)

المعنى : يقول نوح لقومه مبيّنا قدرة الله تبارك وتعالى : والله أنشأكم من الأرض انشاء . وقيل : هو آدم عليه السلام حيث أنه خلق من تراب ، أى خلق الله آدم عليه السلام من الأرض .

والمعنى المراد من الآية : يخاطب نوح عليه السلام قومه فيقول : يا قوم ان الله خلقكم وأنبتكم من تراب ، ثم يعيدكم الى التراب عند موتكم بالدفن ، كما خلقكم وأنبتكم من تراب . ثم يخرجكم يا قوم من التراب بالنشور والبعث يوم القيامة محقّقا لا ريب فيه .

كأنه قال : ان الله الذى خلقك وأحيا لك الأرض الميتة قادر على أن يعيدك الى القبر ويخرجك منها اخراجا يوم القيامة للعرض والحساب .

---

(١) سورة نوح ، آية ١٥ ، ١٦ .

(٢) " " " ١٧ ، ١٨ .

الفصـــــل الرابـــــــع

أساليب نوح عليه السلام في الدعوة الى الله تعالى ، وذكر الآيات الدالة على ذلك مـــع شرحهـــــــا

وتشتمل على النقاط التالية :

أولا : أسلوب دعوة نوح عليه السلام بالحكمة والموعظة الحسنـــــة والمجادلة بالتي هي أحسن .

ثانيا : مقابلة نوح عليه السلام جهل وسفه قومه بالحلم والعلم .

ثالثا : مقابلة نوح عليه السلام ردّ قومه الشديد باللين والرقة .

رابعا : دعوة نوح عليه السلام قومه الى الحق ، ومقابلتهم الحـــــق بالباطل ، وافتراءاتهم الباطلة له ، وطعنهم في رسالته .

خامسا : عدم يأس نوح عليه السلام من ايمان قومه ، ومداومة الدعـوة لهم على الرغم من جهلهم وسفههم .

أولا : ومن أسلوب ومزايا دعوة نوح عليه السلام البساطة وعدم التكلف في الدعوة الى الله تعالى .

وهذه المزية واضحة في دعوة سيدنا نوح وفي دعوة اخوانه الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام .

فأنهم يسيرون مع الفطرة ، ويخاطبون الناس على قدر عقولهم ، وأنهم لا يعقّدون الأمور أو يخاطبون الناس بما لا يفهمون أو لا يدركون ، بل سلك جميع الرسل طريقة الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة مع أقوامهم بالتي هي أحسن في تبليغ الدعوة الى الله تعالى .

وهذه هي من أساليب دعوة نوح عليه السلام وغيره من الرسل الكرام .

ولقد أشار الله تبارك وتعالى الى ذلك في القرآن الكريم .

وقد كانت تلك الآية الكريمة جامعة للأساليب الاساسية في دعوة أي رسول من الرسل . وهو قوله تعالى : (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)(١) .

المعنى : خاطب الله تبارك وتعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وقال له : أدع يا محمد صلى الله عليه وسلم من بعثت اليهم من الأمة قاطبة ، أدعهم الى الاسلام بالحكمة أي بالمقابلة المحكمة الصحيحة وبالدليل الموضح للحق ، وادعهم الى الحق بالموعظة الحسنة والعبر النافعة على وجه لا يخفى عليهم ، انك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم .

---

(١) سورة النحل ، آية (١٢٥) .

وأمر الله عز وجلّ رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يناظر قومه المعاندين بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة ، والمجادلة بالرفق واللين واختيار الوجه الأيسر .

وقوله : " ان ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين

والله تبارك وتعالى هو أعلم بمن أعرض عن قبول الحق واتبع هواه ، وهو سبحانه أعلم بالمهتدين اليه ، وهو يجازي كلا بما يستحقه .

أ - أسلوب الدعوة بالحكمة في دعوة نوح عليه السلام :

تعريف الحكمة في الدعوة : هو النظر في أحوال المخاطبين وظروفهم ، والقدر الذي يبيّنه لهم في كل مرة . حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بتكاليف قبل استعداد النفوس لها . والطريقة التي يخاطبهم بها ، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها ، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه (١) .

ان حياة نوح عليه السلام حياة شاقة ومريرة ، ومحنته مع قومه محنة شديدة أليمة .

فقد أقام بينهم قرونا ودهورا يدعوهم الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وبجميع الأساليب اللازمة التي استعملها ، ولكنه عليه السلام لم يلق منهم الا آذانا صمّا وقلوبا غلفا وعقولا متحجرة ، لقد كانت نفوسهم أيبس من الصخر وأفئدتهم أقسى من الحديد .

لذلك لم ينفع معهم نصح نوح عليه السلام وتذكيره ووعظه . ولم يزجرهم

---

(١) أنظر في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، جـ ٤ ص ٢٢٠٢ .

وعيد أو تحذير .

وأنه عليه السلام كلما ازداد لهم نصحا ازدادوا له عنادا ، وكلّما ذكرهم أيام الله وقدرته ونعمه عليهم زادوا ضلالا وفسادا .

وقد سلك عليه السلام معهم جميع الطرق الحكيمة لانقاذهم من الضلال وابعادهم من عبادة الأصنام والأوثان فلم يفلح معهم فى ذلك كله .

ب - كان نوح عليه السلام على بينة وبصيرة من ربه فى دعوة قومه :

كان نوح عليه السلام وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام على بينة وبصيرة من ربه عز وجلّ ، كما آتاه الله تعالى رحمة من عنده .

قال تعالى : (قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) (١) .

معنى المفردات : أرأيتم : أى أخبرونى .

ومعنى البينة فى الآية الكريمة : يقين وبيان - أى ان كنت على يقين وحجة ظاهرة من ربى - ومعنى : وآتانى رحمة من عنده - أى نبوة ورسالة .

ومعنى " فعميت عليكم " أى عميتم عن ذلك . يقال : عمي علىّ هذا الأمر اذا لم أفهمه . والمعنى : عميت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها .

ومعنى : أنلزمكموها : أى أنلزمكم قبولها ونوجبها عليكم ؟ الهمزة للاستفهام الانكارى . أى لا نوجبها عليكم ونأخذكم بفهمها وأنتم تكرهون ذلك (٢) .

---

(١) سورة هود ، آية ٢٨ .

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٢٥٣ .
وأنظر تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة . ص ٢٠٣ .

أما المعنى المراد من الآية الكريمة : يقول نوح عليه السلام لقومه : يا قوم أخبروني ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواى ، وأنها خافية عليكم غير مسلّمة عندكم . أيمكننا أن نكرهكم على قبولها ؟ وأنتم معرضون غير متدبرين فيها ، أى لا يكون ذلك .

هكذا بيّن نوح عليه السلام لقومه دعوة ربه .

وأنه كان على بيّنة وبصيرة من ربه عز وجلّ .

وهكذا كان باقى المرسلين عليهم السلام أنهم كانوا على بينة من ربهم عز وجلّ . جاء فى هود عليه السلام قوله تعالى : (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين)(١)

ان قوم هود اتهموه بأنه لم يأتهم ببينة من ربه ، وأنهم أصروا على الكفر والضلال .

وبعد هود بيّن نبى الله صالح عليه السلام هذا الأمر لقومه قائلا : (قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله ان عصيته)(٢) ومعنى هذه الآية تقدم قبل ذلك بقليل .

ومعنى قوله : " فمن ينصرنى من الله ان عصيته " هذا الاستفهام معناه النفى أى لا ينصرنى أحد ان عصيت الله تبارك وتعالى .

وأن خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم كان قد تلقى خطابا وأمرا ملزما من ربه عز وجلّ ليدعو الناس الى الاسلام والى الطريق القويم وعلى بصيرة . وذلك قوله تعالى :

---

(١) سورة هود ، آية ٥٣ .

(٢) " " " ٦٣ .

(قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) (١) .

معنى الآية الكريمة : يخاطب الله عز وجلّ رسوله الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم قائلا : يا محمد صلى الله عليه وسلم هذه الدعوة التي أدعو اليها ، والطريقة التي أنا عليها هو هي سبيلي وسنتي التي لا عوج فيها .

ويقول الرسول : وأنا أدعو الى الله على حجة واضحة وعلى يقين وحق والبصيرة هي المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل .

وقوله : " أنا ومن اتبعني " وأنا أدعو الى الله على بصيرة ، ويدعو الى الله من اتبعني أيضا كما أدعو . ويعلن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ليس من الذين يتخذون من دون الله أندادا لا ظاهر الشرك ولا خافيه (٢) .

وهكذا جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام كانوا يدعون أقوامهم الى التوحيد بالحكمة ، وكانوا على بصيرة من الله عز وجلّ .

واذا كانت الدعوة بالحكمة أساسا من أسس دعوات الرسل عليهم السلام ، فعلى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء أن يعرفوا المراد بالحكمة ويدعوا الناس الى الله بها .

وأما الدعوة على بصيرة فهي الاحاطة بأخبار من سبقوا من الدعاة ، وما لاقوا من أقوامهم من الاعراض والعناد .

---

(١) سورة يوسف ، آية (١٠٨) .

(٢) راجع تفسير فتح القدير ، للامام الشوكاني ، جـ ٣ ص ٥٩ .

جـ - أسلوب الدعوة والموعظة الحسنة في رسالة نوح عليه السلام :-

الموعظة الحسنة هي التي تدخل الى القلوب برفق ، وتتعمق في المشاعر بلطف ، ولا تكون بالزجر والتأنيب في غير موجب ، وأن الداعي لا يفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو عن حسن نيّة .

فان الرفق واللين بالموعظة كثيرا ما يهدي القلوب الشاردة ، ويؤلف في نفس الوقت القلوب النافرة)[١] .

وقد تكون الموعظة الحسنة على طريق القصص القرآني ، ويلحق بها ما يكون على الحكايات المؤثرة في النفوس ، كحكايات الأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحين الذين يقتدي بهم في صلاحهم وتقواهم .

ونبي الله نوح عليه السلام كان يدعو قومه الى الله والى توحيده سبحانه بالموعظة الحسنة ، وباسلوب حسن مؤثر لكي تلين قلوب قومه لدعوته ، وكان يعظهم طيلة حياته معهم .

أن القرآن الكريم يصوّر لنا في صور شتى أن نوحا عليه السلام كان يعظ قومه بالموعظة الحسنة وبأسلوب لين لارشادهم الى الصواب .

قال تعالى : (قال يا قوم اني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون)[٢] .

معنى المفردات : نذير مبين أي مخوف ظاهر . وقوله : " واتقوه " أي خافوه ، وأطيعون فيما آمركم به ، وفي قوله : يغفر لكم من ذنوبكم

---

(١) وأنظر كتاب طريق الدعوة في ظلال القرآن ، لأحمد فائز ص ١٢٩ .
وأنظر أيضا كتاب ، تاريخ الدعوة الى الله ، آدم عبد الله الآلودي ص ١٤٠ .

(٢) سورة نوح ، آية ٢ ، ٣ ، ٤ .

للتبعيض أى بعض ذنوبكم .

والمعنى المراد : قال نوح عليه السلام لقومه : يا قوم انى لكم موضح لحقيقة الأمر ومخوف بلسانكم . أعبدوا الله ووحدوه وخافوه ، واجتنبوا ما أنتم عليه من الشرك ، وأطيعونى فيما آمركم به وأنهاكم عنه فانى رسول الله اليكم .

وأما قوله سبحانه : " يغفر لكم من ذنوبكم " أى يا قوم يغفر لكم بعض ذنوبكم التى قد سبق ارتكابها .

وقوله : " ويؤخركم الى أجل مسمى " أى أن الله يمدّ فى أعماركم بشرط الايمان والطاعة . قال ابن عباس رضى الله عنهما : أى ينسىء فى أعماركم .

ومعناه أن الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنهم ان آمنوا بارك فى أعمارهم بأن لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب .

وقال مقاتل : يؤخركم الى منتهى آجالكم فى عافية ، فلا يعاقبكم بالقحط وغيره . فان وصف الأجل بالمسمى وتعليق تأخيرهم اليه بالايمان والطاعة صريح فى أن لهم أجلا آخر لا يجاوزونه ان لم يؤمنوا .

وقوله : " ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر " أى ما قدره لكم على تقدير بقائكم على الكفر من العذاب اذا جاء وأنتم باقون على الكفر لا يؤخر ، بل يقع لا محالة . فبادروا الى الايمان والطاعة . وقيل المعنى : ان أجل الله وهو الموت اذا جاء لا يمكنكم الايمان . وقيل : المراد — اذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب .(١)

وهذا الرأى هو الصواب والله أعلم . ورأى مقاتل المذكور هو الرأى الذى

---

(١) أنظر تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٦٧٧٨ .
وتفسير أبى السعود ، جـ ٩ ص ٢٧ .
وفتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٢٩٧ .

رجّحناه نفسه . وبه قال الامام القرطبي أيضا .

ومعنى قوله : " لو كنتم تعلمون " أى لو كنتم تعلمون شيئا لسارعتم الى ما آمركم به ، ولعلمتم ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر .

وقد دلت الآيات التالية على موعظة نوح عليه السلام لقومه .

قال تعالى : (فقلت استغفروا ربكم انه كان غفّارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) (١)

ومعنى استغفروا أى توبوا . وغفارا : كثير المغفرة للمذنبين .

ويرسل السماء عليكم : معناه يرسل المطر عليكم .

ومعنى : مدرارا . ذا غيث كثير ، أى متواصلة الأمطار .

والمعنى المراد من الآية الكريمة : يخاطب نبى الله نوح عليه السلام قومه قائلا : يا قوم استغفروا ربكم وسلوه المغفرة من ذنوبكم باخلاص الايمان لله تعالى ، انه غفار لذنوب التائبين .

وأضاف نوح عليه السلام موعظته لقومه قائلا لهم : ان تبتم الى الله وأطعتموه كثّر الله الرزق عليكم . وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض . وأعطاكم الاولاد والأموال ويجعل لكم أيضا بساتين فيها أنواع الثمار . ويجعل الأنهار الجارية بينها .

هكذا كان عليه السلام يدعو قومه بمعظهم ، ولكن كذبوه ولم يتبعوه . وروى أن قوم نوح لما كذبوه بعد ما دعاهم قرونا حبس الله المطر عنهم ، وأعقم أرحام نسائهم ، فوعد نوح عليه السلام أنهم ان تمنوا أن يرزقهم الله تعالى بأموال وبنين وينزل عليهم المطر الغزير .

---

(١) سورة نوح ، آية ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

ان الله تبارك وتعالى قد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق فى قوم نوح .

وفى القرآن الكريم مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله تعالى ، وبين تيسير الأرزاق وعموم الرخاء (١) جاء ذلك فى قوله تعالى : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) (٢) . وغيرها من الآيات فى هذا المقام .

هكذا كانت دعوة نوح عليه السلام قومه بالموعظة الحسنة ، وبأسلوب حسن مؤثر .

وهو أحد العوامل الحساسة الهامة التى توفر على الداعى الوقت والجهد ، وتصل به الى الغاية المطلوبة بأقل التكاليف وأيسرها .

فالداعية الناضج كالطبيب الناجح ، فانه يعرف من أين يبدأ ، وكيف يبدأ ؟

وقد ورد فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم حيث بيّن فيه كيفية الدعوة للداعى بالموعظة الحسنة .

روى البخارى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ((كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة فى الايام كراهة السآمة علينا)) (٣)

بتشديد الواو فى يتخولنا . يقال : خال المال يخوله تخولا اذا تعهده ومعنى السآمة : أى المشقة . وقد جاء شرح هذا الحديث فى فتح البارى . ما نصه : ((ويستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ، لسيد قطب ، جـ ٦ ص ١٣ ٣٧ .

(٢) سورة الاعراف ، آية ٩٦ .

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب العلم باب " ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كى لا ينفروا " ، فتح البارى لشرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى جـ ١ ص ١٦٢ .

فى الجد فى العمل الصالح خشية الملال ، وان كانت المواظبة مطلوبة لكنهـــا على قسمين ، امّا كل يوم مع عدم التكلف ، وامّا يوما بعد يوم - فيكون يـــوم الترك لأجل الراحة ليقبل على الثانى بنشاط .

واما يوما فى الجمعة ، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، والضابط الحاجـة مع مراعاة وجود النشاط .

وأخذ بعض العلماء من حديث الباب كراهة تشبيه غير الرواتب بالرواتـــب بالمواظبة عليها فى وقت معيّن دائما)) (١) .

والمعنى المقصود من الحديث هو : كان النبى صلى الله عليه وسلم يراعـــى الأوقات فى تذكير الصحابة رضى الله عنهم ، ولا يفعل ذلك كل يوم لئـــلا يملوا .

د - أسلوب الدعوة بالمجادلة بالتى هى أحسن فى دعوة نوح :

أمّا أسلوب الدعوة بالجدال بالتى هى أحسن فهو : معارضة الذيـــن يعارضون لاظهار الحق المعلوم لهم .

ينبغى للداعى الذى يدعو الناس الى دين الله ، أن يجادل خصومـــه المنكرين بلا تحامل على المخالف ، ولا تزييل له ولا تقبيح ، حتى يطمئن الداعى ، ويشعر أنه ليس هدفه هو الغلبة فى الجدل ، ولكن الاقناع والوصول الى الحق ، فالنفس البشرية فى جميع العصور لها كبرياؤها وعنادها ، وهـــى لا تنزل عن الرأى تدافع عنه ولو كان باطلا الا بالرفق حتى لا تشعـــر بالهزيمـــة .

---

(١) فتح البارى لشرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى ، جـ ١ ص ١٦٣ .

وسرعان ما يختلط على النفس قيمة الرأى ، فتعتبر فى نفس الوقت التنازل عن الرأى تنازلا عن هيبتها واحترامها .

والجدل بالحسنى هو الذى يطامن وينزل من هذه الكبرياء .

ويشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة ، وأن الداعى لا يقصد الا كشف الحقيقة فى ذاتها والاهتداء اليها فى سبيل الله ، لا فى سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة رأى الآخر (١) .

وأن نبى الله نوح عليه السلام استعمل هذا الاسلوب كسلاح ضد المتكبرين المستكبرين ، وكان عليه السلام يجادل قومه طوال مدة بقائه فيهم بالتى هى أحسن ، وكلما كان قومه يناقشونه بالقوة والقسوة ، كان يقابل كل ذلك بالحسنى والقول اللين .

وقد صور القرآن الكريم استعلاء قومه ورفضهم الاستجابة لدعوته وهو يستمر فى دعوته لهم محاولا اقناعهم ، وأخذ يحاورهم ويجادلهم بالحسنى وذلك قوله سبحانه وتعالى : ((قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون — ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم أفلا تذكرون ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين)) (٢)

---

(١) أنظر فى ظلال القرآن ، جـ ٤ ص ٢٢٠٢ .
وكتاب طريق الدعوة فى ظلال القرآن ، لأحمد فائز ص ١٤٠ .

(٢) سورة هود : من آية ٢٨ الى ٣١ .

وقد سبق شرح هذه الآيات المذكورة التى نحن بصددها ولا حاجة الى اعادة شرحها فى هذا الموضع (١) .

وانى سآتى بالتفسير الاجمالى للآيات :

قال نوح عليه السلام مخاطبا قومه : يا قوم أخبرونى ما رأيكم فى حالى معكم ان كنت على حجة ظاهرة من ربى ، وأعطانى النبوة والرسالة برحمته وفضله ، وقد حجبكم عن الاهتداء اليها جهلكم وغروركم بأموالكم وجاهكم ، فهل يصح أن أكرهكم على اعتناق الدعوة وأنتم لها كارهون ؟ .

ويستمر نوح عليه السلام فى اقناع قومه واخضاعهم الى الحق ويقول : يا قوم انا لا اطلب منكم على دعوتى وهدايتى لكم مالا ولا اجرا انما اجرى على الله تعالى .

ويبدو أن خطاب نوح عليه السلام لقومه اثر فيهم ، ولكنهم وجدوا ان أتباعه هم من الفقراء والضعفاء ، وأن القوم كانوا يعتبرون اتباع نوح عليه السلام بانهم ارذال القوم ، ويفصل بين الاشراف وبين المؤمنين فوارق كبيرة ، مالية كانت او اجتماعية ، هكذا كان زعم الاشراف وقد اجابهم نوح عليه السلام بقوله : يا قوم لست انا بطارد احدا من الذين آمنوا استجابة لدعوتكم ، وبسبب احتقاركم اياهم .

وكما بين عليه السلام عاقبة هؤلاء الفقراء الذين اتبعوه وقال : ان الذين تحتقرونهم فانهم مقربون عند الله عز وجل ، وسيلاقون ربهم يوم القيامة ، فالله يتولى حسابهم وجزاءهم .

---

(١) راجع شرح الآيات فى صفحة ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٩ .

وبعد ذلك أخذ نوح عليه السلام الخطاب يوجّه للمعاندين من قومه ويقول : أيّها انتم ايها القوم فانى اراكم قوما تجهلون .

واذا طرد عليه السلام هؤلاء الذين آمنوا برسالته من السبب يمنعه من عقاب الله تعالى فى حالة طردهم من مجلسه ؟

ويقول نوح لقومه كيف أطردهم بعد ايمانهم بالله عز وجل ؟ يا قوم ! أفلا تتذكرون بأن لهم ربا ينصرهم ويتولى امورهم ؟

ونوح عليه السلام يتابع دعوته قائلا : يا قوم انى لا اقول لكم عندى خزائن الله اتصرف بها كما أشاء ، ولا ادعى علم الغيب ، كما لا أقول انى ملك من الملائكة ، فما انا الا بشر مثلكم .

وانه لا يقول للذين يحتقرهم الكفار ان الله لن يؤتيهم خيرا وذلك ارضاء لرغباتهم ، لان الله سبحانه وتعالى وحده يعلم ما فى انفسهم من اخلاص .

هكذا كانت دعوة نوح عليه السلام لقومه ، كان يجادلهم بالحسنى وهم يردّون عليه اقوالا منكرة ويتهمونه عليه السلام بأنه يخاصمهم ويكثر خصومتهم ، جاء ذلك فى قوله تعالى : ((قالوا يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين)) (١) .

كان نوح عليه السلام فى أكثر لقاءاته مع قومه يجادلهم باللين ويناقشهم بالمناقشات المفحمة ، ولكن قومه لم يرجعوا الى الصواب ، بل انهم استمروا فى غيّهم وضلالهم .

هذا الاسلوب من أهم الاساليب فى الدعوة الى الله تعالى ، لذلك قد أمر الله عز وجل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجادل قومه

---

(١) سورة هود ، آية ٣٢ .

بالتى هى احسن ، قال تعالى : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن) (١) .

ان البسطاء لا يجادلون اطلاقا ، وانما يجادل العقلاء الذين سبق ان أشربت فى قلوبهم عقيدة أو نظرية (٢) .

لذلك جاء القرآن الكريم يبين طريقة دعوة اهل الكتاب بقوله تعالى : (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن) (٣) . أى ولا تجادلوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى الا بالخصلة التى هى احسن ، وذلك على سبيل الدعاء لهم الى الله تعالى ، والتبشيه لهم على حجته وبراهينه ، وذلك رجاء اجابتهم الى الاسلام .

لا على طريق الغلظة والخشونة .

فلا ضرورة للحاجة فى الجدل انما هو البيان ، والأمر بعد ذلك لله .

---

(١) سورة النحل ، آية ١٢٥ .

(٢) أنظر كتاب — تاريخ الدعوة الى الله ، لآدم عبد الله الآلوسى ، ص ١٤٠ .

(٣) سورة العنكبوت ، آية ٤٦ .

ثانيا : مقابلة نوح عليه السلام جهل وسفه قومه بالعلم والحلم :

كان نبى الله نوح عليه السلام يخاطب قومه الذين استكبروا بغير الحق خاطبهم بالعلم والمعرفة ، وبالمعقول الذى يفهمه ويقبله كل عاقل مستنير ، ولكن قوم كانوا يقابلون كلمة الحق بالباطل ، والعلم بالجهل ، ومن سفه عقولهم أنهم كانوا يردون كلمة النصح والارشاد .

وقد ذكر الله تعالى مايدل على ذلك فى كتابه العزيز وهو قوله سبحانه : ((لقد ارسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم واعلم من الله ما لا تعلمون أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون)) (١)

وقد سبق شرح هذه الآيات شرحا مفصلا فى الباب الثانى الفصل الثالث الى قوله تعالى : أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم)) الآية (٢)

معنى المفردات : الهمزة للاستفهام فى قوله : أوعجبتم — الواو للعطف وذكر من ربكم أى موعظة ووحى من ربكم ، وقوله : "على رجل منكم" أى على لسان رجل منكم .

المعنى المراد من الآية الكريمة : قال نوح عليه السلام لقومه أاستبعدتم يا قوم وعجبتم من ان جاءكم وحى وموعظة من مالك اموركم ومربيكم على شخص من جنسكم ؟ وذلك ليحذركم عاقبة الكفر والمعاصى .

---

(١) سورة الاعراف ، آية من ٥٩ الى ٦٣ .

(٢) راجع اذا اردت الاستزادة صفحة ١٢٠ من الباب الثانى فى الفصل الثالث .

وان نبى الله نوحا عليه السلام اوصى قومه بأن يخافوا الله عز وجل لعل الله يرحمهم برحمته الواسعة ويعفو عن سيئاتهم بسبب تقواهم. ولكن القوم ركبوا ركب العناد فى اصرارهم على الباطل .

هكذا كان حالهم مع رسولهم الكريم نوح ، كلما كان يعظهم بالعلم قابلوه بالجهل ، وكلما خاطبهم بالحكم قابلوه بالسفه والتكذيب كما نرى فى الآيات المذكورة التى بين ايدينا وفى غيرها من الآيات .

وهكذا كانت دعوات جميع الانبياء والمرسلين وكذلك دعاة الحق الى الله تعالى ، وانهم فى جميع العصور كثيرا ما يرون هذا الذى رأى نوح من قومه من اقوامهم المعاندين الذين لم يدخل الايمان فى قلوبهم .

ثالثا : مقابلة نوح عليه السلام ردّ قومه الشديد باللين والرقّة :

ومما لا شك فيه انه يجب على الداعى الى الله تعالى أن تتوفر فيه طبيعة اللينة الخيرة الرحيمة الهيّنة الليّنة ، حتى تتجمع حوله القلوب .

والقول اللين هو بذل النصح باسلوب مؤثر يفتح القلوب ويشرح الصدور .(١)

وعلى هذا الأساس لقد خاطب شيخ المرسلين نوح عليه السلام قومه باللين والعطف والرقة لجلب قلوبهم الى الايمان بالله وحده ، فالايمان برسالته عليه السلام . ولكن قوم نوح قابلوه بالعنف . وردوا عليه

---

(١) كتاب مشكلات الدعوة والداعية ، لمؤلفه فتحى يكن ص ١١٨ .

بالشدة والقسوة ، وأنهم آذوه وهددوه بأنواع الأذى ، وكما هددوه بالقتل والرجم ، وقد أشار الله عز وجل الى ذلك بقوله : (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما انتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلىّ اجرامى وانا برىء مما تجرمون) (١) .

معانى الكلمات : جادلتنا أى خاصمتنا فأكثرت خصومتنا ، والجدل فى كلام العرب المبالغة فى الخصومة ، أو جادلتنا (٢) .

وقوله : فأتنا بما تعدنا من العذاب ، ومعنى : معجزين أى فائتين أو بغالبين . يغويكم — ان يضلكم : الاغواء الاضلال أو الاهلاك .

وقوله : افتراه — اختلقه وافتعله .

المعنى المراد من الآيات : قال قوم نوح لنبيهم : يا نوح خاصمتنا فأكثرت ومالغت فيها ، وارادوا بذلك انهم لا يتبعون ما أمرهم نوح عليه السلام اليه ولا يؤمنون بما جاء به .

وقالوا : يا نوح فاتنا بما تعدنا من العذاب ان كنت صادقا بما تقول . فأجابهم نوح عليه السلام ردّا على قولهم : بأن ذلك ليس اليه اى اتيان العذاب انما هو بمشيئة الله وارادته .

وقوله : " وما انتم بمعجزين " اى ان اراد الله عز وجل اهلاككم عذبكم وما انتم بغالبين بكثرتكم ، وقال الامام ابن كثير : انما الذى يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يعجزه شىء (٣) .

---

(١) سورة هود ، آية من ٣٢ الى ٣٥ .

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٢٥٥ .

(٣) تفسير بن كثير جـ ٢ ص ٤٤٤ .

وقوله : " ولا ينفعكم نصحى ان اردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم " قال نوح عليه السلام : يا قوم ان اردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى أى ابلاغى فى ايمانكم ، لانكم لا تقبلون نصحا ، ان كان الله يريد أن يضلهم لا ينفعهم النصح ، وهو الله الذى رب كل شىء فاليه الاضلال والهداية .

هكذا كان نوح عليه السلام يدعو قومه بالقول اللين ، ولكن جواب قومه كان شديدا وغليظا ، وانه عليه السلام بيّن لهم بأنه لا ينفعهم نصحه ان كان الله عز وجلّ اراد اضلالهم عن سبيل الرشاد ويخذلهم عن طريق الحق .

وقال صاحب الكشاف (١) : فى معنى الآية ، كأن نوحا عليه السلام قال : " انكم اذا كنتم من المصممين على الكفر بالمنزلة التى لا تنفعكم نصائحه ومواعظه وسائر ألطافه كيف ينفعكم نصحى ؟ " (٢) .

ولقد أخبر الله عز وجلّ عن استعجال القوم عذاب الله وسخطه . ونوح عليه السلام أتى لهم بالدلائل واضحات المدلول بحيث تتلقاها العقول السليمة بالقبول ، وانه عليه السلام سد كل الطرق عليهم برد شبههم الباطلة ، فضاقت عليهم الحيل وقالوا : يا نوح ائتنا بما تعدنا من العذاب ان كنت صادقا فى قولك ، ونوح عليه السلام قابل هذا الاسلوب العنيف باللطف قائلا : ان العذاب الذى تستعجلون اتيانه ، فان الامر بيد الله عز وجلّ هو يأتى به اذا اراد وهو الذى يأتيكم به ان عاجلا أو آجلا ، وأخذ نوح عليه السلام ينصح قومه بأساليب أخرى ، ولكن قومه

---

(١) وصاحب الكشاف هو : محمد بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمى المشهور بجار الله أبو القاسم ، وهو من أئمة العلم بالدين واللغة ، والأدب ، والتفسير وقد توفى سنة ٥٣٨ هـ وله ترجمة فى : التفسير والمفسرون لحسين الذهبى جـ ١ ص ٤٣٠ والاعلام : للزركلى جـ ٨ ص ٥٥ ومعجم المؤلفين جـ ١٢ ص ١٨٦ ، وطبقات المفسرين للداودى جـ ٢ ص ٣١٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٧ بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر الطبعة الاولى ١٣٩٧هـ .

اتهموه فى آخر المطاف بأنه افترى على الله تعالى • أى انه اختلق الوحى والرسالة من عنده • أمر الله عز وجل نوحا عليه السلام أن يجيب بكلام منصف فقال : ان افتريت فعلى اجرامى وجزاء عقابى •

وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية : فقال بعضهم انها حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكفار مكة • (١)

وقال آخرون : انها حكاية عن نوح وما قاله لقومه • وقال الامام الآلوسى فى تفسيره : ان هذا الرأى هو رأى الجمهور من المفسرين •

قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر لانه ليس قبله ولا بعده الا ذكر نوح وقومه • (٢)

والراجح من الاقوال هو الرأى الثانى ، لان السياق يوصلنا الى ذلك

ودلت أيضا على الحوار الذى بين نوح وقومه الذين قابلوا القول اللين بالشدة والعنف دلت آيات سورة الشعراء قال تعالى : (اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) (٣) وقوله تعالى : (قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) (٣) وقد سبق تفسير هذه الآيات فى الفصل السابق • (٤)

هكذا كان يخاطب نوح قومه مبيّنا لهم الحق بأسلوب حكيم كما ترى فى هذه الآيات • ولكن قومه ردوا عليه بالعنف • كقولهم : أنؤمن لك " وبعد هذا هددوه بالرجم والقتل بعدما عاملهم عليه السلام بالحسنى ،

---

(١) ومن أصحاب هذا الرأى الامام ابن كثير وغيره • أنظر تفسير بن كثير جـ٢ ص ٤٤٤ •

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ٤ ص٣٢٥٧ • وتفسير فتح القدير للشوكانى جـ٢ ص ٤٩٧ • وروح المعانى للآلوسى جـ١٢ ص ٤٨ •

(٣) سورة الشعراء ، آيات من ١٠٦ الى آية ١١١ ، وآية ١١٦ •

(٤) راجع الصفحات ١٢١ ، ١٣٨ وما بعدها •

يخافوا الله فيما هم عليه من الضلال ، وعلى الرغم من كل ذلك هددوه بالرجم اذا لم ينته مما هو فيه عن دعوتهم جاء قوله : (قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) (١) الآية .

وأن جميع الانبياء والرسل عليهم السلام ودعاة الحق واجهوا هذه التهديدات أو غيرها فى سبيل اعلاء كلمة الله تعالى ورفع صوت الحق . والواجب على الدعاة الى الله أن يخاطبوا أقوامهم بألفاظ حسنة وأحاديث مشوقة وبأداب عالية .

وهذا الأمر قد وجّهه الله عز وجلّ الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) (٢) .

جاء فى قول القرطبى عن تفسير هذه الآية ما يلى : " قال ابن عباس رضى الله عنهما : أمر الله تعالى فى هذه الآية بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الاساءة ، فاذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم " (٣) .

ونرى القرآن الكريم فى معرض التوجيه الربانى يخاطب نبيين موسى وهارون عليهما السلام ، ويوصيهما بأن يبدءا الخطاب مع طاغية عصره فرعون باللين لعل فرعون يتذكر الحق ويخشى مما هو فيه من الكفر والضلال .

قال تعالى : (اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) (٤) .

ان القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة ترشد أن دعاة الحق

---

(١) سورة الشعراء ، آية ١١٦ .
(٢) سورة فصلت ، آية ٣٤ .
(٣) تفسير القرطبى ، الجامع لاحكام القرآن لابى عبد الله القرطبى جـ ٧ ص ٥٨٠٦ .
(٤) سورة طه ، آية ٤٣ ، ٤٤ .

أقرب الى الرفق واللين مع الناس ، ومجانبة الغلظة والقسوة ، وتؤكد تجارب الدعاة بما لا يحتمل الشك فاعلية هذا الاسلوب وقيمته التوجيهية .

وقد ثبت فى الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر أصحابه الكرام رضى الله عنهم بأن ييسّروا أمور الناس ويتعاملوا معهم باللين عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ((يسّروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا)) (١) .

والمعنى المراد من قول الرسول عليه الصلاة والسلام هو تأليف قلوب الناس .

رابعا : دعوة نوح عليه السلام قومه الى الحق ، ومقابلتهم الحق بالباطل ، وافتراءاتهم الباطلة له ، وطعنهم فى رسالته .

أن ما وقع بين سيدنا نوح عليه السلام وبين قومه من الصراع بين الحق والباطل هو ما وقع من بعده بين رسل الله الكرام والدعاة الى الله وبين أهل الكفر والضلال .

ولا يزال الصراع يستمر بين الحق والباطل الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ثم أنّ انصار الحق دائما قليلون ، وانصار الباطل كثيرون وذلك اما لغموض الحق على أكثر الناس ، واما اغواء الشيطان لبنى آدم .

وأنه لم يضر الحق قلة أنصاره ، ولا يمنع الدعوة الى الله عدم استجابة عموم الناس لها فى أيام نوح عليه السلام ومن بعده من الرسل ودعاة الحق (٢) .

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب العلم ، باب "كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخوّلهم بالموعظة والعلم كى لا ينفروا" ، فتح البارى ، به لشرح صحيح البخارى ، جـ١ ص ١٦٣ .

(٢) أنظر كتاب تاريخ الدعوة الى الله بين الامس واليوم ، لآدم عبد الله الآلورى ص ٥٠ .

ونوح عليه السلام كلّما كان يدعو قومه بالحق ، ويرشدهم الى الصواب كانوا يقابلونه بالباطل والمنكر .

جاء قوله تعالى في سورة المؤمنون : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ان هو الا رجل به جنّة فتربصوا به حتى حين) (١) . أنظر شرح هذه الايات في الباب الثاني من الرسالة (٢) .

بعد ما نصح نوح عليه السلام قومه بهذه الأساليب كما هو المشاهد في أول هذه الآيات ، فقد قابله قومه بالباطل ، وبالاتهامات المتنوّعة مرة قالوا : ما هذا الا بشر ، ومرة قالوا : انه رجل يريد التفضل على الناس ، وأخرى قالوا : انهم ما سمعوا بمثل ما جاء به نوح عليه السلام في القرون الماضية ، وفي آخر الأمر فقد اتهموه بأنه مجنون لا يدري ما يقوله .

وذلك تخييل منهم وافتراء واتهام واضح لنبي الله نوح عليه السلام .

والمستكبرون من قوم نوح كانوا يعرفون كل المعرفة أنه عليه السلام كان أرجحهم عقلا وأرزنهم قولا ، ولكن الكفار افتروا عليه واتهموه ، وكلما أراد عليه السلام بيان الحق لهؤلاء ، فانهم قابلوه بأقوال باطلة وافتراءات واتهامات جائرة . وفي نهاية الأمر كان نصر الله مع نوح عليه السلام وأن الباطل مهما استعلى ، ووجد له أنصارا وأعوانا ، فلا بد من هزيمة الباطل أخيرا أمام الحق ، وان الله ينصر رسله والذين آمنوا في الدنيا وفي الآخرة .

---

(١) سورة المؤمنون ، آية ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) راجع الباب الثاني الفصل الثالث الصفحة ١٠١ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

خامسا : عدم يأس نوح عليه السلام من ايمان قومه ، ومداومة الدعوة لهم على الرغم من جهلهم وسفههم .

ان نبى الله نوحا عليه السلام يضرب لنا مثلا أعلى فى قوة العزيمة واستمرارها ، وعدم اليأس فى مواصلة دعوة قومه الى الله تعالى رغم العقبات التى مرّ بها طوال حياته فى الدعوة .

ومن الصور البارزة التى يعرضها القرآن الكريم قوة عزيمته ، وهو ذلك الاستمرار المتواصل لدعوة قومه الى الله . سواء كان بالليل أو بالنهار بالسر والعلانية ، بلا ملل ولا يأس من ايمانهم .

ولكن هؤلاء القوم الذين غلبت عليهم شهواتهم ، فلم يروا الحق . أنهم رفضوا دعوة نوح جملة وتفصيلا .

أضف الى ذلك أن القوم وصفوا نوحا عليه السلام بالجنون ، فصبر على ذلك . ونرى عزيمته وعدم يأسه من ايمان قومه أنه كان يتلقى تهديد قومه بشجاعة نادرة فلا يتأخر عن دعوته لحظة ، حيث كانوا هددوه بالرجم .

ولكن نوحا عليه السلام لم يتراجع عن دعوته أمام هذا التهديد ، وكانت عزيمته وثباته كالجبال الراسيات . وكان يجابه قومه المستكبرين أمام كل العقبات بايمانه الراسخ بربه سبحانه وتعالى . قال تعالى فى سورة يونس : (واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركائكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا الىّ ولا تنظرون) (١) .

---

(١) سورة يونس ، آية ٧١ .

معنى المفردات :

" أتل عليهم " أذكر عليهم ، والنبأ : الخبر - أى أذكر على قومك خبر نوح ، وقوله : " كبر عليكم " عظم وشق عليكم . مقامى : أى قيامى ومكثى وبقائى . وتذكيرى : أى تخويفى لكم . وعلى الله توكلت : أى اعتمدت على الله تعالى . معنى اجمعوا أمركم : اعتزموا عليه ، من أجمع الأمر وأزمعه اذا نواه وعزم عليه (١) . وشركاءكم : أى اجمعوا شركاءكم وادعوا شركاءكم . وغمّة : معناه التغطية . من قولهم : غمّ الهلال اذا استتر أى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا تتمكنون فيه مما شئتم .

وقيل : ان الغمّة ضيق الأمر الذى يوجب الغم ، فلا يتبين صاحبه لأمره مصدرا ليتفرج عنه ما يغمّه .

ثم افضوا الىّ : أى اعملوا بى ما تريدون .

ولا تنظرون : أى ولا تمهلون ولا تؤخرون ، بل عجلوا أمركم واصنعوا بى ما بدا لكم (٢) .

المعنى المراد من الآية الكريمة : قال نوح عليه السلام مخاطبا قومه : يا قوم ان كان عظم عليكم وشق قيامى وبقائى فيكم بين أظهركم مدة بقائى فى دعوتكم ، وتذكيرى لكم بآيات الله عز وجلّ .

أى يا قوم اذا عزمتم على قتلى وطردى ، فانى توكلت واعتمدت على ربى الذى يتوكل عليه المتوكلون .

ونوح عليه السلام بقى فى توكله على الله تعالى فى كل حال ، وأنه عليه السلام بيّن أنه متوكل فى هذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم .

---

(١) راجع تفسير الكشاف ، للامام الزمخشرى جـ ٢ ص ٢٤٥ .
وأنظر أيضا القرطبى جـ ٤ ص ٣٢٠٢ .

(٢) راجع تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ص ١٩٨ .
والكشاف جـ ٢ ص ٢٤٦ .

ويكون المعنى : قال نوح عليه السلام لقومه : ان لم تنصرونى يا قوم فانى أتوكل على من ينصرنى ، وهو الله سبحانه وتعالى .

قال الامام ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (("فعلى الله توكلت" أى فانى لا أبالى ولا أكفّ عنكم سوءً عظم عليكم بقائى فيكم وتذكيرى اياكم أو لا "فاجمعوا أمركم وشركاءكم" أى فاجتمعو أنتم وشركاءكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن "ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة" أى ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا ، بل افصلوا حالكم معى ، فان كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا الىّ ولا تنظرون أى ولا تتأخرون ساعة واحدة . أى مهما قدرتم فافعلوا فانى لا أبالكم ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شىء[١] . كما قال هود عليه السلام لقومه : (انى أشهد الله واشهدوا انى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون انى توكلت على الله ربى وربكم) الآية[٢]

أننا نرى فى هذه الآية الكريمة وفى غيرها كيف كان صبر نوح عليه السلام وعدم مبالاته وخوفه أمام قومه الجبابرة الظالمين المعاندين .

أنها العزيمة القوية التى لا يمكن أن تصدر الا من الرسل عليهم الصلاة والسلام . أنه عليه السلام تحداهم ووقف أمامهم كالجبل . لأنه كان متوكلا على الله تبارك وتعالى حق التوكل .

وكيف لا ؟ أنه عليه السلام أحد أولى العزم من الرسل ، وشيخ المرسلين وأطولهم فى العمر والدعوة ، وهو مكث فى قومه يدعوهم الى عبادة الله تعالى عشرة قرون ، وطوال هذه المدة لم يتراجع عن دعوته ولم يدخل

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٢٥ .

(٢) سورة هود ، آية ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ .

اليأس في قلبه بسبب عدم ايمان قومه ، وكان يأمل ايمانهم ، ولكنهم على الرغم من كل تلك المجهودات ابتعدوا عن الاستجابة لصوت الحق ولم يؤمنوا .

ثم أنه عليه السلام قد تحمّل في هذه الغاية النبيلة من أنواع الأذى وكان عدد المستجيبين له لا يكاد يزيد ، ولكن درجة الاعراض ، والاصرار على البقاء على الكفر والضلال كانت ترتفع وتزداد . كما هو المشاهد في الآيات التي قصت عليه - عليه السلام .

وفي نهاية المطاف بدأ عليه السلام يصف لربه ويبيّن له تعالى ما صنع له قومه ، وما لقي منهم من الأذى والاعراض خلال دعوته لهم . وقد أشار الله تعالى الى ذلك على لسان نوح عليه السلام بقوله : (قال ربي اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي الا فرارا واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا)(١) .

معاني الكلمات : " دعوت قومي ليلا ونهارا " أي واصلت لهم الدعوة على الدوام من غير فتور . " فلم يزدهم دعائي الا فرارا " أي فلم يزدهم دعوتي عما دعوتهم اليه الا بعدا عن الدعوة والايمان .

وقوله : " وجعلوا أصابعهم في آذانهم " وذلك لئلا يسمعوا دعائي . " واستغشوا ثيابهم " أي غطوا بها وجوههم لئلا يروه ، وبالغوا في التغطي بها .

ومعنى أصرّوا : أي أصروا وأكبوا على الكفر فلم يتوبوا .(٢)

---

(١) سورة نوح ، آية ٥ ، ٦ ، ٧ .

(٢) راجع القرطبي جـ ٨ ص ٦٧٧٩ .
وانظر تفسير الكشاف ، جـ ٤ ص ١٦٢ .

المعنى المراد : قال نوح عليه السلام منادياً لربه وحاكياً ما جرى بينه وبين قومه وهو أعلم به منه : رب انى دعوت قومى الى ما أمرتنى به بأن أدعوهم اليه دائما فى الليل والنهار من غير تقصير . فلم يزدهم دعائى الا فرارا عن الدعوة وتباعدا من الايمان .

هكذا استمر نوح عليه السلام فى دعوته - أنه كلما دعاهم الى سبب المغفرة ، وهو الايمان بالله تعالى جعلوا أنامل أصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا صوته ، وأنهم غطوا بالثياب وجوههم لئلا يروه . أى بالغوا فى التغطى بها ، كأنهم طلبوا من ثيابهم أن تغشاهم لئلا يروه كراهة النظر اليه من فرط كرهة الدعوة . (١)

يكون استغشاء الثياب على هذا زيادة فى سد الآذان ، وقيل : هو كناية عن العداوة . يقال : لبس فلان ثياب العداوة .

وقيل : استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم نوح عليه السلام فيدعوهم . (٢)

وأن قوم نوح أصروا على البقاء فى الكفر ولم يقلعوا عنه ولا تابوا منه ، واستكبروا عن قبول الحق استكبارا شديدا ..

قال سيد قطب فى ظلال القرآن ما يلى : ((هذا ما صنع نوح وهذا ما قال ، عاد يعرضه على ربه وهو يقدم حسابه الأخير فى نهاية الأمد الطويل . وهو يصور الجهد الدائب الذى لا ينقطع . وهو لا يمل ولا يفتر ولا ييأس أمام الاعراض والاصرار)) (٣)

ولا بد أن يتساءل الانسان ما سبب هذه العزيمة القوية فى نفس نبى الله نوح عليه السلام ؟ لقد كان مبعثها ايمانه القوى بربه واعتماده عليه

---

(١) راجع تفسير روح المعانى ، للآلوسى . جـ ٠ . ٧٢ .
(٢) راجع تفسير فتح القدير ، للشوكانى جـ ٥ ص ٢٩٧ .
(٣) فى ظلال القرآن ، لسيد قطب جـ ٦ ص ٣٧١٢ .

سبحانه وتعالى - هكذا كانت دعوات جميع الرسل عليهم السلام الذين لاقوا من أقوامهم جميع أنواع الأذى والتهديدات .
ولكنهم استمروا في طريق الدعوة الى آخر لحظة من حياتهم .

ان عزيمة الداعي وقوة ارادته وثباته على الدعوة وعدم يأسه من الوصول الى نهاية قصده هي التي تكفل له النجاح ولدعوته الفلاح .

لا توجد في جميع الأزمان حركة اصلاحية الا ووراء هذه الحركة رجل داع الى دين الله عز وجلّ صحّت عزيمته وقويت ارادته .
واستولت الدعوة على قلبه وفكره ومشاعره .
فهو يعيش بها ويعيش لها ، حيث قد اختلطت الدعوة بدمه ولحمه ، فلا تفارقه ولا يفارقها .(١)

---

(١) أنظر كتاب الدعوة والدعاة ، لمؤلفه محمد محمد الصواف ، ص ٦٨ . الناشر : بيروت : مؤسسة الرسالة ، الطبعة الاولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

الفصل الخامس

موقف قوم نوح

أ - ... موقف قوم نوح منه ، وتكذيبهم له عليه السلام :

كان موقف قوم نوح من نبي الله نوح عليه السلام أنهم لم يستجيبوا لدعوته ، وابتعدوا عن الايمان بالله عز وجلّ ، وأنهم كذبوه وأنكروا عليه . وأصرّوا على البقاء في الكفر والمعاصي واستكبروا على الحق . واستمروا في عبادة غير الله عز وجل من الاوثان والأصنام .

وقد وقف قوم نوح أمام نوح عليه السلام وقفة عداوة .

ومع طول دعوته لهم ليلا ونهارا لم يرجعوا الى طريق الحق والصواب ، بل قابلوه بأنواع الأذى والاتهامات والافتراءات الباطلة ، من تكذيب واستهزاء وسخرية وغيرها .

وقد دلت الآيات الكريمة على تكذيب قوم نوح نبيهم .

منها قوله تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين) وقوله تعالى : (قال رب ان قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين)[1]

هذا اخبار من الله عز وجلّ عن نبي الله نوح عليه السلام ان قومه كذبوه ولم يتّبعوا سبل السلام . وتكذيب قوم نوح المرسلين باعتبار اجماع لكل على التوحيد[2] وقد سبق شرح الآية في الفصل الثالث .

---

(١) سورة الشعراء ، آية ١٠٥ وآية ١١٧ ، ١١٨ .

(٢) أنظر صفحة ١٢٠ الفصل الثالث من الباب الثاني .

ومعنى قوله : " قال رب ان قومي كاذبون " عند ما هدده قومه بأنواع الأذى والتهديدات كان نبي الله نوح شكى قومه لربه . قال : يارب ان قومي أصروا على تكذيبي بعد ما دعوتهم هذه المدة الطويلة .

هكذا دعا نوح عليه السلام قومه لاعلاء كلمة الله وتوحيده ، ولكنهم كذبوا رسالة رسولهم ووحي الله عز وجلّ .

ودعا نوح عليه السلام ربه عز وجلّ أن يفتح أي يحكم بينه وبين قومه بالحق وهو خير الحاكمين وأعدلهم . كأنه عليه السلام قال : يارب أحكم بيننا بما يستحقه كل منا .(١)

ان قوم نوح لم يكتفوا بتكذيب نبي الله نوح ولكنهم اتّهموه بالجنون وقالوا : أنه لايدري ما يقول ، وذلك على حسب زعمهم الباطل .

قال تعالى : (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر)(٢)

معنى الكلمات : " فكذبوا عبدنا " أي نوحا عليه السلام .

ومعنى : " وازدجر " أي زجر عن دعوى النبوة بالسب والوعيد بالقتل(٣)

والمعنى المراد : يقول الله تبارك وتعالى : كذبت قبل قومك يا محمد صلى الله عليه وسلم قوم نوح فكذبوا عبدنا ورسولنا نوحا عليه السلام . وأنهم صرحوا له بالتكذيب واتّهموه بالجنون .

وقال صاحب الكشاف : ((فان قلت : ما معنى قوله تعالى فكذبوا - بعد قوله كذبت ؟ قلت : معناه فكذبوا ، فكذبوا عبدنا : أي كذبوه تكذيبا على عقب تكذيب كلما مضى منهم قرن مكذّب تبعه قرن مكذّب ، وكذبت

---

(١) راجع تفسير الآلوسي ، جـ ١٩ ص ١٠٩ .
والكشاف للزمخشري جـ ٣ ص ١٢١ .

(٢) سورة القمر ، آية ٩ .

(٣) أنظر القرطبي جـ ٧ ص ٦٣٠١ ، وتفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ص ٤٣١ .

قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا : أي لما كانوا مكذّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأسا كذّبوا نوحا لانه من جملة الرسل)) (١)

ومن موقفهم اصرارهم على مداومة الباطل ، ومكرهم الخبيث لنوح عليه السلام ولدعوته . ودلّ على ذلك قوله تعالى : (قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ومكروا مكرا كبّارا - وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرن ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) (٢)

معنى المفردات : المكر هو الكيد . وكبارا . قرئ بالتخويف والتثقيل ، والكبار أكبر من الكبير والكبّار أكبر من الكبار ونحوه طوال وطوّال ، بتخفيف الأول وتثقيل الثانى .

ومعنى : لا تذرنّ - أى لا تتركنّ .

والمعنى المقصود من الايات : أنه عليه السلام كلما دعا قومه الى عبادة الله تعالى هربوا من دعوته ، وأنهم عصوه ولم يتبعوا لما أمرهم به من الايمان . أنهم استمروا على اتباع الأشراف والروساء الذين بطرتهم أموالهم وغرّتهم أولادهم وصار ذلك لزيادة خسرانهم فى الآخرة .

ومكرهم : هو كيدهم لنوح عليه السلام وتحريش الناس على ايذاه .

ووصّى هؤلاء الكفار من قوم نوح بعضهم بعضا بألّا يتركوا عبادة الآلهة التى عبدوها من دون الله سبحانه وتعالى .

وأنهم خصوها بالذكر لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم . وهذه كانت أسماء رجال صالحين .

---

(١) أنظر تفسير الكشاف ، للزمخشرى جـ ٤ ص ٣٧ .

(٢) سورة نوح ، آية ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

وقد ثبت في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

((صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد . أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع . أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسمّوها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عبدت)) (١) وأنظر تفاصيل وشرح هذا الحديث صفحة ٩٦ من الرسالة .

هكذا كان موقف قوم نوح . كانوا ينصحون أتباعهم من الكفار بألا يتبعوا نوحا ، وأنهم ينصح بعضهم بعضا في عدم تركهم عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع .

وهكذا نرى قوم نوح وموقفهم مع نوح عليه السلام وقد وجهوا له التهديدات والاتهامات المتنوعة ، فمرة كذبوه ومرة اتهموه بالجنون ، ومرة اتهموه بالسفه والضلال وكثرة الجدال معهم .

وكما اتهموه بأنه افترى على الله ، قابلوه بالسخرية والتهكم ، وغيرها من أنواع الأذى من ضرب وشتم .

---

(١) الحديث ، رواه البخاري في كتاب التفسير ، باب " ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق " سورة نوح . فتح الباري لابن حجر جـ ٨ ص ٦٦٧ .

هكذا تفننوا في ايذاء نبي الله نوح عليه السلام ليقلّوا من عزمه . وهو كلما كان يبيّن لقومه الحق ، كانوا يقولون هذا ضلال ، ويرشدهم الى الصواب وينصحهم بالهدى ، فيقولون : انه جادل معنا .

وأنهم لم يكتفوا بهذه كلها وأخذوا يهدّدونه بالرجم والقتل . وأن هذه التهديدات والافتراءات سلاح يستعمله الكفار في جميع الأزمان ، وفي وجه كل رسول ونبي كريم ، أو داعية مصلح .

وكان موقف أقوام الرسل جميعا أن أكثرهم كذّبوا رسل الله في جميع الأزمان .

فقد قال المشركون لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند دعوته لقومه أشد من ذلك . وأنهم كذبوه ، كما كذّب اخوانه من الأنبياء والمرسلين من قبل أقوامهم . وأوذوا في سبيل الله ولنصرة دينه بجميع أنواع الأذى .

قال تعالى : (وان يكذّبوك فقد كذّبت رسل من قبلك والى الله ترجع الأمور)(١) وقال تعالى أيضا : (وان يكذّبوك فقد كذّبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذّب موسى)(٢) .

المعنى المراد : يقول الله عز وجلّ لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : وان يكذّبوك هؤلاء المشركون ، ويخالفوا أمرك فيما جئتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ، وأن أقوام هؤلاء الرسل كذبوهم لما جاءهم بالبينات كنوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى وغيرهم من الرسل عليهم السلام .

---

(١) سورة فاطر ، آية (٤) .

(٢) سورة الحج ، آية ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

ب - بيان من آمن من قوم نوح عليه السلام ومن أهله :

مع طول المدة والمقام التى قضاها سيدنا نوح عليه السلام فى قومه ودعوته الأكيدة لهم ألف سنة الا خمسين عاما بدون انقطاع ، وبضروب المقال والأساليب ، والتهديد والوعد تارة والترغيب والوعيد أخرى لم يؤمن معه من قومه الا قليل .

دل على ذلك قوله تعالى : (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل) (١)

وقوله تعالى : (فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم) (٢) .

معنى المفردات : معنى " زوجين اثنين " يقال : هما زوجان ، فى كل اثنين لا يستغنى أحدهما عن صاحبه ، فان العرب تسمى كل واحد منهما زوجا .

يقال : زوجا نعل ، اذا كان له نعلان ، وكذلك عنده زوجا حمام .

ويقال : المرأة هى زوج الرجل ، والرجل هو زوجها . وقد يقال : للاثنين هما زوج ، ويكون الزوجان بمعنى الضربين والصنفين (٣)

ومعنى : " أسلك فيها " أى أدخل فيها . يقال : سلكت الشىء فى الشىء أى أدخلته فيه .

المعنى المقصود : ذكر الله تبارك وتعالى فى هاتين الآيتين الكريمتين أنه أمر نبيه ورسوله نوحا عليه السلام أن يحمل معه فى السفينة عند الطوفان من كل صنف من الحيوانات زوجين اثنين ذكرا وأنثى ،

---

(١) سورة هود ، آية (٤٠) .

(٢) سورة المؤمنون ، آية (٢٧) .

(٣) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٢٦٣ .

وذلك لبقاء نسل الحيوانات بعد الطوفان ، ولكى ينتفع بها الذين ينجون من الغرق وذرياتهم فيما بعد (١) .

وقوله : " وأهلك " عطف على زوجين أو اثنين ، أى احمل أهلك معك .

والمراد بأهله : امرأته المسلمة وبنوه وهم سام وحام ويافث وزوجات أبنائه الثلاث .

ومن أهله الذين سبق عليهم القول ، وحكم الله عز وجل بأنه شقى وفاجر وحكم عليه بالغرق ، وذلك بسبب ظلمهم وكفرهم ، ومنهم من سبق عليه القول ابنه يام الذى انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله (٢) .

قال تعالى فى حق ابنه الكافر : (انه ليس من أهلك) الآية ، أى ليس من أهلك الناجين من الغرق لأنه كان عمل غير صالح .

هكذا أمر الله عز وجل نبيه نوحا عليه السلام أن يحمل معه فى السفينة مع أهله المؤمنين الذين آمنوا معه من قومه ، ولكن كان عددهم قليلا ، قال تعالى : (وما آمن معه الا قليل) الآية .

المعنى : ما آمن مع نوح عليه السلام من قومه فى هذه المدة الطويلة الا عدد يسير جدا .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : آمن من قومه ثمانون نفسا منهم نساؤهم .

وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفسا ، وقيل : كانوا عشرة .

وفى خبر انه كان فى السفينة ثمانية أنفس ، نوح وزوجته غير الكافرة التى عوقبت وبنوه الثلاث وزوجاتهم ، وهو قول قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب

---

(١) راجع تفسير روح المعانى ، للآلوسى جـ ١٢ ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) تفسير بن كثير جـ ٢ ص ٤٤٥ .

وقال ابن اسحاق : كانوا فى السفينة عشرة سوى نسائهم ، نوح وبنوه سام وحام ويافث ، وستة اناث ممن كان آمن معه وأزواجهم جميعا (١) .

ان الأخبار والروايات تختلف بعضها عن بعض كما نشاهد فى الروايات السابقة ولا نجد نصا قرآنيا ولا فى سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يثبت بالقطع واليقين بيان عدد الذين آمنوا مع نوح عليه السلام من أهله ومن قومه .

وكلما ذكره القرآن الكريم هو أنه آمن معه عليه السلام بعض أهله غير الذين سبق عليهم القول من الله تعالى بأنهم سيغرقون ، وآمن معه أيضا عدد قليل من قومه غير أهله .

لقد ثبت فى كتاب العزيز أن عددا من قومه آمن معه وذلك قوله تعالى : (فأنجيناه ومن معه فى الفلك) (٢) أى أنجى الله تبارك وتعالى نوحا والذين آمنوا معه من الغرق والهلاك .

وقال تعالى : فى حق أهله : (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين) (٣) .

معنى النجاة : هو الخلاص ، ومعنى الكرب : هو البلاء ، والمراد هنا الغرق .

والمعنى : يقول الله تبارك وتعالى : نجينا نبينا نوحا من الطوفان ومعه أهله وأهل دينه .

قال القرطبى عند تفسير هذه الآية ما نصه : ((فنجيناه وأهله)) يعنى أهل دينه ، وهم من آمن معه " وجعلنا ذريته هم الباقين " الآية

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ٤ ص ٣٢٦٣ ، وأنظر أيضا تفسير بن كثير جـ٢ ص ٤٤٥ .

(٢) سورة الشعراء ، آية ١١٩ .

(٣) سورة الصافات ، آية ٧٦ ، ٧٧ .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما — لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء الا ولده ونساءه ، فذلك قوله : " وجعلنا ذريته هم الباقين " .

وقال سعيد بن المسيب : كان ولد نوح ثلاثة ، والناس كلهم من ولد نوح ، فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى ، وحام أبو السودان من المشرق الى المغرب : السند والهند والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم ، ويافث أبو الصقالبة والترك ويأجوج ومأجوج وما هنالك ..

وقال قوم : كان لغير ولد نوح أيضا نسل ، بدليل قوله تعالى : (ذرية من حملنا مع نوح) (١) فعلى هذا يكون معنى الآية : " وجعلنا ذريته هم الباقين " دون ذرية من كفر فانما أغرقنا أولئك (٢) .

وأورد الامام الآلوسى أقوالا حول عدد الذين آمنوا مع نوح عليه السلام جاء فيها : " عن ابن اسحاق أنهم كانوا مع نوح عليه السلام عشرين نصفهم رجال ونصفهم نساء ، وقيل : كانوا ثمانية وسبعين نصفهم ذكور ونصفهم اناث ، وقيل : كانوا ثمانين رجلا وثمانين امرأة ، وقيل : الرواية الصحيحة أنهم كانوا تسعة وسبعين ، زوجته وبنوه الثلاث ، ونساؤهم واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم من بنى شيث " (٣) .

هكذا نجد أقوال المفسرين والروايات التى وردت مختلفة ومتضاربة فى هذا الموضوع ، ولا يستطيع الباحث مهما يبذل جهدا أن يجزم القول على واحد من الأقوال . والعلم عند الله تعالى .

ويمكننا القول بأنه عليه السلام دعا قومه الى توحيد الله متواصلا فى هذه

---

(١) سورة الاسراء ، آية ٤ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٥٥٣٣ .

(٣) تفسير روح المعانى ، للآلوسى ، جـ ١٢ ص ٥٥ .

المدة الطويلة آملا ايمان قومه ، ومع بذل كل هذه المجهودات الجبارة لم يؤمن مع نوح عليه السلام الا عدد قليل .

وان الذين كفروا كانوا يعدّون أضعاف الأضعاف من الذين آمنوا .

ولكن الحق والنصر كان مع نوح عليه السلام والذين آمنوا معه .

وكان الهلاك والدمار للكافرين المستكبرين .

جـ — بيان المقصود من خيانة امرأة نوح له ، وأن الله نزّه الأنبيـــاء والرسل أن تقع من زوجاتهم فاحشة • مع ذكر وشرح الآيـــات الدالة على ذلك •

لقد ذكر الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم أن امرأة نبى الله نوح عليه الصلاة والسلام كانت كافرة ، وأنها خانت نوحا عليـــه السلام ، ودلّ على ذلك قول تعالى : (ضرب الله مثلا للذين كفـروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهمـــا فلم يغنيا عنهما من اللـــه شيئا وقيل أدخلا النار مع الداخلين) (١) •

المعنى : ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيها على أنه لا يغنى أحـــد فى الآخرة عن قريب ولا نسب اذا فرّق بينهما الدين •

قوله : " كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين " أى كانت امرأة نوح وامرأة لوط زوجتين فى عصمة رسولين كريمين ، وهذا بيان حالهمـــــا الداعية لهما الى الخير والصلاح • ولم يقل تحتهما للتعظيم — أى كانتا فى عصمة نبيين عظيمى الشأن متمكنين من تحصيل خير الدنيا والآخرة (٢) •

وقوله : " فخانتاهما " أى خانت امرأة نوح وامرأة لوط وكانت خيانتهمـا فى الدين والعقيدة •

وقوله : "فلم يغنيا عنهما من الله شيئا " أى لم يدفع نوح ولوط عليهمـــا السلام عند الله تعالى عن زوجتيهما شيئا من عذاب الله عز وجلّ •

وقوله :" ادخلا النار مع الداخلين " قال الله تعالى لهما يوم القيامة أدخلا

---

(١) سورة التحريم ، آية ١٠ •

(٢) راجع تفسير روح المعانى ، للآلوسى • جـ ٢٨ ص ١٦٢ •

أيتها المرأتان نار جهنم مع الداخلين فيها .

جاء التعبير بصيغة الماضى فى قوله تعالى : " وقيل أدخلا النار " لأنه سيقع لا محالة .

وقد يتسائل الانسان هل تخون امرأة نبى زوجها ؟ وهل تقع منهـا الفاحشة وهى جريمة الزنا ؟

فكيف أخبر الله عز وجل عن زوجتى رسولين نوح ولوط أنهما خانتاهما ؟

والجواب على ذلك ، أن هذا الأمر يستحيل تماما ، ولا يمكن أن تقـع من زوجات الأنبياء والرسل جريمة الزنا . لأن الله عز وجل قد حفـظ أنبياءه الكرام من تلوث العرض ، ومن وقوع زوجاتهم فى الفاحشة لأن ذلك يؤذى سمعة الأنبياء الأطهار .

فأما الكفر منهن فقد يقع ، كما وقع لزوجة نوح وزوجة لوط .

قال الامام ابن جرير الطبرى : ((كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما .

فكانت امرأة نوح تطّلع على سر نوح عليه السلام ، فاذا آمن أحد أخبرت الجبارين من قوم نوح به ، فكان ذلك من أمرها . وأما امرأة لوط فكانت اذا ضاف لوطا أحد أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء .

وقيل : خيانتهما كانتا مخالفتين دينهما كافرتين بالله تعالى .)) (١)

وقال صاحب الكشاف : ((كانت خيانتهما نفاقهما وابطانهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين ، ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمج فى الطباع نقيصة عند كل أحد ، بخلاف الكفر ، وعن ابن عباس رضـى الله عنهما " ما بغت امرأة نبى قط " (٢)

---

(١) تفسير الطبرى ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن . لابن جـرير الطبرى جـ ٢٨ ص ١٦٩ .

(٢) تفسير الكشاف ، للزمخشرى جـ ٤ ص ١٣١ .

وجاء فى أقوال المفسرين فى المقصود بالخيانة : قال القرطبى : ((قال عكرمة والضحاك أن الخيانة هنا الكفر ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما بغت امرأة نبى قط ، وهذا اجماع المفسرين فيما ذكره القشيرى ، انما كانت خيانتهما فى الدين وكانتا مشركتين)) (١) .

قال الامام بن كثير : ((ليس المراد بقوله " فخانتاهما " فى فاحشة ، بل فى الدين ، فان نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء)) (٢) .

ومما تقدم من أقوال المفسرين وروايات التى وردت مثل قول ابن عباس رضى الله عنهما وغيره ، فقد ظهر أن زوجات الأنبياء لا تقع منهن فاحشة ، وأن الله تبارك وتعالى نزّه أنبياءه ورسله الكرام أن تقع من زوجاتهم هذه الجريمة .

وقد رد الاستاذ عبد الوهاب النجار على الذين قالوا : بالقياس على أن جريمة الكفر أكبر من جريمة الزنا ، وقال : ((أما ما استندوا اليه فى عدم استبعاد أن تكون امرأة النبى زانية بالقياس على الكفر الذى هو أشد ذنبا من الزنا .

وامرأة نوح كانت كافرة وقد ضربها الله تعالى مثلا فى الكفر ، ومن أتى الذنب الاكبر ، يهون عليه الاتيان بالاصغر فظاهر البطلان ، لأن كفر المرأة وان كان أكبر الكبائر لا يعود الضرر الا عليها ، ولا يلحق الزوج منه عار ولا فضيحة بين الناس .

ولذا أباح الله تعالى للمسلم أن يتزوج من الكتابيات الكافرات بخلاف زناها فانه وان كان أصغر من الكفر لا يقصر ضرره عليها وحدها ، بل يلحق الزوج أيضا بسببه عار بين الناس)) (٣) والله أعلم وأحكم .

---

(١) تفسير القرطبى ، جـ ٨ ص ٦٦٨١ .
(٢) تفسير ابن كثير ، جـ ٤ ص .
(٣) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٤٢ ، أنظر الهامش القاهرة : مطبعة الحلبى .

الفصـــــل الســـــدس

- يأس نوح من ايمان قومه ، ودعائه عليهم بالهلاك .
- أمر الله لنوح عليه السلام بصنع السفينة .
- ومرور قوم نوح عند صنعه السفينة وسخريتهم منه .
- بيان الاسرائيليات الباطلة التى وردت فى سفينة نوح عليه السلام .

الأول : يأس نوح عليه السلام من ايمان قومه ، ودعائه عليهم بالهلاك ..

ونبى الله نوح عليه السلام قبل أن ييئس من ايمان قومه دعاهم الى الايمان بالله . وقد استعمل عليه السلام معهم جميع الاساليب فى الدعوة . وسبق أن ذكرنا الأيات التى دلت على أساليب نوح مع شرحها فى الفصول السابقة .

دعاهم نوح عليه السلام الى توحيد الله تعالى ليلا ونهارا أى فى جميع المناسبات فلم يزدهم دعاؤه الا فرارا وهربا عن الدعوة ، وأنه كلما دعاهم سدوا مسامعهم وتغطوا بثيابهم حتى لا يسمعوا قول نوح عليه السلام ولا يبصروه . وقد أصروا على عنادهم واستكبروا على رسولهم .

ونوح عليه السلام نوّع أساليب الدعوة معهم ، فمرّة يخوّف وأخرى يبشر ، ومرّة يشتد وأخرى يلين ، ومرّة يعدهم بنعم الله عز وجل وأخرى يذكرهم بآياته فى الآفاق وفى أنفسهم .

وطلب عليه السلام من قومه أن يستغفروا ربهم ويتوبوا اليه من ذنوبهم .

ووعدهم بنزول المطر الغزير بسبب استغفارهم ، فينتفعوا بهذا الماء في الشرب والزرع ويجعل لهم الله عز وجل البساتين والأنهار الجارية العذبة .

وسألهم عليه السلام لماذا لا يرجون لله تبارك وتعالى عظمة ؟ وأن الله خلقهم على أطوار مختلفة ، وحالات متفاوتة ، وهذه الأمور توجب خوف الله وعبادته .

ثم قصد عليه السلام الى طريق آخر يرغّب به في طاعة الله تعالى وأخذ يذكرهم بآيات الله في سمائه وأرضه ، وما جعل فيها من نور القمر وضوء الشمس ، وكيف أنبتهم الله من الأرض نباتا ، ثم يعيدهم فيها ويخرجهم من التراب عند البعث والنشور ؟ وكيف جعل لهم الأرض بساطا ومهّدها للزرع والمشي عليها ؟ ليسلكوا منها السبل ، ويستخرجوا منها الزرع .

هكذا ظل نوح عليه السلام في دعوتهم ، ولكنهم لم ينتفعوا من هذه المواعظ والنصائح الطيبة ولم تفدهم الذكرى ، وأن هؤلاء القوم مكروا بنوح عليه السلام وبدعوته ، وأصروا على عصيانه ومخالفته .

ووصّى بعضهم بعضا بالباطل .

وبعد الجهد الطويل ومئات السنين التي قضاها في دعوتهم الى عبادة الله وحده يوصي بعضهم بعضا بعدم تركهم عبادة الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى .

وأخذ نوح عليه السلام يشكو من أولئك الأصنام واضلالها للناس ، أو كان شكوى نوح عليه السلام من كفار قومه الذين كانوا يتواصون بالباطل فيما بينهم ، وعدم اتباعهم للحق .

وهذه المعانى التى ذكرت هى بعض ما ذكره الله عز وجل فى سورة نوح التى سميت باسمه عليه السلام ، وأشار الله الى ذلك الحوار الذى جرى بين نوح وقومه بقوله سبحانه : (قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا • وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا — واستكبروا استكبارا ثم انى دعوتهم جهارا ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا • يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا • مالكم لا ترجون لله وقارا ؟ وقد خلقكم أطوارا • ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا • والله أنبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيها فيخرجكم اخراجا • والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا •

قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ومكروا مكرا كبّارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا (١) •

وقد شرحت هذه الآيات فيما مضى • ولا حاجة الى اعادة شرحها مرة أخرى •

نرى من خلال هذه الآيات فى سورة نوح وغيرها أنه عليه السلام بقى فيهم يدعوهم الى الله تعالى ، وهو يلقى جميع صنوف الأذى من قومه ، وهو صابر لا ييئس من ايمانهم ، ولا يدعو عليهم بالعذاب والهلاك ، وانما كان يأمل فيهم أو فى أبنائهم الخير والصلاح •

---

(١) سورة نوح ، من آية ٥ الى آية ٢٤ •

ولكن فى هذه المدة الطويلة لم يؤمن مع نوح عليه السلام الا عدد قليل وكلما انقرض جيل جاء من بعده أخبث وألعن .

وبعد أن ضاق صبر نوح عليه السلام ، ونفذت جميع أساليبه فى الدعوة أوحى الله تبارك وتعالى اليه عند ذلك أنه لن يؤمن من قومه الا من تم ايمانه . قال الله تعالى مشيرا الى ذلك : (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) (١) .

معنى : " لن يؤمن من قومك " اقناط من ايمانهم ، وأنه كالمحال الذى لا يمكن توقعه . ومعنى : " فلا تبتئس " أى فلا تحزن حزن يأس مستكين . والبؤس : الحزن . يقال : ابتأس الرجل اذا بلغه شىء يكرهه ، والابتئاس حزن فى استكانة (٢) .

المعنى المراد : ان الله تعالى أوحى الى رسوله نوح عليه السلام بأنه لن يؤمن من قومه غير الذين سبق ايمانهم ، وأن القوم مستمرون على كفرهم ومصممون عليه . يا نوح فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك — وايذائك ومعاداتك فان الانتقام لك منهم (٣) كأنه قال : وقد انتهت أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم ، فقد انتهى الانذار وانتهت الدعوة وانتهى الجدل ، فالقلوب المستعدة للايمان قد آمنت ، أما البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه (٤) .

هكذا أوحى الله الى نوح عليه السلام ، وهو أعلم بعباده وأعلم بالممكن والممتنع ، كأنه قال : فلم يبق مجال للمضى فى دعوة لا تفيد . ولا عليك يا نوح بما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب ، ولا تهتم بهذا الذى كان

---

(١) سورة هود ، آية ٣٦ .

(٢) راجع الكشاف ، للزمخشرى جـ ٢ ص ٢٦٨ ، والقرطبى جـ ٤ ص ٣٢٥٨ .

(٣) تفسير الكشاف ، للزمخشرى جـ ٢ ص ٢٦٨ .

(٤) فى ظلال القرآن ، لسيد قطب ، جـ ٤ ص ١٨٧٦ .

منهم . لا تحزن يا نوح لا على نفسك فما هم بضارّيك بشيء ، ولا تحزن عليهم فانهم لا خير فيهم دع أمرهم فقد انتهى .

وقال الامام ابن جرير الطبرى : ((يا نوح فلا تحزن بما كانوا يفعلونه ، فانى مهلكهم ومنقذك منهم ومن اتبعك)) (١)

وقال الامام الآلوسى عند تفسير هذه الآية : ((هذا اقناط له عليه السلام من ايمانهم ، واعلام بأنه لم يبق فيهم من يتوقّع ايمانه .

أخرج اسحاق بن بشر ، وابن عساكر عن ابن عباس — رضى الله عنهما ، قال : ان نوحا عليه السلام كان يضرب ، ثم يلفّ فى ليد فيلقى فى بيته يرون أنه قد مات ، ثم يخرج فيدعوهم ، واتفق أن جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا فقال : يا بنىّ أنظر هذا الشيخ لا يغرّنك قال : يا أبت أمكن من العصا ، فأخذ العصا ثم قال : ضعنى على الأرض فوضعه فمشى اليه فضربه فشجّه موضحة فى رأسه وسالت الدماء ، فقال نوح عليه السلام : رب قد ترى ما يفعل بى عبادك ، فان يك لك فى عبادك حاجة فاهدهم ، وان يكن غير ذلك فصبّرنى الى أن تحكم وأنت خير الحاكمين . فأوحى الله تعالى اليه وآيسه من ايمان قومه ، وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال ولا فى أرحام النساء مؤمن . وقال سبحانه : " يا نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن " (٢)

وهذا الذى ذكر من قول ابن عباس رضى الله عنهما وغيره كان سببا ليأس نوح عليه السلام من ايمان قومه .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ص .

(٢) تفسير روح المعانى ، للآلوسى . جـ ١٢ ص ٤٨ .

أولا : دعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك .

لما يئس نوح عليه السلام من ايمان قومه توجه الى الله عز وجل بالدعاء عليهم باهلاكهم ، جاء على لسان نوح عليه السلام قوله تعالى : (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا)(١) وقوله : (ولا تزد الظالمين الا تبارا)(١) .

معانى المفردات : ان تذرهم اى تتركهم . ومعنى " كفارا " كثير الكفران لنعم الله على صيغة المبالغة ، ومعنى " ديارا " أى أحدا . يقال ما بالمنازل ديار . أى ما بها أحد ، وهو من الدار . أى ليس بها نازل دار . أى من يسكن الديار قاله السدى ، وقيل : الديار صاحب الدار(٢) ومعنى تبارا : أى هلاكا .

معنى الآيات : قال نوح عليه السلام داعيا ربه عز وجل طالبا منه هلاك قومه بعد أن يئس من ايمانهم قال : يا رب لا تترك على وجه الأرض من هؤلاء الكفار أحدا . وان بقى منهم أحد على وجه الأرض يضلوا عبادك الذين تخلفهم من بعدهم .

وقال عليه السلام : ولا يلدوا الكفار الا فاجرا فى الايمان كافر القلب ونوح عليه السلام كان قد علم حالهم بكثرة بقائه فيما بينهم ولخبرته بهم كأنه قال : لا تترك أحدا منهم الا أهلكته ، انك ان تتركهم على الأرض يضلوا عبادك عن طريق الحق ، ولا يلدوا الا فاجرا بترك طاعتك كثير الكفران لنعمتك(٣)

---

(١) سورة نوح ، آية ٢٦ ، ٢٧ ، وآية ٢٨ .

(٢) راجع تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ص ٤٨٨ .
والكشاف جـ ٤ ص ١٦٥ ، وانظر القرطبى جـ ٨ ص ٦٧٩٢ .

(٣) تفسير فتح القدير ، للشوكانى جـ ٥ ص ٣٠١ .

وقوله : " ولا تزد الظالمين الا تبارا " الآية .

عند ما دعا نوح عليه السلام على قومه بالهلاك قال : رب لا تذر ولا تترك المتصفين بالظلم الا هلاكا وخسرانا ودمارا .

وقال صاحب الكشاف : ((بم علم نوح عليه السلام ان أولادهم يكفرون ؟ وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة ؟ قلت : لبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم . وكان الرجل ينطلق بابنه اليه ويقول : احذر هذا فانه كذّاب ، وأنّ أبي حذّرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك . وقد أخبره الله عز وجلّ - أنّه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن))(١) الآية .

ومعنى : " ولا يلدوا الا فاجرا كفارا " أي لا يلدوا الا من سيفجر ويكفر ، ووصفهم بما يصيرون اليه .

ونبي الله نوح لم يدع على قومه الا بعد أن تحدّوه وكذّبوه ويئس من ايمانهم بعد ذلك كله ، وعلّل بذلك بقوله : فان هؤلاء أئمة الضلال ورؤوس الكفر ، ومادامو على ذلك فهم خطر على كل مؤمن . لذلك دعا ربه عز وجلّ أن لا يدع على وجه الأرض واحدا منهم ، لأنه ان تركهم أضلوا عباده عن طريق الحق ، ونشئوا أولادهم على الشرك الذي هم فيه .

ودلت هذه الآيات الآتية على أن نوحا عليه السلام دعا على قومه بالهلاك بعد أن يئس من ايمان قومه : قوله تعالى : (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر)(٢) وقوله : (قال رب انصرني بما كذّبون)(٣)

---

(١) تفسير الكشاف ، للزمخشري ، جـ ٤ ص ١٦٥ .

(٢) سورة القمر ، آية (١٠) .

(٣) سورة المؤمنون ، آية (٢٦) .

المعنى : عندما كذّبه قومه واتّهموه بالجنون ، ويئس نوح عليه السلام من ايمانهم حينئذ دعا عليهم بالهلاك .

وقال : انصر لي منهم لأنهم غلبوني .

قال الامام الزمخشري : عند قوله تعالى " فدعا ربه أني مغلوب فانتصر" " فدعا بأني مغلوب ، وانى على ارادة القول فدعا ، فقال اني مغلوب غلبني قومي فلم يسمعوا مني واستحكم اليأس من اجابتهم لي ، فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم ، وانما دعا بذلك بعد ما طمّ عليهم الأمر وبلغ السّيل الزبى . فقد روى أن الواحد من أمّته كان يلقاه فيخنقه حتى يخرّ مغشيا عليه فيفيق وهو يقول : " اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون" (١)

ومعنى قوله : " قال رب انصرني بما كذبون " .

دعا نوح عليه السلام ربه أن ينصره على قومه ، وينتقم منهم بسبب تكذيبهم له ولرسالته . " الباء " للسببية . أي بسبب تكذيبهم اياى .

وقد بين الله عز وجلّ في هذه الآيات المذكورة التي نحن بصدد شرحها دعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك ، وأنه لم يبيّن في هذه الآيات هل استجاب الله تعالى دعاء نبي الله نوح عليه السلام أم لا ؟

الجواب على ذلك أن الله تعالى استجاب دعاءه ونجّاه ومن معه من الغرق وأهلك الكفار بالغرق . قال تعالى : ((ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجّيناه وأهله)) (٢) .

---

(١) تفسير الكشاف ، للزمخشري ، جـ ٤ ص ٣٧ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية ٧٦ .

وقوله تعالى أيضا : (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون)(١)

معنى الآية الاولى : بعد ما ذكر الله عز وجلّ قصص بعض الأنبياء عليهم السلام . ثم قال : " ونوحا اذ نادى من قبل " أى أذكر نوحا اذ دعا الله عز وجلّ على قومه بالهلاك . وأن الله تعالى استجاب دعاء نبيه ورسوله نوح عليه السلام لما دعا على قومه ، وأنه سبحانه وتعالى نجّى نوحا وأهل دينه من الغرق .

وقوله تعالى : ((ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون)) أى - لقد دعانا نوح حين أن يئس من ايمان قومه - واللام الداخلة على نعم جواب قسم محذوف - تقديره : فوالله لنعم المجيبون نحن . والجمع دليل العظمة والكبرياء .

والمعنى : بقول الله عز وجلّ : انا أجبنا نوحا أحسن الاجابة .(٢)

هكذا كان مصير قوم نوح . لقد دعاهم نبيهم الى الله دهورا ، فلم يزدهم دعاؤه الا نفورا . وبعد أن أعلم الله نوحا وآيسه من ايمانهم دعا عليهم بالهلاك والوبار . وبعد دعائه عليهم استجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه ، فأغرق الكافرين بالطوفان ، ونجّى نوحا والذين آمنوا معه . . .

---

(١) سورة الصافات ، آية ٧٥ .

(٢) راجع تفسير الكشاف ، للزمخشرى جـ ٣ ص ٣٤٣ .

ثانيا : أمر الله تعالى لنوح عليه السلام بصنع السفينة :

وبعد أن استجاب الله تبارك وتعالى دعاء نوح عليه السلام . أراد سبحانه وتعالى قبل اهلاك قوم نوح المكذبين أن يهيّئ له وللمؤمنين الذين آمنوا معه أسباب النجاة من الطوفان المحتوم . فأمر الله تعالى نبيّه أن يصنع السفينة ، وأعلمه أنه سيكون أثناء صنعها محاطا بعنايته مشمولا برعايته سبحانه .

وأنه سبحانه نهى نوحا عليه السلام أن يدعو للكفار بالنجاة بعد اصرارهم على الكفر ، لأن الله حكم عليهم بالهلاك .

قال تعالى : (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون) (١) كما دلّ قوله تعالى فى سورة المؤمنون : (فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا) (٢) .

معنى الأعين فى الآيتين الكريمتين : بأعيننا أى بمرأى منا وحيث نراك

وقال الربيع بن أنس : بحفظنا اياك حفظ من يراك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : بحراستنا . والمعنى واحد ، فعبّر عن الرؤية بالأعين لأن الرؤية تكون بها ويكون الجمع للعظمة لا للتكثير .

وقيل المعنى : " بأعيننا " أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك ومعونتك ، فيكون الجمع على هذا التكثير على بابه .

وقال مقاتل : معناه بعلمنا . وقال الضحاك وسفيان : معناه بأمرنا وبمعونتنا لك على صنعها (٣) .

---

(١) سورة هود ، آية ٣٧ .

(٢) سورة المؤمنون ، آية ٢٧ .

(٣) راجع تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٢٦٨ .
والقرطبى جـ ٤ ص ٣٢٥٨ .
وتفسير روح المعانى للآلوسى جـ ١٢ ص ٤٩ .

المعنى المراد : فقد أوصى الله الى نوح عليه السلام أن يعمل السفينة ، والفلك يطلق على الجمع كما يطلق على الواحد . قال تعالى : يا نوح اعمل السفينة ملتبسا بأعيننا ووحينا ، أى بما أوحينا اليك من كيفية صنعها .

وقال الامام الآلوسى : ما يلى : ((" ووحينا " اليك كيف تصنعها وتعليمنا ، أخرج اسحاق بن بشر ، وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه عليه السلام لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله تعالى اليه أن اجعل رأسها كرأس الديك ، وجؤجؤ كجؤجؤ الطير وذنبها كذنب الديك ، واجعل لها أبوابا فى جنبها وشدها بدسر وأمره أن يطليها بالقار ولم يكن فى الأرض قار ، ففجّر الله تعالى عين القار حيث ينصنعها يغلى غليانا حتى طلاها الخبر ، وفيه أن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام فعلّمه صنعتها)) (١) .

هكذا أوحى الله تبارك وتعالى الى نبيه الكريم نوح عليه السلام آمرا له أن يصنع سفينة النجاة من الطوفان ، وأمره أن يصنع السفينة بيده ، لأنه لا بد للانسان من الأخذ بالاسباب والوسائل ليستحق العون من ربه .

وذلك كان مع رعاية الله له ، تعليمه صناعة الفلك ، ليتمّ أمر الله وتتحقق مشيئته سبحانه وتعالى عن هذا الطريق .

---

(١) تفسير روح المعانى والسبع المثانى ، للآلوسى جـ ١٢ ص ٤٩ .

وقد صدر من الله عز وجلّ أمر آخر لنوح عليه السلام بأن لا يجادل ولا يحاول انقاذ أحد من أهل الكفر ، ولو كانوا هؤلاء من أقرب المقربين اليه ، وذلك ممن سبق عليهم حكم الله عز وجلّ بالغرق والهلاك .

قال الله له : (ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون) الآية أي يا نوح لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم . انهم محكوم عليهم بالاغراق . وقد جرى به القضاء وجفّ القلم فلا سبيل الى كفّه .

وقد اختلف المفسرون والمؤرخون في كيفية السفينة ، كما اختلفوا في طولها وعرضها .

جاء في البداية والنهاية ما يلي : ((قال بعض علماء السلف لما استجاب الله لنوح عليه السلام أمره أن يغرس شجرا ليعمل منه السفينة ، فغرسه وانتظره مائة سنة ، ثم نجره في مائة أخرى ، وقيل : في أربعين سنة .

وذكر محمد بن اسحاق عن التوراة أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج ، وقيل : من الصنوبر ، وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعا ، وعرضها خمسين ذراعا ، وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار .

وقال الحسن البصري : كانت عرض السفينة ستمائة ذراع وطولها ثلاثمائة ذراع ، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - كانت طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع ، فالله أعلم .

قالوا : كان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعا ثلاث طبقات . كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للانس ، والعليا للطيور . وكان بابها في عرضها . ولها غطاء من فوقها مطبق عليها (١)))

---

(١) البداية والنهاية ، للامام بن كثير جـ ١ ص ١١٠ .

وهذه الأخبار والأقوال لا تميل النفس لكثير منها .

ومنها ماهو بعيد كل البعد عن الحقيقة والواقع . مثل قول البعض ان طول السفينة كان ألفا ذراع ، وأنها صنعت من خشب الصنوبر . وأنه عليه السلام غرس شجرا وانتظر مائة سنة ، ثم نجرها في مائة أخرى . وغيرها من الأقوال العجيبة .

وهذه الأخبار قد تحتمل الصدق والكذب في نفس الوقت . ولكن أكثر هذه الأقوال لا أساس له ، وبعيد عن الحق .

والعلم عند الله عز وجل .

والواجب علينا أن نؤمن ونصدّق بما هو في كتاب الله ، وما ثبت في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم .

واذا لم نجد شيئا لا في كتاب الله تعالى ولا في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام فنأخذ أقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

ان هذه الأخبار وما شابهها قد تأتي من طريق الصحابة والتابعين ولكنهم أخذوا من روايات أهل الكتاب ، أو من روايات الذين أسلموا من أهل الكتاب ، وهم نقلوا هذه الأخبار من أهل الكتاب مجرد نقل ، ولكن في النهاية تسربت الى كتب التفسير والتاريخ . .

ثالثا : مرور قوم نوح عند صنعه السفينة وسخريتهم منه :

أخذ نبى الله نوح عليه السلام يصنع السفينة بعد أن أمره الله وأوحى اليه بذلك .

وجعل قومه الكفار يمرون عليه وهو يصنع السفينة فيهزؤن به ، ويسخرون منه ومن عمله الذى هو فيه ، والى ذلك المشهد أشار الله عز وجل بقوله : (ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) (١) .

معانى المفردات : " ما " فى قوله : " وكلما " المصدرية . والملأ : الاشراف . وقد سبق شرحه مرارا . ومعنى السخرية ـ الاستهزاء ، الكاف فى " كما " للتشبيه . ومعنى يخزيه : أى يذلّه ويفضحه ، ومعنى يحل عليه ، أى ينزل عليه .

وعذاب مقيم ، والمقيم معناه الدائم ، وهو عذاب الآخرة .

والمعنى : بدأ نوح عليه السلام بصنع السفينة ، وهو حكاية حال لاستحضار الصورة الماضية . وكلما كان قوم نوح يمرّون على نوح عليه السلام وهو فى حال صنع السفينة ، وكانوا يستهزؤن به ويسخرون من عمله الذى هو فيه .

وسبب السخرية منه عليه السلام ، اما أن قوم نوح ما كانوا يعرفون السفينة ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها ، فتعجبوا من ذلك وسخروا منه (٢) ، واما لأن نوحا عليه السلام كان يصنعها فى البر بعيدا

---

(١) سورة هود ، آية ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) أنظر تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٢٠٦ .

من الماء .

وكانوا يضحكون ويقولون : يا نوح كيف تجرى هذه السفينة ومن أين لك الماء ؟ وقيل فى سبب سخرية قوم نوح من نبيهم ، أنه عليه السلام كان ينذرهم بالغرق ، فلما طال مكثه فيهم ، ولم يشاهدوا منه أثرا من ذلك عدّوه من باب المحال ، ثم لمّا رأوا اشتغاله عليه السلام بأسباب الخلاص قالوا : يا نوح ما تصنع بها ؟ قال : أمشى بها على الماء فتعجبوا من قوله وسخروا منه .

ومهما يكن سبب سخريتهم بهذه الأسباب أوغيرها ، فان الذى يعنينا هو عداوة الكفار لنوح عليه السلام . ومادامت العداوة قائمة بين الأشراف وبين صاحب الدعوة نوح عليه السلام لابدّ لهم أن يأتوا بأشياء معادية له ولمعتقداته ، وهذا الصراع قائم بين الحق والباطل فى جميع الأزمان .

وبعد أن سخروا من نوح عليه السلام واستهزءوا به . أجاب عليه السلام ردّا لما قالوا ((قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون)) الآية .

والمعنى : قال نوح عليه السلام لقومه المستكبرين : يا قوم فانا نسخر منكم فى المستقبل كما أنتم تسخرون منا فى الحال . أى انا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة .(١)

قال الامام الآلوسى : ((واطلاق السخرية عليهم حقيقة ، وعلى نوح عليه السلام للمشاكلة لأنها لا تليق بالأنبياء عليهم السلام ، وفسرها بعضهم بالاستجهال ، وهو مجاز لأنه سبب للسخرية ، فأطلقت السخرية وأريد سببها))(٢)

---

(١) راجع تفسير الكشاف ، للزمخشرى ، جـ ٢ ص ٢٦٨ .
وراجع فتح القدير ، للشوكانى جـ ٢ ص ٤٩٧ .

(٢) تفسير روح المعانى ، للآلوسى جـ ١٢ ص ١٥ .

وجمع الضمير فى قوله "منا" اما لأن سخريتهم منه عليه السلام سخرية من المؤمنين أيضا ، أو لأنهم كانوا يسخرون من نوح ومن المؤمنين معا .

وقوله تعالى : ((فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه)) الآية .

وكان رد نوح عليه السلام عنيفا وتهديدا قويا وبليغا ، وأتى بحرف التسويف ليدل على الاستقبال . أى قال عليه السلام لهم : وفى المستقبل تعلمون وتشاهدون من يأتيه عذاب الخزى الذى يفضحه . وهذا عذاب الغرق فى الدنيا . و" من " اما اسم موصول فى محل نصب ، ويكون المعنى على هذا : فسوف تعلمون الذى يأتيه العذاب ؟ ،ويجوز أن تكون استفهامية .

أى فسوف تعلمون أينا يأتيه العذاب ؟

وبعد اتيان عذاب الخزى لهم وهو الغرق كما ذكرنا . ويحل على القوم أى ينزل عليهم عذاب دائم وهو عذاب الآخرة .

هكذا يكون جزاء الذين يكذبون الرسل ويسخرون منهم .

شأن قوم نوح وشأن أمثالهم فى جميع العصور فى ادراك الظواهر والعجز عن ادراك ما ورائها من حكمة وتقدير .

ونبى الله ورسوله نوح يتمّ كلامه مهددا اياهم : يا قوم سوف تعلمون من يأتيه العذاب المخزى الذى يذلّه ، وينزل عليه عذاب خالد دائم ؟ أنحن أم أنتم ؟ .

وبطبيعة الأمر والواقع لا يأتى العذاب الا على الذين كفروا بايات الله وأعرضوا عن قبول الحق .

وأن الخزى والعذاب على من كذّب وتولى .

رابعا : بيان الاسرائليات الباطلة في سفينة نوح عليه السلام :

وقد وردت الاسرائليات الباطلة في سفينة نوح عليه السلام ، كما وردت هذه الاسرائليات في قصص الأنبياء وغيرهم .
واشتملت عليها بعض كتب التفسير وكتب التاريخ أيضا .
وأتوا من العجائبل والغرائب .

وبيّنوا في هذه الروايات جميع أوصاف السفينة . من أي خشب صنعت ؟ وما طولها وما عرضها وما ارتفاعها ؟ وذكروا خرافات في خلقة بعض الحيوانات م من الأخرى .
وقد بلغ ببعض الرواة ، أنهم نسبوا بعض هذه الروايات الى النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن الروايات الباطلة في سفينة نوح ما جاء في تفسير الطبري كما يلي :

((عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ قال : قال الحواريون : لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها قال : فانطلق بهم ، حتى انتهى بهم الى كثيب من تراب . فأخذ كفّا من ذلك التراب بكفّه ، قال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : هذا كعب ـ أي قبر ـ حام بن نوح . قال : فضرب الكثيب بعصاه قال : قم باذن الله ، فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب . قال له عيسى : هكذا هلكت ؟ قال : لا ولكني متّ وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثمّ شبت . قال : حدثنا عن سفينة نوح قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها

ستمائة ذراع . وكانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الانس وطبقة فيها الطير . فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله الى نوح أن أغمز ذنب الفيل ، فغمزه ، فوقع منه خنزير وخنزيره ، فأقبلا على الروث ، فلما وقع الفأر بحبل السفينة يقرضه . أوحى الله الى نوح أن اضرب بين عينى الأسد ، فخرج من منخره سنّور وسنّورة ، فأقبلا على الفأر فأكلاه .

فقال عيسى : كيف علم نوح - عليه السلام - أن البلاد قد غرقت ؟

قال : بعث الغراب يأتيه بالخبر ، فوجد جيفة فوقع عليها ، فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت . قال : ثم بعث الحمامة فجائت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها ، فعلم أن البلاد قد غرقت . قال : فطوقها الخضرة التى فى عنقها ، ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان فمن ثمّ يألف البيوت ، قال : فقلنا يا رسول الله ألا ننطلق به الى أهلينا فيجلس معنا ويحدّثنا ؟ قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟

قال : فقال له عد باذن الله ، قال : فعاد ترابا .))(١)

ومن هذه الروايات الباطلة ، أورد الامام القرطبى فى تفسيره فقال ÷ :

((قال الزهرى : ان الله عز وجلّ بعث ريحا فحمل اليه من كل زوجين اثنين من كل السباع والطير والوحش والبهائم . وقال جعفر بن محمد : بعث جبريل فحشرهم ، فجعل يضرب بيديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى ، فيدخله السفينة

أليس هذه من الخرافات ؟

أليس الله قادرا على جمع هذه الحيوانات فى مكان واحد فى أقل وقت

---

(١) تفسير الطبرى ، للامام بن جرير الطبرى جـ ١٢ ص ٣٥ .

ممكن ؟ ثم بقدرة الله عز وجل أيضا أنه اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

وقال زيد بن ثابت : استصعب على نوح الماعزة أن تدخل السفينة ، فدفعها بيده في ذنبها ، فمن ثم انكسر ذنبها فصار معقوفا وبدا حياؤها . ومضت النّعجة حتى دخلت فمسح على ذنبها فستر حياءها ، قال ابن اسحاق : أخبرنا من أهل العلم أن نوحا - عليه السلام - حمل أهل السفينة ، وجعل فيها من كل زوجين اثنين ، وحمل من الهدهد زوجين ، فماتت الهدهدة في السفينة قبل أن تظهر الأرض ، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكانا ، فلم يجد طينا ولا ترابا ، فرحمه ربه فحفر لها في قفاه قبرا فدفنها فيه ، فذلك الزيش الناتئ في قفا الهدهد موضع القبر ، فلذلك نتأت أقفية الهداهد)) (١) .

أننا نرى خلال هذه الأقوال والروايات الخرافات المتنوعة ، ان الله خلق الماعز والنعجة على هذه الكيفية التي نراها . وأما أن يكون الزيش في قفا الهدهد موضع قبر ، فهذه الرواية أغرب من غيرها . تعالى الله عما يقولون علوّا كبيرا .

جاء في تفسير ابن كثير في بعض الروايات الى أن قال : . . . . . كان نوح عليه السلام " أول من أدخل للسفينة من الطيور الدرة ، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار ، فتعلق ابليس بذنبه ، وجعل يريد ان ينهض فيثقله ابليس وهو متعلق بذنبه ، فجعل يقول له نوح عليه السلام : مالك ويحك أدخل ، فينهض ولا يقدر .

---

(١) راجع تفسير القرطبي جـ ٤ ص ٣٢٧٢ .

فقال : أدخل وان كان ابليس معك فدخلا في السفينة .

وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحمى .) (١)

وفي بعض الروايات رأى نوح عليه السلام الشيطان في السفينة فقال له : يالعين ما أدخلك بيتي ؟ قال : أنت أذنت لي ، فذكر له .

فأما الذي روي من أن ابليس دخل السفينة فبعيد كل البعد ، لأنه من الجن ، وهو جسم ناري أو هوائي وكيف يؤثر فيه الغرق ؟ فالأولى ترك الخوض فيه وفي غيره من الخرافات . (٢)

وهناك روايات كثيرة تتعلق بالسفينة . وفي رواية : جاءت الحيّة والعقرب لدخول السفينة فقال نوح - عليه السلام - لا أحملكما ، لأنكما سبب الشرر والبلاء ، فقالتا : أحملنا فنحن نضمن لك ألّا نضر أحدا ذكرك .

وادّعوا أن السفينة مرّت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد رفعها الله عن الغرق ، ثم مضت الى اليمن ورجعت الى الجودي فاستوت عليه . . . .

هل رفع الله عز وجلّ البيت الى السماء عند الطوفان ؟

ونحن لا ندري كيف طافت السفينة حول البيت ،

ومن أين لهؤلاء الذين أتوا بهذه الروايات وهذه الأخبار والعلوم القديمة . وأنه لم يشاهد أحد من هؤلاء المشاهد والأحداث

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٤٨ .

(٢) راجع تفسير الرازي ، للامام فخر الدين الرازي جـ ١٧ ص ٢٣٨ .

التي وقعت في زمن نوح . وأنهم لم يقرؤا في كتاب الله ما يدل على ذلك ، ولم يرد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث صحيحة . وأن الرسول صلى الله عليه وسلم منزّه من أن يصدر عنه ما نسبوه اليه ، وانما هي أحاديث خرافة ، اختلقها اليهود وأمثالهم على توالي العصور .

ولما جاء الاسلام نشرها أهل الكتاب الذين أسلموا .

وهم رووها بحسن النية ، وانهم كانوا يعرفونها بأنها باطلة .

وأخذ زنادقة اليهود وأمثالهم زوروها وحرّفوها ونسبوها الى النبي صلى الله عليه وسلم زورا وبهتانا .

وأنه لا بد أن يحذر منها القارئ المسلم في أي كتاب من كتب التفسير أو التاريخ وجدها ....

الباب الثانى

الفصل السابع

مصير قوم نوح :

ويشمل على العناوين التالية :

١- مصير قوم نوح - الاهلاك بالطوفان .

٢- نجاة المؤمنين من الغرق مع نوح عليه السلام .

٣- وصف القرآن الكريم للطوفان .

٤- بداية الطوفان .

٥- انتهاء الطوفان .

٦ - أكان الطوفان عاما أو خاصا ؟ .

٧- أين يقع جبل الجودى الذى رست عليه السفينة ؟.

٨- الحوار الذى جرى بين نوح عليه السلام وابنه قبيل الطوفان .

٩- بيان المراد من قوله تعالى (يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح) مع شرح الآية الكريمة .

١ - مصير قوم نوح - الاهلاك بالطوفان :

كان مصير قوم نوح الذين كذّبوا بآيات الله عز وجلّ ، ولم يؤمنوا به وبما جاء به الاغراق والهلاك فى الدنيا بالطوفان . ومصيرهم بعد ذلك الى نار جهنم التى أعدت للكافرين فى الآخرة .

والله تبارك وتعالى أهلكهم بسبب تكذيبهم لآيات الله تعالى ، واصرارهم على البقاء فى الكفر والمعاصى وايذائهم لرسولهم نوح عليه السلام .

وكان قد أوضح الله تعالى لنوح عليه السلام بيان اهلاك قومه بالطوفان بعد يأس نوح من ايمانهم ، وبعد أمر الله له بصنع السفينة .

قال تعالى : (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون)(١)

المعنى : أمر الله تعالى فى هذه الآية الكريمة نوحا بعدم مراجعته فى قومه . كأنه قال : يا نوح لا تراجعنى فى شأن قومك فى تأجيل العذاب عنهم . انهم محكوم عليهم بالاغراق ، وقد وجب ذلك (٢) فانهم ظالمون ، ولا فائدة فى بقائهم .

فلم يبق الا أن يكونوا عبرة للمعتبرين ومثلا للآخرين .

وقد دلّت آيات أخرى على اهلاك قوم نوح بالطوفان بعد كفرهم وعصيانهم قال تعالى : (مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا)(٣)

المعنى : من أجل خطيئاتهم أغرقوا بالطوفان لا بسبب آخر .

---

(١) سورة هود ، آية ٣٧ .

(٢) راجع الكشاف ، للزمخشرى جـ ٢ ص ٢٦٨ .

(٣) سورة نوح ، آية ٢٥ .

وقرىء خطاياهم وخطيئتهم على الافراد ، والمراد بخطيئتهم هو الشرك (١) .

كما قال القرطبى :

وقوله : ((فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا)) فلم يجد هؤلاء الكفار فى الآخرة واحدا من الأنصار ، وأن الأصنام التى اتخذوها آلهة غير قادرة على نصرهم .

فان قوم نوح يدخلون النار بعد اغراقهم بالطوفان . وقد عبّر الله عز وجلّ بالماضى فى قوله " فادخلوا نارا " لاقتراب دخولهم النار وتحققه فى المستقبل لا محالة . ان ادخالهم النار موصول باغراقهم. والفاصل الزمنى القصير كأنه غير موجود ، لأن فى موازين الله تعالى لا يحسب شيئا .

قال الامام الزمخشرى : ((جعل دخولهم النار فى الآخرة كأنه متعقب لاغراقهم لاقترابه ولأنه كائن لا محالة ، فكأنه قد كان ، او أريد عذاب القبر ، ومن مات فى ماء أو نار أو أكلته السباع والطير أصابه ما يصيب المقبور من العذاب .

ومن الضحاك : كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب ، وتنكير النار اما لتعظيمها ، أو لأن الله أعدّ لهم على حسب خطيئاتهم نوعا من النار)) (٢) .

وهناك آيات أخرى تدل على اهلاك قوم نوح بالطوفان .

جاء فى سورة الاعراف قوله تعالى : (فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين) (٣)

المعنى : لما كذّب قوم نوح الرسول أنجاه الله والذين آمنوا معه من

---

(١) أنظر القرطبى جـ ٤ ص ٦٧٩٠ .

(٢) تفسير الكشاف ، جـ ٤ ص ١٦٥ .

(٣) سورة الاعراف ، آية ٦٤ .

الطوفان ، وأن الله تبارك وتعالى أغرق بالطوفان الذين كذّبوا بآياته .

وقوله : " انهم كانوا قوما عمين " أي أن قوم نوح كانوا عمى القلوب غير مستبصرين . ان قلوبهم قد عميت عن معرفة الحق والتوحيد .

يقال : رجل عم بكذا - وقرئ عامين ، والفرق بين العمى والعامى أنّ العمى يدل على عمى ثابت والعامى على عمى حادث . (١)

بيّن الله عز وجلّ فى هذه الآية أنه انتقم لأوليائه من أعدائه . ونجّى رسوله نوحا والذين آمنوا معه ، وأهلك أعداءه الكافرين بالغرق .

وفى سورة يونس قال تعالى : (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) (٢)

أخبر الله تعالى أنه أغرق قوم نوح بالطوفان بعد أن كذبوا نوحا عليه السلام . ثم يوجّه الله عز وجلّ خطابه الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويقول : يامحمد صلى الله عليه وسلم ، أنظر نظرة اعتبار كيف كان عاقبة قوم نوح الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا فى الأرض بغير الحق . وكان عاقبتهم الهلاك بالطوفان .

وقال تعالى أيضا فى سورة الفرقان : (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية) (٣) والله سبحانه وتعالى أغرق قوم نوح لما كذبوه . وأن الله جعل اغراقهم أو قصتهم آية وعبرة عظيمة يعتبر بها من شاهدها أو سمعها . (٤) وأشار البارى سبحانه فى سورة الأنبياء الى أنه أغرق جميع الكفار من قوم نوح وقال : (انهم كانوا قوم سوء - فأغرقناهم أجمعين) (٥) .

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٨٦ . والقرطبى جـ ٣ ص ٢٦٧١ .
(٢) سورة يونس ، آية ٧٣ .
(٣) سورة الفرقان ، آية ٣٧ .
(٤) راجع تفسير روح المعانى ، للآلوسى جـ ١٩ ص ١٩ .
(٥) سورة الأنبياء ، آية (٧٧)

٢ - نجاة نوح عليه السلام مع المؤمنين من الغرق :

وقد حكم الله سبحانه وتعالى ، وهو خير الحاكمين - حكم على قوم نوح المكذبين بالهلاك بالطوفان كما سبق توضيحه .

وحكم لنوح عليه السلام والذين آمنوا معه بالنجاة .

قال تعالى : (فكذبوه فنجّيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف)(١)

المفردات : نجّيناه : أى نوحا عليه السلام ، ومعنى الفلك : أى السفينة ، والفلك يطلق على الواحد والجمع ، كما سبق ذكره .

ومعنى الخلائف : ان الله سبحانه وتعالى جعلهم خلفاء يسكنون الأرض التى كانت للمهلكين بالغرق ، ويخلفونهم فيها .

والمعنى : أخبر الله تعالى بنجاة نوح عليه السلام ومن معه ، لأنه والقلة المؤمنة كانوا يواجهون خطر التحدى للكثرة الكافرة ، فلم تكن النتيجة مجرد هلاك الكفار ، بل كان قبلها نجاة نوح والذين معه من جميع الأخطار . وأن الله أراد باستخلافهم فى الأرض على قلتهم .(٢)

وجاء قوله تعالى فى سورة الشعراء : (فافتح بينى وبينهم فتحا ونجّنى ومن معى من المؤمنين . فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون)(٣)

ومعنى كلمة " المشحون " هو السفينة المملوءة ، والشحن ملأ ، السفينة بالناس والدواب والمتاع ، يقال : شحنت الاناء اذا ملأته .(٤)

المعنى : دعا نوح عليه السلام ربه عز وجل أن يحكم بينه وبين

---

(١) سورة يونس ، آية ٧٣ .

(٢) فى ظلال القرآن ، لسيد قطب جـ ٣ ص ١٨١٢ .

(٣) سورة الشعراء ، آية ١١٨ ، ١١٩ .

(٤) راجع تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ، ص ٣١٨
وراجع أيضا القرطبى جـ ٦ ص ٤٨٣٨ .

قومه بالعدل ، لكى يرى كل جزاء عمله ، وبعد ذلك طلب عليه السلام من الله تعالى أن ينجيه ومن معه من المؤمنين ، وقد استجاب البارى عز وجل دعاءه ، فأنجاه والذين آمنوا معه فى السفينة التى بناها بيده لهذا الغرض .

وقال تعالى فى موضع آخر : (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) (١) .

والمعنى : يقول الله تعالى : انا أنجينا نوحا ومن معه من الغرق .

قال ابن كثير : ما نصه : " أى جعلنا تلك السفينة باقية ، اما عينها كما قال قتادة : انها بقيت الى أول الاسلام على جبل الجودى ، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان " (٢) ، ويرجع الضمير فى "وجعلناها" الى السفينة أو للحادثة والقصة .

هذه سنة الله عز وجل فى الأرض وهذا وعده لأوليائه فيها ، فاذا طال الطريق على المؤمنين مرة ، فينبغى أن يعلم الدعاة أن هذا هو الطريق ، وأن العاقبة والاستخلاف للمؤمنين ...

وأن الله وعد النصر والنجاة لرسله الكرام عليهم السلام ، والذين آمنوا فى جميع الازمان ، والى ذلك أشار الله تعالى بقوله : ((ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين)) (٣) .

ومن سنة الله تعالى اذا أنزل بقوم عذابا أخرج من بينهم الرسل والمؤمنين ، لأنه سبحانه وعدهم بالنجاة ...

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ١٥ .

(٢) تفسير بن كثير ، جـ ٣ ص ٤٠٧ .

(٣) سورة يونس ، آية ١٠٣ .

٣ ـ وصف القرآن الكريم للطوفان :

بعد ما دعا نوح عليه السلام ربه عز وجل أن ينصره على قومه ، وأن ينتقم له منهم ، لأن قومه قد غلبوه ....

أجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه فنبهه .

وفتح أبواب السماء بماء المطر الغزير ، وفجّر جميع عيون الأرض ، والتقى ماء السماء وماء الأرض وارتفع الى أعالى الجبال .

لقد وصف الله تبارك وتعالى هذا المشهد فى كتابه الكريم وهو قوله : ((ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجّرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ولقد تركناها آية فهل من مدّكر)) (١) .

معانى المفردات :

ومعنى " منهمر " أى كثير سريع الانصباب ومنه يقال : همر الرجل اذا كثر من الكلام وأسرع ، والهمر : الصب (٢) .

ومعنى التفجير هو اخراج الماء بكثرة .

والتقى الماء : أى اجتمع : وذات ألواح أى السفينة .

ومعنى " دسر " أى المسامير التى شدّت بها السفينة .

وقيل : هى صدر السفينة التى تضرب بها الموج ، سميت بذلك بهـا لأنها تدسر الماء أى تدفعه .

وقيل أيضا : الدسار خيط من ليف تشد بها ألواح السفينة (٣) .

---

(١) سورة القمر ، آية من ١١ الى ١٥ .

(٢) راجع تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ص ٤٣١ .
والقرطبى جـ ٧ ص ٦٣٠١ ، والكشاف جـ ٤ ص ٣٧ .

(٣) أنظر المراجع التى ذكرت فى رقم اثنين من هذه الصفحة .

والمعنى المراد من الآيات الكريمة : هو أن الله تعالى قد وصف الطوفان بهذه الآيات ، وأنه تعالى فتح أبواب السماء بماء متدفق بكثرة وفجّر عيون الأرض .

وأن الله أوحى الى الأرض أن تخرج ماءها ، وأل فى قوله : " التقى الماء " للجنس والمعنى : التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قدّره الله وقضاه .

وقال ابن قتيبة : التقى ماء السماء وماء الارض على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده مثل ذلك الا من السحاب ، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فالتقى الماءان على أمر قد قدر (١) .

وقرأ ابن عامر ويعقوب من قراء السبعة : ففتحنا ، بالتشديد على التكثير .

وقوله : وحملناه على ذات ألواح ودسر يقول الله تعالى : نحن حملنا نوحا على سفينة ذات ألواح من الخشب ومسامير تربط بعض الخشب ببعض .

وقوله : " تجرى بأعيننا " أى تجرى السفينة فوق الماء بأمر الله تعالى وبمرأى منه وتحت حفظه ورعايته .

ويقول تعالى : جعلنا ذلك جزاء لنوح عليه السلام على صبره على أذى قومه ، و " من " كناية عن نوح عليه السلام .

وقال القرطبى ما يلى : ((ان " من " كناية عن الله تعالى ، والجزاء بمعنى العقاب ، أى عقابا لكفرهم لله تعالى .

---

(١) راجع الكشاف جـ ٤ ص ٣٨ ، والقرطبى جـ ٧ ص ٦٣٠٢ ، وراجع أيضا تفسير بن كثير جـ ٤ ص ٣٦٤ ، وروح المعانى جـ ٢٧ ص ٨٢ .

وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد " جزاء لمن كفر " بفتح الكاف والفاء بمعنى : كان الغرق جزاء وعقابا لمن كفر بالله)) (١) .

ومعنى قوله : " ولقد تركناها آية " أى ولقد تركنا السفينة عبرة ، وأما أن يرجع الضمير الى الفعلة التى فعل بقوم نوح ، وعلى هذا يكون المعنى : ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح واهلاكنا لهم آية لمن بعدهم ليتزجروا ويكفوا عن تكذيب الرسل .

ويقول الله تعالى : فهل من متعظ ومعتبر ؟ — يأخذ العبرة الكافية من قصة نوح عليه السلام ، ومن الطوفان بالذات حيث أغرق الله من فى الأرض من الكفار ونجى نوحا والذين معه .

وأصل " مدّكر " مفتعل من الذكر ، فقلبت التاء دالا وأدغمت الدال فيها

ما أروع هذه الصورة التى رسمها القرآن الكريم للطوفان ؟

مطر من السماء ، ولكن ليس كالمطر ، بل ماء غزير يحدث السيول فى كل مكان فى أقل وقت ، والأرض يفيض منها الماء ، ولكن ليس من مكان واحد أو أمكنة متفرقة ، بل الأرض كلها تتفجر عيونا ، ويجتمع ماء السماء وماء الأرض ، ويرتفع الى أعلى الجبال ليغرق المكذبين من قوم نوح ، ويكون ماء السماء وماء الأرض فى نفس المقدار .

كل ذلك من قدرة الله تبارك وتعالى .....

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٦٣٠٣ .

ووصف الله عز وجل الطوفان فى موضع آخر من القرآن الكريم وقال : (انا لمّا طغى الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) (١) .

معنى المفردات : طغى معناه : ارتفع وعلا . ومعنى " الجارية " أى السفينة الجارية . ومعنى " تذكرة " فى هذه الآية هى العظة والعبرة " وتعيها " أى تحفظها وتسمعها . ومعنى أذن واعية ، أى حافظة .

والمعنى : أخبر الله عز وجل لمّا أصر قوم نوح على فنون الكفر والمعاصى وبالغتهم فى تكذيب أيات الله تعالى ورسالة نوح عليه السلام .

وأن الله تبارك وتعالى يخاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويقول : لما طغى الماء وارتفع بشدة على كل شىء ، حملناكم فى أصلاب آبائكم فى السفينة الجارية فوق المياه .

وقال صاحب روح المعانى ما يلى : ((" حملناكم " أى فى أصلاب آبائكم ، أو حملنا آباءكم وأنتم فى أصلابهم على أنه بتقدير مضاف .

وقيل : على التجوز فى المخاطبين بارادة آبائهم المحمولين بعلاقة الحلول ، وهو بعيد .

" فى الجارية " فى سفينة نوح عليه السلام ، والمراد بحملهم فيها رفعهم فوق الماء الى انقضاء أيام الطوفان لا مجرد رفعهم الى السفينة ، كما يعرب عنه كلمة " فى " فانها ليست بصلة للحمل ، بل متعلقة بمحذوف هو حال من مفعوله أى رفعناكم فوق الماء وحفظناكم حال كونكم فى السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا)) (٢)

---

(١) سورة الحاقة ، آية ١١ ، ١٢ .

(٢) تفسير روح المعانى للآلوسى جـ ٢٩ ص ٤٢ .

ولما كان المقصود من ذكر قصة قوم نوح وذكر ما حل بهم من العذاب ان الله تعالى زجر أمة محمد صلى الله عليه وسلم عن الاقتداء بهم وبأمثالهم فى معصية الرسول . ولهذا قال تعالى : ((لنجعلها لكم تذكرة)) أى لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم آية يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم عبرة وموعظة تستدلون بها على عظيم قدرة الله تبارك وتعالى . وقيل : المعنى لنجعل هذه الفعلة التى هى عبارة عن انجاء المؤمنين واغراق الكافرين لكم تذكرة (١) .

ومعنى : " وتعيها أذن واعية " أى تحفظها أذن حافظة لما جاء من عند الله تعالى ، وشأن الاذن ما يجب حفظه بتذكره والتفكر فيه ، هكذا وصف الله تعالى الطوفان فى كتابه العزيز ....

وصف الطوفان فى التوراة :

جاء فى سفر التكوين وصف الطوفان مختلفا عما جاء فى القرآن الكريم ، ولا بد أنهم حرفوا وبدّلوا الحقائق فى وصف الطوفان وفى غيره .

وقد نقل الأستاذ عبد الوهاب النجار صاحب كتاب قصص الأنبياء ما نصه : ((فى سنة ستمائة من حياة نوح فى الشهر الثانى فى اليوم السابع عشر من الشهر ، فى ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الأرض ، وانفجرت طاقات السماء ، وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة ، فى ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم الى الفلك ، هم وكل الوحوش كأجناسها ، وكل البهائم كأجناسها ، وكل الطيور وكل عصفور كل ذى جناح

---

(١) راجع الكشاف جـ ٤ ص ١٥١ ، والقرطبى جـ ٨ ص ٦٧٤٢ .
وروح المعانى جـ ٢٩ ص ٤٢ ، وفتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٢٨١ .

ودخلت مع نوح الى الفلك اثنين اثنين من كل جنس فيه روح وحياة ، والداخلات دخلت ذكرا وأنثى من كل ذى جسد كما أمره الله ، وأغلق الرب عليه .

وكان الطوفان أربعين يوما على الارض ، وتكاثرت المياه ، ورفع الفلك وارتفع عن الارض ، وتعاظمت وتكاثرت جدا على الأرض ، فكان الفلك يسير على وجه المياه ، وتعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض ، فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت كل الماء ، وكان خمسة عشر ذراعا فى الارتفاع)) (١) .

هكذا جاء وصف الطوفان فى التوراة . ونحن لا نستطيع القول بأنها خرافات وغير صحيحة تماما ، ان بعض الأقوال قد توافق القرآن الكريم ولكن كما نشاهد فى هذه العبارات فيها مغالاة وبعض الخرافات كما فى أن المطر كان ينزل أربعين يوما ليلا ونهارا .

وأنهم حددوا اليوم الذى تحرك الفلك فيه ، ومن أغرب أقوالهم وأبعدها الى الحق هو قولهم : كان عمر نوح عليه السلام وقت حصول الطوفان ستمائة سنة ، وهذا مخالف لما جاء فى كتاب الله عز وجل .

حيث أن الله تعالى ذكر فى كتابه العزيز أنه عليه السلام دعا قومه الى الايمان بالله ألف سنة الا خمسين عاما .

قال تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون)) (٢) .

---

(١) قصص الأنبياء ، لعبد الوهاب النجار ص ٣٥ وما بعدها .
أنظر هامش الكتاب وذلك قد نقله من كتاب سفر التكوين ٧ .
(٢) سورة العنكبوت ، آية (١٤) .

٤ ـ بداية الطوفان :

فلما أتم نبى الله نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عدته ، وهو اتمام صنع السفينة .

وأن الله تبارك وتعالى كان قد جعل بينه وبين نبيه نوح عليه السلام علامة يبدأ الطوفان لكى يهيىء نوح والذين آمنوا معه عند بالدخول الى السفينة .

وجاء الموعد ، ورأى نوح عليه السلام الامارة التى بينها له ربه ـ على ابتداء أمر الطوفان ، وهو فوران التنور .

قال تعالى : (حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن) (١) الآية .

وقال تعالى فى سورة المؤمنون : (فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم) (٢)

معانى المفردات :

" فار التنور " فار معناه : نبع الماء ، والتنور : تنور الخبز ـ أى نبع الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها .

والمعنى المراد : فان الله عز وجل أخبر نبيه نوحا عليه السلام وقال : يا نوح اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة .

جاء فى القرطبى ما يلى : ((ان التنور وجه الارض ، والعرب تسمى وجه الارض تنورا . قاله ابن عباس رضى الله عنهما ـ وعكرمة والزهرى

---

(١) سورة هود ، آية (٤٠) .

(٢) سورة المؤمنون ، آية (٢٧) .

وابن عيينة ، وذلك أنه قيل له : اذا رأيت الماء على وجه الارض فاركب أنت ومن معك)) (١) .

وقد اختلفوا فى المراد فى التنور .

وقال بعض المفسرين : ان المراد بالتنور هو تنور الخبز ، ومن هؤلاء الامام الآلوسى حيث قال : ((والمراد من التنور تنور الخبز عند الجمهور وكان على ما روى عن الحسن ومجاهد تنورا لحواء تخبز فيه ، ثم صار لنوح عليه السلام وكان من حجارة . وقيل : هو تنور فى الكوفة فى موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلى باب كندة — وجاء ذلك فى رواية عن على كرم الله وجهه . وقيل : ليس المراد به تنورا معينا بل الجنس ، والمراد فار الماء من التنانير وفى ذلك من عجيب القدرة ما لا يخفى)) (٢)

والمراد بمجىء الأمر فى الآية : اما الامر بركوب السفينة ، وبالفوران أو — يكون المعنى : أن الله تعالى أمر السحاب بارسال المطر .

والله أعلم وأحكم بذلك كله .

والأصح من الأقوال والله أعلم هو : اما أن يكون مكان التنور الذى يخبز فيه الخبز ، أو هو وجه الأرض . والمعنى : صارت الأرض عيونا تفور ، حتى فار الماء من التنانير التى هى مكان النار صارت تفور ماء . وبعد ظهور العلامة لنوح عليه السلام أمره الله عز وجل أن يحمل فى السفينة من كل صنف من الحيوانات ، ويحمل معه أيضا أهله وغير أهله من المؤمنين ، وبعد هذا كله أمر نوح عليه السلام المؤمنين بركوب

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٢٦١ .

(٢) تفسير روح المعانى ، للآلوسى جـ ١٢ ص ٥٢ .

السفينة . وقال : اركبوا السفينة باسم الله عند جريانها وعند وقوفها وسكونها . والى هذا المشهد أشار الله عز وجل بقوله : (وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم)[1] .

ويحتمل أمر الركوب من نوح عليه السلام ، وكما يحتمل أن يكون من الله عز وجل . ولكن الأول أظهر . كما ينبيء عنه قوله تعالى : " ان ربي لغفور رحيم " أنه لو كان الضمير لله سبحانه . لكان المناسب أن يقول : " ان ربكم لغفور رحيم " .

وقوله : " باسم الله " متعلق باركبوا . أي اركبوا متمين الله عز وجل أو قائلين بسم الله وقت اجراء السفينة ووقت ارسائها .

ونبي الله الكريم أمر المؤمنين بالركوب بالسفينة ، ثم أخبرهم بأن سيرها ووقوفها باسم الله تعالى .

وقال الضحاك : ان نوحا عليه السلام كان اذا أراد أن يجريها يقول : بسم الله فتجري ، واذا أراد أن يرسيها قال : باسم الله فترسو[2] .

وقرأ الامام حمزة والكسائي من قراء السبعة بفتح الميم مجراها وبالامالة ومرساها بضم الميم . وقرأ عاصم بفتح الميم فيهما — مجراها ومرساها على المصدرية .

ان معنى الرسو هو السكون والثبات ، من رسى يرسو ، ورسا يرسى أيضا[3] .

---

(١) سورة هود ، آية (٤١) .

(٢) أنظر القرطبي جـ ٤ ص ٣٢٦٥ .

(٣) راجع تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ، ص ٢٠٤ .

قال صاحب روح المعانى كلاما جميلا عند تفسير قوله تعالى : " ان ربى لغفور رحيم " ما نصه : ((لولا مغفرته ورحمته اياكم لما أنجاكم من هذه الطامة • وفيه دلالة على أن نجاتهم لم تكن عن استحقاق بسبب أنهم كانوا مؤمنين ، بل بمحض رحمة الله تعالى وقرانه • على ما عليه أهل السنة • كأنه قيل : اركبوا فيها ذاكرين الله تعالى ولا تخافوا الغرق لما عسى فرط منكم من التقصير ، لأن الله تعالى شأنه غفور للخطايا والذنوب رحيم بعباده)) (١)

وبعد ركوب نوح عليه السلام السفينة ومن معه من المؤمنين بدأت السفينة تجرى فوق المياه والأمواج الهائلة • قال تعالى : (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) (٢) •

المعنى : ركب نوح عليه السلام والمؤمنون السفينة وهى كانت تجرى بهم فى أمواج • كل موجة عن ذلك كجبل فى ارتفاعها وتراكمها •

ثم ان الله تبارك وتعالى علّم نبيّه نوحا عليه السلام كيف يشكر نعمة ربه بعد ركوبه السفينة هو ومن معه من المؤمنين • وكما علّمه كيف يحمد فضله وكيف يستهدى طريقه •

وذلك قوله تعالى : (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) (٣) •

المفردات : معنى استويت : أى علوت • ومعنى النجاة : الخلاص•

---

(١) راجع تفسير روح المعانى جـ ١٢ ص ٥٨ •
(٢) سورة هود ، آية (٤٢) •
(٣) سورة المؤمنون ، آية ٢٨ ، ٢٩ •

والمعنى : يقول الله تعالى مخاطبا نبيه نوحا عليه السلام : اذا علوت يا نوح أنت ومن معك راكبين على السفينة فقل الحمد لله الذى نجانا وخلصنا من القوم الكافرين الظالمين .

كأن الله تعالى يقول لهم : احمدوا الله تعالى على تخلصه اياكم .

ثم أمر الله تبارك وتعالى نوحا عليه السلام أن يسأل ربه سبحانه بما هو أنفع وأتم فائدة . وقال : " وقل رب انزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين " الآية .

ومنزلا بضم الميم وفتح الزاى على المصدر هو الانزال . أى أنزلنى انزالا مباركا .

وقرىء أيضا " المنزل " بفتح الميم والزاى النزول وهو الحلول ، تقول : نزلت نزولا ومنزلا (١) .

قال الامام الشوكانى فى تفسيره ما يلى : " قيل : أمره سبحانه بأن يقول هذا القول : عند دخوله السفينة ، وقيل عند خروجه منها — وهو قوله : " رب انزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين " هذا ثناء منه على الله عز وجل اثر دعائه له .

قال الواحدى : قال المفسرون : انه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك : الحمد لله ، وعند نزوله منها : رب انزلنى منزلا مباركا " (٢) .

وفى الختام قال تعالى مشيرا الى أن ما وقع لقوم نوح لدلالات واضحات وقال : (ان فى ذلك لايات وان كنا لمبتلين) (٣) .

---

(١) راجع القرطبى جـ ٥ ص ٤٥١٢ .

(٢) فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٤٨٢ .

(٣) سورة المؤمنون ، آية (٣٠) .

٥ — انتهاء الطوفـــان :

بعد أن غرق أهل الارض ولم يبق على وجهها من الكافرين أحد ، أمر الله سبحانه وتعالى السماء أن تكف عن المطر ، وأمر الارض أن تبتلع المياه ، وأن تعود الحياة كما كانت على ظهر الأرض .

وكانت السفينة قد وصلت الى جبل الجودى الذى رست عليه . قال تعالى : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) (١) .

معانى المفردات : ومعنى ابلعى : اشربى وانشفى . يقال : بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع ، وبلع يبلع كعمد يعمد ، والبلع الشرب .

ومعنى اقلعى : أى امسكى عن ارسال المطر . الاقلاع ، الامساك يقال : أقلع المطر . اذا انقلع . ومعنى : غيض : أى نقص الماء . يقال : غاض الماء ونضته ، أى نقص ونقصته . كما يقال : نقص بنفسه ونقصه غيره .

ومعنى قضى : أى أنجز ما وعد الله نوحا من اهلاك كفار قومه .

وقال مجاهد (٢) : قضى هلاك قوم نوح

والمعنى المراد : قد وجّه الله تبارك وتعالى الخطاب الى الأرض والسى السماء بصفة العاقل ، فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل ، فتبلع الأرض ماءها وتكف السماء عن ارسال المطر . وقد حكم الله تعالى على قوم نوح بالهلاك — يعنى أهلك قوم نوح على تمام وأحكام .

---

(١) سورة هود ، آية (٤٤) .

(٢) راجع معانى هذه الكلمات . تفسير مجاهد جـ ١ ص ٣٠٢ . تحقيق عبد الرحمن الطاهر محمد . بيروت : المنشورات العلمية . وانظر أيضا الكشاف جـ ٢ ص ١٧١ . والقرطبى جـ ٤ ص ٣٢٦٩ وروح المعانى جـ ١٢ ص ٦١ .

والمجاهد : هو مجاهد بن جبر المكى المخزومى . أبو الحجاج مولى سائب بن سائب ، ولد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو من أصحاب ابن عباس رضى الله عنهما المقرىء والمفسر ، وكانت وفاته ١٠٤ ، أنظر ترجمته فى التهذيب لابن حجر جـ ١٠ ، ص ٤٢ ، وطبقات المفسرين للداودى جـ ٢ ص ٣٠٥ ، والاعلام جـ ٦ ص ١٦١ .

قال الامام القرطبى ما يلى : ((لو فتش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها وبلاغة رصفها واشتمال المعانى فيها . وفى الاثر : أن الله تعالى لا يخلى الارض من مطر فى عام أو عامين ، وأنه ما نزل من السماء ماء قط الا يحفظ ملك موكل به الا ما كان من ماء الطوفان ، فانه خرج منه ما لا يحفظه الملك ، وذلك قوله تعالى : (انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية)(١)

فجرت بهم السفينة الى أن تناهى الأمر ، فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالامساك وأمر الله الارض بالاقلاع))(٢) .

ومعنى قوله : ((استوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين))الآية قال مجاهد التابعى الجليل : الجودى جبل فى الجزيرة ، تشامخت الجبال منه يومئذ من الغرق ، وتواضع الجودى لله فلم يغرق ، وأرسيت عليه سفينة نوح عليه السلام(٣) .

ويقال : اكرم الله تبارك وتعالى ثلاث جبال بثلاث نفر .. الجودى بنوح ، وطور سيناء بموسى ، وحراء بسيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام . وقيل بعدا وخسارا للقوم الظالمين .

بعدا لهم من الحياة فقد ذهبوا ، وبعدا لهم من رحمة الله فقد لعنوا ، وبعدا لهم عن الذاكرة فقد انتهوا .

قال المفسرون : ان هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها لو فتش كلام العرب والعجم ما وجد مثل هذه الآية على حسن نظمها وبلاغتها .

قال الامام الشوكانى : وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآيـــة

---

(١) سورة الحاقة ، آية (١١) .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٢٦٨ .

(٣) راجع تفسير مجاهد جـ ١ ص ٣٠٤ .

الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة الى محل يتقاصر عنه الوصف ، وتضعف عن الاتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة الثابتى الأقدام فى علم البيان الراسخين فى علم اللغة المطلعين على ما هو مدون من خطباء العرب وأشعار شعرائهم المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها (١)))

وقد أشار الله سبحانه وتعالى الى انتهاء الطوفان أيضا ، وهبوط نوح عليه السلام ومن معه من السفينة الى الأرض ، وذلك بعد ما استقرت السفينة على بل الجودى ، وأنه سبحانه وتعالى أمرهم أن ينزلوا منها بسلام وأمان وبركات من الله عز وجل .

قال تعالى : (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) (٢) .

معانى الكلمات : الهبوط : النزول من مكان مرتفع ، ومعنى : بسلام منا أى بسلامة منا وأمن . ومعنى البركة : ثبوت الخير الالهى فى الشىء والمعنى : يقول الله عز وجل لنوح عليه السلام : يا نوح انزل من السفينة الى الارض بسلامة منا وأمن وتحية ، فقد ابتلعت الارض ماءها وجفت .

وبركات عليك" أى خيرات نامية فى نسلك وما يقوم به معاشك ومعاش الذين معك من أنواع الرزق (٣) .

ان الله تعالى قال : ((وأمم ممن معك)) أى وبركات على أمم ناشئة معك يا نوح الى يوم القيامة .

---

(١) تفسير فتح القدير ، للشوكانى . جـ ٢ ص ٥٠٠ .

(٢) سورة هود ، آية (٤٨) .

(٣) راجع تفسير أبى السعود ، جـ ٤ ص ٢١١ .

وقوله : " وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم "

أخبر الله تبارك وتعالى : ومن الذين كانوا مع نوح عليه السلام فـــى السفينة ستأتى من ذريتهم أمم ليسوا على صفتهم فى الايمان .

والمعنى المراد : يقول الله لنوح عليه السلام : وأمم سنمتعهم فى الدنيا بما فيها من المتاع ونعطيهم منها ما يعيشون به ، ثم يمسّهم منا فـى الآخرة عذاب مؤلم ...

وكانت هذه خاتمة المطاف . النجاة والبشرى لنوح عليه السلام ولمن يؤمن بالله من ذريته ، والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ولم يؤمنوا بوحدانية الله تعالى ، يمسّهم العذاب الاليم فى الآخرة .

جاء فى تفسير ابن كثير ما نصه : ((يخبر تعالى عما قيل لنـــوح عليه السلام حين أرسيت السفينة على الجودى من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين ، وعلى كل مؤمن من ذريته الى يوم القيامة كما قال محمد بن كعب : دخل فى هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يـــوم القيامة ، وكذلك فى العذاب والمتاع كل كافر وكافرة الى يوم القيامة)) (١)

---

(١) تفسير بن كثير ، جـ ٢ ص ٤٤٨ .

٦ - أكان الطوفان عاما أو خاصا ؟ :

هل عمّ طوفان نوح عليه السلام الكرة الأرضية أم لا ؟

ليس في القرآن الكريم ، ولا في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام . من أجل ذلك كانت هذه المسألة موضوع خلاف بين علماء التفسير وعلماء التاريخ .

ان بعض العلماء يميل الى عموم الطوفان ، ويرى فريق آخر أن الطوفان لم يكن عاما وشاملا ، بل كان خاصا .

أما الذين قالوا : بعموم الطوفان . استدلوا على أن نوحا عليه السلام كانت دعوته عامة بكونه دعا على جميع من في الأرض ، فأهلكوا بالغرق الا أهل السفينة .

قال الامام ابن كثير في عموم الطوفان ما نصه : ((وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الله تعالى ، ومع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان ، وأنه عمّ جميع البلاد . ولم يبق الله تعالى أحدا من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم ، وتنفيذا لما سبق في القدر المحتوم)) .(١)

ورأى الامام الآلوسي رحمه الله في عموم الطوفان غير متأكد .

ولكنه بعد سرد الكلام فيه بيّن أن المشهور هو عموم طوفان نوح عليه

---

(١) كتاب البداية والنهاية ، للامام بن كثير جـ ١ ص ١١٥ .

السلام . وقال : ((والمشهور أنه عليه السلام كان مبعوثا لجميع أهل الأرض ، وأنه ما آمن منهم الا قليل ، واستدل عليه بهذا الدعاء وعموم الطوفان ، وتعقب بأن الأرض ربّما تطلق على قطعة منها ، فيحتمل أن تكون هنا كذلك . سلمنا ارادة الجميع ، لكن الدعاء على الكافرين وهم من بعث اليهم ، فدعاهم ولم يجيبوه . وكونهم من عدا أهل السفينة أول المسألة ، والطوفان لا نسلم عمومه ، وان سلم لا يقتضى أن يكون كل من غرق به مكلفا بالايمان به عليه السلام عاصيا بتركه ، فالبلاء قد يعم الصالح والطالح لكن يصدرون مصادر شتى)) (١)

ومن الذين قالوا بعموم الطوفان الشيخ طنطاوى جوهرى وأتى بأقوال وآراء وقال : ((فقد قال علماء العصر الحديث : أنّ تغيّرا عظيما فجائيا طرأ على وضع محور الأرض وقلبيها ،

فاندفعت على اثره المياه على سطحها اندفاعا عاما . وانقرض فى هذا الطوفان كثير من الحيوانات ، ولجأ بعضها تخلصا من الغرق الى سقوف ومغاور فى أعالى الجبال ، فهلكت جوعا هناك ، أو بافتراس بعضها بعضا ، أو خنقا فى وسط المياه المندفعة عليها .

وقد كشف العلماء كثيرا من تلك المغاور الحاوية عظاما عديدة من الوحوش التى عاشت قبل حصول تلك الفاجعة .

وأضاف الشيخ طنطاوى جوهرى يقول : أنها قلبت وجه الأرض وبها انقرضت أنواع من الحيوانات . وتحوّلت المياه فجأة من مجاريها

---

(١) أنظر تفسير روح المعانى ، للآلوسى جـ ٢٩ ص ٨٠ .

وانه فعت بعزم على اليابسة فحطّمت الصخور واقتلعت الغابات وجرّدت الجبال من حللها السندسية . وتركت رواسب جديدة يقال لها : في علم الجيولوجيا " الطبقات الطوفانية " هذا هو الطوفان العام . ((١))

وصاحب هذا القول قال بعموم الطوفان ، وذكر أيضا أن بعض الحيوانات لجأ الى سقوف ومغاور تخلّصا من الغرق فى أعالى الجبال . وقد سبق أن ذكرنا أن المياه قد ارتفعت فوق الجبال بخمسة عشر ذراعا ،واذا كان الماء قد ارتفع بهذا القدر فوق أعالى الجبال كيف يمكن تخلص هذه الحيوانات من الغرق ؟ .

ومن الذين قالوا بعموم الطوفان الشيخ عبد الوهاب النجار حيث قال : ((ان بعض العلماء يميل الى عمومه . ويقول بعض علماء الجيولوجيا : اننا كلما بحثنا فى أعالى الجبال وجدنا بقايا حيوانية من الأحياء التى لا تعيش الا فى الماء .

وهذا يستدعى وجود الطوفان على هذه الجبال ، فلا مانع من أن يكون الطوفان وأثره الباقى ، ويكون قد عم جميع الكرة الأرضية)) (٢) .

وقد بيّنا فيما سبق آراء العلماء الذين قالوا : بعموم الطوفان . وقال بعض العلماء الآخرين ان الطوفان كان خاصا .

---

(١) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الايات الباهرات ، لمؤلفه الشيخ طنطاوى جوهرى جـ ٦ ص ١٤٣ . القاهرة : مطبعة البابى الحلبى تاريخ الطبع ١٣٤٦ هـ .

(٢) قصص الأنبياء ، عبد الوهاب النجار ص ٣٦ .

وأن النوع الانسانى لم يكن منتشرا فى ذلك الزمان فى جميع الكـــــرة الأرضية ، بل كانوا منحصرين فى الناحية التى عمّها الطوفان .

وأن قوم نوح قد أهلكوا وبقى نوح ومعه أهله والذين آمنوا من قومه .

وهناك من ذهب الى أن عموم الطوفان وخصوصه محتمل .....

ومنهم الامام الحافظ ابن حجر العسقلانى رحمه الله تعالى .

حيث قال : ((واستدل بعضهم على أن نوحا عليه السلام كانت دعوته عامة . بكونه دعا على جميع من فى الأرض فاهلكوا بالغرق الا أهـــل السفينة .. لو لم يكن مبعوثا اليهم لما أهلكوا لقوله تعالى : (وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا) (١) ولم ينقل من النبى صلى الله عليه وسلم أو من غيره بأنه كان يوجد فى عهد نوح أنبياء غيره ، ويحتمل أنه لم يكن فى الأرض عند ارسال نوح الا قوم نوح .

فبعثته خاصة لكونها الى قومه فقط ، وهى عامة فى الصورة لعدم وجود غيرهم)) (٢) .

وقول ابن حجر رحمه الله يقتضى بأن العموم محتمل والخصوص - محتمل .

وقد ظهر لنا من أقوال وآراء العلماء أن الطوفان كان عاما لجميع الأرض وأن الله فجر جميع عيون الأرض ، وأمر السماء بارسال المطـر ليعم الطوفان جميع الكرة الأرضية .

وهذا الرأى الراجح من الأقوال ... والله أعلم .

---

(١) سورة الاسراء ، آية (١٥) .

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ،لابن حجر العسقلانى جـ ١ ص ٤٤٧ .

وهناك من ينكر الطوفان جملة وتفصيلا .

وهؤلاء لا يؤمنون بالله تعالى ولا بالكتب التي أرسلها الله الى العباد .

وكتاب الله قد صرح بوقوع الطوفان في آيات متعددة .

وكما أخبر التوراة والانجيل بوقوعه .

وقد بيّن الامام ابن كثير في كتابه البداية والنهاية تفصيل ذلك ، فقال : ((وقد أنكر طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان واعترف به آخرون منهم وقالوا : انما كان بأرض بابل ، ولم يصل الينا الى أن قال - هذا من قاله من زنادقة المجوس وعباد النيران ، وأتباع الشيطان . وهذا كفر منهم ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب السماوات والأرض . (١)

وهكذا أنكر الكفار وقوع الطوفان . والذين أنكروا الطوفان هم لا يؤمنون بوحدانية الله تبارك وتعالى ، ولا يؤمنون بما أنزله الله على رسله الكرام . والذي لا يؤمن بوجود الله ، كيف يؤمن بوقوع الطوفان ، أو غيره ممّا أوحى الله الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . ؟

---

(١) راجع كتاب البداية والنهاية ، لابن كثير جـ ١ ص ١١٥ .

٧ - أين يقع جبل الجودى الذى رست عليه السفينة ؟

لقد جاء في أقوال المفسرين والمؤرخين القدامى على السواء أن جبل الجودى الذى رست عليه السفينة هو فى جزيرة ابن عمر رضى الله عنهما بقرب الموصل .

ويقع هذا الجبل على ما قالوا : امتداد بين العراق وتركيا فى وقتنا الحاضر ، أي قريبا من مدينة الموصل .

وقال التابعى الجليل مجاهد بن جبر رحمه الله أن الجودى هو جبل فى الجزيرة .(١)

جاء فى قول الامام ابن جرير ما نصه : ((جبل الجودى مطل على جزيرة ابن عمر فى الجانب الشرقى من دجلة ، من أعمال الموصل .(٢)))

أما الامام ابن كثير بيّن فى كتاب البداية والنهاية وقال : ((وقد ذكر الله تعالى فى كتابه الجودى على التعيين ، وهو جبل عظيم شرقى جزيرة ابن عمر الى جانب دجلة عند الموصل . امتداده من الجنوب الى الشمال مسيرة ثلاثة أيام ،وارتفاعه مسيرة نصف يوم ، وهو أخضر لأن فيه شجرا من البلوط ، والى جانبه قرية يقال لها قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا فى السفينة مع نوح عليه السلام فى موضعها فيما ذكره غير واحد من المفسرين))(٣)

وذكر المسعودى فقال : ان جزيرة ابن عمر ببلاد الموصل وبين الجودى

---

(١) راجع تفسير مجاهد جـ ص ٣٠٤ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١١٩ .

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ٢٢ .

والد جلة ثمانين فرسخا ، ووضع جنوح السفينة على رأس هذا الجبل الى هذه الغاية . (١)

هذا ما تقدم من أقوال العلماء والمؤرخين انهم اتفقوا على أنّ جبل الجودى يقع فى جزيرة ابن عمر ، وهذه الجزيرة بقرب الموصل ،

والامام الآلوسى لم يعلق على ذلك ، واكتفى بالقول بأن المشهور هو جبل بالموصل . (٢)

وقد أورد الامام القرطبى أقوالا وروايات وقال : ((الجودى جبل بقرب الموصل . استوت عليه السفينة فى العاشر من المحرم يوم عاشوراء فصامه نوح - عليه السلام - وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه شكرا لله تعالى .

قيل كان ذلك يوم الجمعة . وروى أن الله تعالى أوحى الى الجبال أنّ السفينة ترسو على واحد منها فتطاولت ، وبقى الجودى لم يتطاول تواضعا لله ، فاستوت عليه ، وبقيت عليه أمداد ها)) (٣)

أما صوم من معه من الانسان جائز ، وأما صوم ما كان من الحيوان - ما نسلّمه ، وأغلب الظن عندى أن هذا من الاسرائيليات التى دست فى بعض كتب المفسرين ونقله بعض المفسرين بحسن النية .

والله أعلم وأحكم ،

(١) راجع كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ ، لمؤلفه على بن الحسين المسعودى ، المتوفى سنة ٣٤٦هـ . جـ ١ ص ٤٠

(٢) روح المعانى ، للآلوسى جـ ١٢ ص ٦١ .

(٣) تفسير القرطبى ، جـ ٤ ص ٣٢٦٩ .

٨ - ..... الحوار الذى جرى بين نوح وابنه قبيل الطوفان :

عند ما بدأت السفينة تجرى بنوح عليه السلام ومن معه فوق الأمواج . فى هذه اللحظة الحاسمة أبصر نوح عليه السلام ، فاذا أحد أبنائه فى معزل عنهم وليس معهم .

وفى هذا الوقت دفعته عاطفة الأبوة أن يناديه ليركب السفينة مع سائر أهله ، ولا يكون من زمرة الكافرين .

ولكن الابن الكافر كان بعيدا عن السفينة بسبب اصراره على الكفر .

والى هذا المشهد أشار الله عز وجلّ بقوله : (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنىّ اركب معنا ولا تكن من الكافرين قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين)(١)

معنى المفردات : معزل : أى وكان فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن موكب المؤمنين . والمعزل مفعل من عزله عنه اذا نحاه وأبعده(٢)

معنى سآوى : أى سأنضم وأرجع . ومعنى قوله : يعصمنى : أى يحفظنى ويمنعنى منه(٣) ومعنى : " وحال بينهما الموج " أى بين نوح وابنه الكافر ، فتعذر خلاصه من الغرق .

أما المعنى المراد : عند بداية الطوفان : دعا نوح عليه السلام ابنه الكافر الذى لم يستجب لدعوة أبيه دعاه ليركب سفينة النجاة مع والده

---

(١) سورة هود ، آية ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) راجع الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٠ .

(٣) راجع تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ص ٢٠٤ .
والقرطبى جـ ٤ ص ٣٢٦٧ .

ومع المؤمنين الذين معه ، فان ذلك يمكن تصوره قبل أن تنقطـــــع العلاقة بين السفينة والبر ، وجرى ما جرى بين نوح وابنه من الحوار باستدعائه الى السفينة .

وكان الابن فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه واخوته وقومه .

ونوح عليه السلام دعا ابنه الكافر الى ركوب السفينة معه لكى لا يكون من الكافرين الذين حكم عليهم بالغرق .

ناداه نوح عليه السلام بالتصغير من باب الرأفة به .

وقرأ عاصم أحد قراء السبعة بفتح الياء فى " بنىّ " وقرأ بادغام الباء فى الميم فى " اركب معنا " وقرأ الباقون بكسر الياء فى " بنىّ "

وقد قال الامام أبو السعود عند قوله " كان فى معزل " : ((كان فى معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ، ولذلك دعاه الى السفينة . وقيل : كان ينافق أباه فظن أنه مؤمن . وقيل : كان يعلم أنه كافر الى ذلك الوقت لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الأهوال ينزجر عما كان عليه ويقبل على الايمان (١))) وقوله : " قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء " كان الابن الكافر يظن أن ما تجرى عوارض طبيعية عادية ، وكان يأمل النجاة من الغرق بدون ركوب سفينة نوح ، ولكن أنى له ذلك ؟

قال : سأصعد الى جبل من الجبال يحفظنى بارتفاعه من الماء فلا يصل الىّ . وردّ نوح عليه السلام على قول ابنه قائلا : لا مانع اليـــوم

---

(١) تفسير أبى السعود ، جـ ٤ ص ٢١٠ .

فانه يوم قد حق فيه العذاب على الكافرين .

والمراد : يقول نوح لابنه : لا معصوم اليوم من أمر الله الا من رحم ، والمراد : ولا عاصم اليوم من الطوفان الا من رحم الله (١)

كأن نوحا عليه السلام قال لابنه : لا جبال تمنعك من الغرق ولا مخابئ ولا أحد يستطيع أن يقي نفسه الا من ركب السفينة وتغمده الله برحمته .

وحال بين نوح وابنه الموج فانقطعت بينهما المجاوبة وجاءته الأمجواج فغرق مع من غرق فكان من المغرقين الهالكين .

هكذا كان مصير ابن نوح ، حاول الخلاص من الغرق ، ولم يكتب الله له النجاة والسعادة . فباءت محاولته بالفشل . لأنه لم يستجب لنداء والده المشفق .

كيف ينجو من قضاء الله وقدره ، وأنى له ذلك ؟

(٩) ..... بيان المراد من قوله تعالى : " يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح " مع شرح الآية الكريمة .

ثارت الشفقة في قلب نبي الله نوح عليه السلام على ابنه الذى لم يركب السفينة معه ، وأنه سأل الله عز وجلّ أن ينجيه من الغرق ، والله تعالى قد وعده من قبل بأنه سينجّيه مع أهله ، وابنه من أهله ، وهو اذا وعد وفّى وعده ، وأنه لا يخلف الميعاد .

جاء ذلك في قوله تعالى : (ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) (١)

المعنى المراد من الآية الكريمة : دعا نوح عليه السلام مخاطبا ربه عز وجلّ قال : رب ان ابنى من أهلى الذين وعدتنى بانجائهم بحملهم في الفلك .

وقال عليه السلام : يا رب ان وعدك الذى وعدتنى بالنجاء أهلى حق كأنه قال : وانّ كلّ وعد تعده فهو الحق الثابت الذى لا شك في انجازه والوفاء به وقد وعدتنى أن تنجى أهلى فما بال ولدى ؟ (٢)

قال الآلوسى : ما نصه : ((المعنى هنا انك أكثر حكمة من ذوى الحكم ، على أن الحاكم من الحكم كالدراع .. الى أن قال : ومنهم من فسره بأعلمهم بالحكمة)) (٣)

وأن الله حكم على المؤمنين بالنجاة وعلى الكافرين بالغرق وهو خير الحاكمين .

---

(١) سورة هود ، آية (٤٥) .

(٢) أنظر تفسير الكشاف ، جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٣) راجع روح المعانى ، للآلوسى جـ ١٢ ص ٦٨ .

وبعد أن سأل نوح عليه السلام ربه عز وجلّ نجاة ابنه من الغرق ، أجيب من قبل الله تعالى بأنه ليس من أهله الذين وعد بنجاتهم .

وكأنه قال : انا قلنا لك يا نوح واحمل أهلك الا من سبق عليه القول منهم . وكان ابنك ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره . ولهذا ساقته الأقدار ، فغرق مع حذبه أهل الكفر والضلال .

قال الله عز وجلّ : (قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) (١)

لمعنى المراد : لما كان دعاء نوح عليه السلام بتذكير وعد الله تعالى مبيّنا على كون كنعان من أهله . فقد نفى الله عز وجلّ أن يكون هو من أهله ، وأكّد سبحانه بقوله : ((انه ليس من أهلك الذين وعدتك بانجائهم ، لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية ، ولا قرابة بين المؤمن والكافر . (٢)

والقرابة والأهل عند الله وفى دينه وميزانه ليسوا قرابة الدم ، وانما هم قرابة العقيدة ، وابن نوح لم يكن مؤمنا ، فليس اذن من أهله .

قال الامام الطبرى فى ذلك : ((يا نوح ان الذى أغرقته وأهلكته الذى تذكر أنت أنه من أهلك وهو ليس من أهلك . واختلف أهل التأويل فقال بعضهم : انه ليس من ولدك ، وهو من غيرك .

---

(١) سورة هود ، آية ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) راجع تفسير بن كثير جـ ٢ ص ٤٤٨ .
وتفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٢١٢ .

وقيل : انه لم يكن ابنه • وقيل هو ابن امرأته من غيره •

وعن مجاهد قال : بيّن الله لنوح أنه ليس بابنه • (١)

قال الجمهور : أنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم •

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو ابنه • ما بغت امرأة نبي قط •

وقال سعيد بن جبير : قال الله : وهو الصادق وهو ابنه • المراد أنه ليس من أهل دينك وملتك)) (٢)

وفى كلام الامام الطبرى أن رأى الجمهور هو الراجح ، وأنه ابنه حقيقة وأنه نفى البنوة لأنه كان كافرا رعمل عملا غير صالح •

وهنا قد يردنا السؤال ، وهو : ان نهى الله نوح عليه السلام كيف دعا ربه وسأله بنجاة ابنه العاصى الكافر من الغرق ؟ مع أنه عليه السلام كان قد تلقى من الله عز وجل نهيا يقول : (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون) (٣) وكما أن نوحا عليه السلام كان قد دعا على الكافرين بالهلاك ، وعدم ابقاء واحد منهم على الأرض• وهو قوله تعالى :

(وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا) (٤) •

ونجيب على هذا السؤال بما قاله الامام القرطبى فى ذلك بقوله :

((انما سأل نوح عليه السلام ربه ابنه لقوله " وأهلك " وترك قوله : " الا من سبق عليه القول " فيدل على ذلك قوله : " ولا تكن مع الكافرين " أى لا تكن ممن لست منهم ، لأنه كان عنده مؤمنا فى ظنه

---

(١) ان قول مجاهد هذا يعنى أن ابن نوح ليس ابنه من صلبه ، وانما كان ربيبا ابن امرأته من غيره •

(٢) تفسير الطبرى ، لابن جرير الطبرى جـ ١٢ ص ٤٩ وما بعدها •

(٣) سورة هود ، آية (٣٧) •

(٤) سورة نوح ، آية (٢٦) •

ولم يك نوح عليه السلام يقول لربه : " ان ابنى من أهلى " الا وذلك عنده كذلك . اذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل انجاء بعضهم . وكان ابنه يسرّ الكفر ويظهر الايمان ، فأخبر الله تعالى بما هو مغفور به من علم الغيوب - أى علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت)) (١) .

هذا هو القول الراجح فى هذه المسألة ، كما قال به كبار أئمة المفسرين وأنه كان ابنه حقيقة ، ولكنه كان مخالفا أباه فى الدين والعمل .

ولهذا قال البارى سبحانه : " انه عمل غير صالح " .

قرأ جمهور القراء " عمل " على لفظ المصدر . بتنوين عمل ورفع غير . وقرأ الكسائى أحد قراء السبعة " انه عمل غير صالح " على صيغة الماضى ونصب غير .

ويكون المعنى : يا نوح انه عمل عملا غير صالح من الكفر والتكذيب .

ومعنى القراءة الاولى المبالغة فى ذمه . كأنه جعل نفس العمل ، وأصله ذو عمل غير صالح ، ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل (٢) .

وقال الامام فخر الرازى : ((والآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب ، فان فى هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقرب الوجوه ، ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الالفاظ وهو قوله : " انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح " (٣)

---

(١) تفسير القرطبى ، الجامع لاحكام القرآن ، جـ ٤ ص ٣٢٧٣ .

(٢) راجع فتح القدير ، للشوكانى ، جـ ٢ ص ٥٠٢ .
وروح المعانى ، للآلوسى جـ ١٢ ص ٦٩ .

(٣) تفسير الرازى ، للامام فخر الدين الرازى جـ ١٨ ص ٣ .

ولما كان دعاء نوح عليه السلام مبنيًا على كون ابنه من أهله ، فقد نفى ذلك وحقق بيان علته ، ثم نهى الله عز وجل نبيه نوحا عن مثل هذا السؤال وقال سبحانه : " فلا تسألن ما ليس لك به علم " المعنى : كأنه قال : لا تطلب منى يا نوح أى مطلب ليس لك به معرفة وعلم تام بأن حصوله صواب وموافق للحكمة أم غير صواب .

وقوله : " انى أعظك أن تكون من الجاهلين " أى انى أعظك يا نوح خشية أن تكون من الجاهلين بحقيقة وعد الله وتأويله .

فوعد الله عز وجل قد أول وتحقق ..

هكذا نهى الله نوحا عليه السلام عن هذا السؤال وحذره لئلا يكون من الآثمين .

قال ابن العربى : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ، ويعليه الى مقام العارفين .(١)

وجاء فى تفسير روح المعانى ما نصه : ((المراد النهى عن وقوع السؤال فى المستقبل بعد أن أعلمه سبحانه باطن أمره ، وأنه ان وقع فى المستقبل فى السؤال كان من الجاهلين ، والغرض من ذلك تقديم ما يبقيه عليه السلام على سمة العصمة ، والموعظة لا تستدعى وقوع ذنب بل المعصوم منها أن لا يقع الذنب فى الاستقبال ، ولذلك امتثل عليه السلام ذلك واستعاذ بالله تعالى أن يقع منه ما نهى عنه))(٢)

وقال تعالى : (قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفرلى وترحمنى أكن من الخاسرين .)(٣)

المعنى : قال نوح عليه السلام سائلا غفرانه عز وجل : بعد أن علم

---

(١) أنظر تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٢٧٥ .

(٢) تفسير روح المعانى للآلوسى . جـ ١٢ ص ٧١ .

(٣) سورة هود ، آية (٤٧) .

وأن سؤاله لم يطابق الواقع ، وأن دعاءه ناشىء عن وهم بادر الى الاعتراف بالخطأ وطلب فيه المغفرة والرحمة . قال : رب انى أعوذ بك أن أطلب منك ما لا علم لى بصحته وجوازه ، وان لا تغفر لى ذنبى ما ادعوت به على غير علم منى وترحمنى أكن من الخاسرين فى أعمالى .

قال أبو السعود فى تفسيره ما يلى : ((وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه ، وانما لم يقل : أعوذ بك منه مبالغة فى التوبة ، اظهارا للرغبة والنشاط فيها ، وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى . وهو أبلغ من أن يقول : أتوب اليك ان أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمرا هائلا محذورا لا محيص منه الا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره الا بذلك . (١)

هكذا نأتى الى نهاية القصة من قصة سيدنا نوح عليه السلام .

وفى نهاية الأمر ندم نوح عليه السلام على ما صدر منه واعترف بذنبه . وعرف حق المعرفة أن لا قرابة بين الكافر والمؤمن مهما كانت القرابة من جهة النسب .

واذا ما تأمل الانسان المسلم ذلك الحكم العادل علم أنه تعالى جعل الولد فى جملة الهالكين وجعل نوحا فى عداد المرسلين ، وأنها لعبرة كبرى أن يكون الوالد فى عداد الناجين والابن فى جملة الهالكين ، لأن الولد كان قد عمل أعمالا غير صالحة ...

ولعل فى هذه القصة عبرة للذين يعتمدون على أنسابهم ويتكلون على غير عملهم .

(يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) (٢)

---

(١) تفسير أبى السعود ، جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٢) سورة الشعراء ، آية ٨٨ ، ٨٩ .

((الخاتمـــــــــــة))

فى استنتاج أهم الأفكار والعبر والعظات من قصة نوح عليه السلام وبعد هذه الدراسة المتواضعة لقصة نوح عليه السلام ، فاننا نجد فى قصته مواقف تحمل فى طياتهـا كثيرا من العظات والعبر .

فقد كانت قصته مع قومه تمثل حلقة فى سلسلة الصراعات منذ زمن بعيد بين الحق والباطل .

ومن هذه العبر والعظات :

أولا : أنه لا يقلل من شأن الأنبياء والمرسلين عليهم السلام أن يكون فى أبنائهم أو من يربطه بهم نسب أو مصاهرة بعض الكفار .

ولا يعتبر ذلك سبب عار فى حقهم ولا يضرهم ذلك شيئا .

فقد كان ابن نوح عليه السلام كافرا وأبوه شيخ المرسلين وأحد أولى العزم من الرسل وكانت زوجته كافرة ، كما كانت زوجة لوط كافرة وزوجها لوط رسول من عند اللـه تعالى .

وكان أبو ابراهيم الخليل كافرا من رؤس الكفر وابنه ابراهيـــم أبو الأنبياء وأحد أولى العزم من الرسل عليهم السلام .

والمعتبر هو قرابة الدين وليس قرابة النسب ، كما هو الشأن فى ابن نوح الذى نفى اللـه أن يكون ابنا لنوح عليه الســلام لأن عملـه غير صالح .

ثانيا : جرت حكمة اللـه تعالى فى خلقـه منذ قديم الزمان أن الحـق أعوانه قليلون وأما الباطل فأعوانه كثيرون على مدى الأيام وتعاقب الأجيـــال .

فمنذ أول الزمان ولد الحق والباطل توأمان على مسرح هذا الوجود ، ونشآ وشبّا معا ، وما زالا مقترنين متلازمين لا يفترقان .

فقد وجد أبو البشر آدم عليه السلام ، ووجد ابليس اللعين الذى كان سببا فى اغوائه حتى أخرجه من الجنة ، ثم أخذ العهد على نفسه أن يحتنكّن ذريته الا قليلا .

وقد عقد العزم الصادق على ذلك دأبا دون انقطاع .

فأخذ ذريته وجنوده يترصدون للحق وأتباعه .

وهكذا كلما وجد للحق أهل يؤمنون به ويعتقدونه ويتشهدون به وجد عصبة للباطل تناوئهم وتقاومهم وتعرقل سيرهم .

وتقف سدّا منيعا حاجزا بينهم وبين أتباع الحق .

(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون)[1]

فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون عاقبة الحق أن ينتصر ونهاية الباطل أن يندمر .

وها هو التاريخ يعيد نفسه على مرّ الأزمان .

فدولة الباطل ساعة ..... ودولة الحق الى قيام الساعة .

فلقد ولّى أشراف وكبراء قوم نوح الكفار وجميع الطغاة فى زمن نوح وآلهتهم المزعومة — بينما بقى ذكر نوح عليه السلام مخلّدا فى الآخرين .

---

(١) سورة التوبة ، آية (٣٢) .

ثالثا : أن طريق الدعوة شاق وطويل تعترضه النكبات وتعرقل سيره العقبات وتحيط به المخاطر ، فليس هو مفروشا بالورود .

قال تعالى : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)[1] .

وقد رأينا كيف لاقى نوح عليه الصلاة والسلام فى تبليغ دعوة ربه تلك العقبات وصنوف الاذى من قومه حتى اتهموه بالجنون .

رابعا : جرت سنة الله تعالى بحفظ أنبيائه وعباده الصالحين .

فهو يتولاهم بالحفظ والعناية والرعاية والنصر والتأييد ، وأنه سبحانه وتعالى لا يتخلى عن أوليائه ولا يدع الصالحين من عباده

قال تعالى : (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا)[2]

وقد حفظ الله تبارك وتعالى رسوله نوحا عليه السلام من كيد قومه ، كما حفظه ومن معه من الغرق .

وأهلك الله الكفار ومعهم ابن نوح الكافر وزوجته الكافرة .

خامسا : من صفات الداعية الصبر وعدم اليأس من ايمان قومه .

وكان من حلم نوح عليه السلام وحسن موقفه الجميل وصبره حتى مع أعدائه وخصومه ، وعلى رأسهم أشراف قومه الذين هددوه بالرجم .

قال تعالى : (قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين)[3]

كان من حلمه عليه السلام أن يقابل ذلك الجفاء والغلظة من قومه بطيب نفس ورحابة صدر ورضاء خاطر .

---

(١) سورة العنكبوت ، آية (٢) .

(٢) سورة المؤمن ، آية (٥١) .

(٣) سورة الشعراء ، آية (١١٦) .

ولم يقف عند هذا الحد بل كان يشفق عليهم ويقول :

(استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا)[1] .

ولكن قومه أصروا على الكفر والضلال ولم يلتفتوا الى دعوته ومواعظه .

سادسا : ثقة النبوءة من ربه عز وجل في أصعب الظروف وأشد الأزمات فنوح عليه السلام حينما كان قومه يؤذونه ويهددونه كان يقول : " اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون " وعندما يسخرون منه ومن علمه في صنع السفينة كان عليه السلام رابط الجأش مطمئن الفؤاد عظيم الايمان وكان يقول لهم : (ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم)[2] .

سابعا : أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أوتوا من الحكمة البالغة ما يتمكنون به من مواجهة جميع فئات الناس على مختلف مستوياتهم وتباين اتجاهاتهم واقناعهم بالحجة ، ومناظرتهم بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية الواضحة التي توضح المبهم وتفصل المجمل وتكشفه .

وتكون أقطع للخصوم وأبين للناس .

كما حصل لقوم نوح مع رسولهم نوح عليه السلام حيث كان يقول لهم : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا)[3]

---

(١) سورة نوح من آية ١٠ الى ١٤ .

(٢) سورة هود ، آية ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) سورة نوح ، آية ـ ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

ثامنا : أن المؤمن اذا فقدت رابطة الدين بينه وبين آخر ينبغي أن لا تبقى معها صلة من رابطة نسب أو مصاهرة أو مصلحة أو غيرها من الروابط والصلات .

فنوح عليه السلام دعا ربه بنجاة كنعان من الغرق لأنه ابنه ، ولما أعلمه الله عز وجل أن ابنه كافر ، وبيّن له أنه ليس ابنه وليس من أهله لانه عمل أعمالا غير صالحة ولم يؤمن بالله تعالى . ولا قرابة بين المؤمن والكافر .

استعاذ بربه أن يكون من الجاهلين في سؤال ابنه ..

قال تعالى : (يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن مالیس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) "١"

وقال تعالى في موضع آخر : (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم) "٢"

تاسعا : على الداعية أن يتحلى بالصبر الجميل ، فبالصبر ينال المرء ما يريد . لأنه يواجه المدعوين على اختلاف واسع في طباعهم وأخلاقهم وأفكارهم ، فلا بد من الصبر الذى يمكن الداعية من استمالة هؤلاء جميعا في صفه بدلا من النفور عنه .

---

(١) سورة هود ، آية ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) سورة المجادلة ، آية (٢٢) .

وقد مرّ بنا صبر نوح عليه السلام على أعدائه وخصومه • وكان يقابلهم بالكلام الطيب مقابل معاملتهم الخشنة السيئة • وكان يخاطبهم ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن •

والله أعلم بالصواب

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم باحسان الى يوم النشور وسلم تسليما كثيرا •

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •

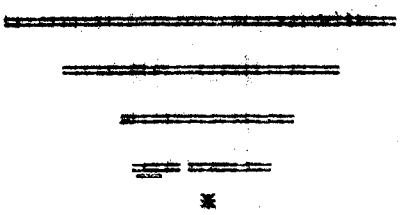

فهرست المراجع

القرآن الكريم

١ ـ كتب الحديث

٢ ـ البخاري : محمد ابن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي . المتوفى سنة ٢٥٦ هـ
الجامع الصحيح مع شرحه في كتاب فتح الباري لشرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني .

٣ ـ مسلم : المطبعة السلفية .

٣ ـ مسلم : مسلم ابن الحجاج بن مسلم بن ورد القشيري النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١ هـ .
الجامع الصحيح ، مع شرحه في كتاب شرح الامام النووي .
ط الثانية .
بيروت : دار احياء التراث العربي ، تاريخ الطبع ١٣٩٢هـ

كتب التفسير

٤ ـ ابن كثير : اسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي أبو الفداء عماد الدين . المتوفى ٧٧٤ هـ .
تفسير القرآن العظيم .
بيروت : دار الطباعة والنشر ، ١٤٠٠هـ .

٥ ـ أبو السعود : محمد بن محمد بن مصطفى العمادى الحنفى أبو السعود المتوفى ٩٥١هـ .
ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم .
بيروت لبنان : دار احياء التراث العربى .

٦ ـ الآلوسى : السيد محمود أفندى أبو الثناء شهاب الدين المتوفى ١٢٧٠هـ .
تفسير روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى .
بيروت : دار الطباعة المنيرية .

٧ ـ جوهرى : الشيخ الحكيم طنطاوى جوهرى .
تفسير الجواهر ، المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات .
القاهرة : مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ط ١٣٤٦هـ .

٨ ـ حجازى : د. محمد محمود حجازى .
التفسير الواضح .
الطبعة السابعة ، القاهرة : مطبعة الاستقلال الكبرى ط ١٣٩٢

٩ ـ الرازى : أبو عبد الله محمد ابن عمر بن الحسين بن الحسن بن على التيمى البكرى الطبرستانى الملقب بفخر الدين الرازى الشافعى . المتوفى ٦٠٦هـ .
التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب .
الطبعة الثانية . طهران : دار الكتب العلمية .

١٠ — رشيد رضا : الشيخ رشيد رضا .
تفسير المنار .
الطبعة الاولى ، مصر : مطبعة المنار ، ط ١٣٩٢هـ .

١١ — الزمخشرى : أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمى الحنفى المعتزلى الملقب بجار الله المتوفى ٥٣٨هـ
الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل .
بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ط ١٣٩٩هـ .

١٢ — سيد قطب
فى ظلال القرآن .
بيروت : دار الشروق ، ١٣٩٩هـ .

١٣ — الشنقيطى : محمد الأمين محمد المختار الشنقيطى .
أضواء البيان فى ايضاح القرآن بالقرآن .
الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ .

١٤ — الشوكانى : محمد بن على بن عبد الله الشوكانى الصنعانى .
المتوفى ١٢٥٠هـ .
الجامع لفنى الرواية والدراية من علم التفسير المسمى بفتح القدير .
الطبعة الثانية . مصر : مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ط ١٣٨٣ .

١٥ — الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى المتوفى ٣١٠هـ .
جامع البيان عن تأويل آى القرآن .
الطبعة الثالثة . مصر : مطبعة مصطفى الحلبى وأولاده ١٣٨٨هـ

١٦ ـ القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكـــــر الانصاري الخزرجي الاندلسي القرطبي المالكي المتوفى ٦٧١هـ الجامع لاحكام القرآن .

القاهرة : دار الشعب ٩٢ شارع القصر العيني .

١٧ ـ القاسمي : محمد جمال الدين القاسمي .

تفسير القاســـمي .

الطبعة الاولى . القاهرة : مطبعة دار احياء الكتب العربية ١٣٧٧ هـ .

١٨ ـ مجاهـــد : مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج المخزومـــي التابعي . المتوفى ١٠٤ هـ .

تفسير مجاهد ، تحقيق عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي

بيروت : مجمع البحوث الاسلامية .

١٩ ـ المراغي : أحمد مصطفى المراغي .

تفسير المراغي .

الطبعة الثالثة ، القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبـــي ط ١٣٨٢ هـ . كتب مفردات القرآن .

٢٠ ـ ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري المتوفى ٢٧٦هـ .

تفسير غريب القرآن . تحقيق السيد أحمد صقر .

بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٣٩٨ هـ .

٢١ ـ الاصفهانى : أبو القاسم حسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهانى . المتوفى ٥٠٢ هـ .
المفردات فى غريب القرآن .
تحقيق محمد سيد كيلانى .
مصر : مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، ط ١٣٨١هـ

كتب شروح الحديث

٢٢ ـ ابن حجر : الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى .
فتح البارى شرح صحيح الامام البخارى ، المتوفى ٨٥٢ هـ .
المطبعة السلفية .

٢٣ ـ النووى : محى الدين أبو بكر يحى بن شرف الحزامى ـ الحوارين الشافعى ، المتوفى ٦٧٦ هـ .
شرح الجامع الصحيح للامام مسلم .
الطبعة الثانية ، بيروت : دار احياء التراث العربى تاريخ الطبع ١٣٩٢ هـ .

كتب التاريخ والسير والقصص

٢٤ ـ ابن الاثير :
الكامل فى التاريخ لابن الأثير المتوفى ٦٣٠هـ .
بيروت : دار الكتب العربى .

٢٥ ـ ابن كثير : اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى البصرى أبو الفداء عماد الدين المتوفى ٧٧٤ هـ .
البداية والنهاية فى التاريخ
بيروت : مكتبة المعارف .

٢٦ — ابن كثير : اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى المتوفى ٧٧٤هـ •
قصص الانبياء • تحقيق : مصطفى عبد الواحد
الطبعة الاولى •
القاهرة : مطبعة دار التأليف ٨ شارع يعقوب •
تاريخ الطبع ١٣٨٨ هـ •

٢٧ — تهامى نقرة : سيكلوجية القصة فى القرآن •
طبع فى الشركة التونسية لفنون الرسم •
تاريخ الطبع ١٩٧٤ م •

٢٨ — الثعلبى : أبو اسحاق أحمد بن ابراهيم الثعلبى النيسابورى
المتوفى ٤٢٧هـ •
العرائس فى قصص الأنبياء •
مصر : مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه •

٢٩ — السيد عبد الحافظ عبد ربه •
بحوث القصص القرآنى •
بيروت : دار الكتب اللبنانى •

٣٠ — الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن
غالب الطبرى ، المتوفى ٣١٠ •
تاريخ الرسل والملوك •
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الثانية •
مصر : دار المعارف ، تاريخ الطبع ١٣٨٧ هـ •

٣١ — عبد الكريم الخطيب •
القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه •
بيروت : دار المعرفة للطباعة ، تاريخ الطبع ١٩٧٥م •

٣٢ ـ عبد الوهاب النجار ،
قصص الأنبياء ،
القاهرة : مطبعة مصطفى البابى الحلبى وشركاه ،

٣٣ ـ المسعودى : على بن الحسين المسعودى ،
المتوفى ٣٤٦هـ ،
مروج الذهب ومعادن الجوهر ،

كتب اللغة والتراجم

٣٤ ـ ابن منظور : محمد بن مكرم بن على جمال الدين بن منظور الأنصارى ، المتوفى ٧١١هـ ،
لسان العرب فى اللغة ،
بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، تاريخ الطبع ١٣٧٥ هـ ،

٣٥ ـ حاجى خليفة : المولى مصطفى بن عبد الله القسطنطينى الحنفى المعروف بحاجى خليفة ، المتوفى ١٠٦٧ هـ ،
كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ،
بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، تاريخ الطبع ١٤٠٢ هـ ،

٣٦ ـ الداودى : الحافظ شمس الدين محمد بن على بن أحمد الداودى ، المتوفى ٩٤٥هـ ،
طبقات المفسرين ، تحقيق : على محمد عمر ،
الطبعة الأولى ، القاهرة : مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية ١٣٩٢ هـ ،

٣٧ ـ الذهبى : حسين الذهبى ، التفسير والمفسرون ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار الكتب الحديثة ١٤ شارع الجمهورية ،

٣٨ - الزبيدى : محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسينى الزبيدى .
تاج العـــروس .

٣٩ - زركلـــى : خير الدين الزركلى .
الأعلام - قاموس التراجم .
الطبعـــة الثامنـــــــة .

٤٠ - عمـــر رضـــا كحـــالـة .
معجم المؤلفين ، تراجم مصنفى الكتب العربية .
بيروت : دار احياء التراث العربى .

٤١ - المعجم المفهرس لألفاظ الـقرآن الكريم .
وضعـه محمد فؤاد عبد الباقى .
القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية . ١٣٦٤هـ .

٤٢ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى .
رتّبه ونظمـه المستشرقون .
ونشره الدكتور : أ ، ي . ونسنك سنة ١٩٣٦م .

" كتـب عامـــــة "

---

٤٣ - ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم النميرى الحرّانى الدمشقى الحنبلـى تقى الدين بن تيمية . المتوفى ٧٢٨هـ .
كتاب الـنبوات .
بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر .

٤٤ - ابن قيم الجوزيـــة : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى . المتوفى ٧٥١هـ .
مدارج السالكين بين المنازل اياك نعبد واياك نستعين .
تحقيق : محمد حامد الفقى .
بيروت : دار الكتاب العربى .

٤٥ - ابن قيم الجوزيـــة : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى .
زاد المعاد فى هدى خير العباد .
تحقيق : محمد حامد الفقى .
مطبعـــة السنة المحمديـــة .

٤٦ - أبو الحسن على الحسنى الندوى .
النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن .
الطبعـــة الثالثـــة .
بيروت : ١٣٧٨ . (الناشر بدون) .

٤٧ - أحمـــد فائز .
طريق الدعـــوة فى ظلال القرآن .
(اسم الناشر والتاريخ بدون) .

٤٨ - الدكتور بكرى شيخ أمين .
التعبير الفـنى فى القرآن .
بيروت : دار الشروق للطباعـة ، تاريخ الطبع ١٣٩٦هـ .

٤٩ - عبد الرحمن حبّنكة الميدانى .
العقيدة الاسلامية وأسسها .
الطبعة الأولى . ١٣٨٥هـ . (الناشر بدون) .

٥٠ - د . عبد اللـــه الآلوسي .
تاريخ الدعوة الى الله بين الأمس واليوم .
الطبعـة الثانيـة . القاهرة : مكتبة وهبـة .
تاريخ الطبع ١٣٩٩هـ .

٥١ - عفيف عبد الوهاب طبّارة .
مع الأنبياء في القرآن .
الطبعـــة الخامسة .
بيروت : دار العلم للملايين . (التاريخ بدون) .

٥٢ - عفيف عبد الفتاح طبّارة .
روح الدين الاسلامي .
الطبعـة العشرون ، بيروت : دار العلم للملايين .
تاريخ الطبع ١٩٨٠م .

٥٣ - فتحي يكن .
مشكلات الدعـــوة والداعيـــة .
الطبعة الثالثة ، بيروت : مؤسسة الرسالـــة .
تاريخ الطبع ١٣٩٤هـ .

٥٤ - محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني المتوفى ١٣٢٣هـ
رسالـــة التوحـــيد .
تحقـــيق محمـــد أبو ريّة .
الطبعـة الرابعـــة ، مصر : دار المعارف .

٥٥ - محمد أحمـد العـدوي .
دعوة الرسل الى اللـــه تعالى .
بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشـــر .
تاريخ الطبع ١٣٩٩هـ .

٥٦ - محمد علي الصابوني .
النبوة والأنبياء .
الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ (الناشر بدون) .

٥٧ - دكتور محمد ابن الشريف .
الأديان في القرآن .
الطبعة الثالثة ، الناشر : دار عكاظ للطباعة والنشر
١٩٧٩ م .

٥٨ - محمد محمد أبو شهبة .
الحدود في الاسلام ومقارنتها بالقوانين الوضعية .
القاهرة : مطبعة الأمينية ١٣٩٤هـ .

- محمد المبارك .
نظام الاسلام .
الطبعة الثالثة ، بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر
١٣٩٣هـ .

٦٠- محمد الغزالي .
كتاب هذا ديننا .
الطبعة الثالثة ، بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر
تاريخ الطبع ١٣٩٥هـ .

منّاع القطّان .
مباحث في علوم القرآن .
بيروت : مؤسسة الرسالة ، (الناشر بدون) .

٦٢ - الدكتور مصطفى عبد الواحد .
شخصية المسلم كما يصوّرها القرآن الكريم .
الطبعة الرابعة ، القاهرة : مكتبة المتنبّى . شارع الجمهورية . ١٣٩٩هـ .

٦٣- الدكتور يوسف القرضاوى .
الصبر كما يصوّرها القرآن الكريم .
الطبعة الأولى ، القاهرة : مكتبة وهبة . شارع الجمهورية بعابدين . تاريخ الطبع ١٣٩٧هـ .

فهرست الموضوعات

المقدمة :

سبب اختيارى لموضوع الرسالة .

بيان منهجى فى كتابة هذه الرسالة .

((الباب الأول)) صفحة

الفصل الأول :

بيان ضرورة ارسال الأنبياء والرسل ، ٣ - ٢٠

حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل

فوائد بعثة الرسل ١٧

الفصل الثانى

بيام أن أصول الأديان واحدة ، وشرائعهم

مختلفة ٢١ - ٣٩

شرائع الأنبياء مختلفة ٢٩

أخذ الله الميثاق على النبيين والمرسلين

أنهم ان جاءهم رسول مصدق لما معهم

أن يؤمنوا به ويصدقوه ٣٤

ألفصـــل الثالـــث صفحـــــة

مقاصـد القصص في القرآن الكريم ، وبيان الأسرار والحكم في أنّ القرآن الكريم لم يسق القصـــص القرآني مستـاق التاريخ . ٤٠ - ٦٤

مفـهوم القصة في القرآن الكريم . ٤٢

أنواع القصص في القرآن الكريم . ٤٣

منـهج القرآن الكريم في قصصـه . ٤٤

قصص الأنبيـاء . ٤٥

ألحكمة من قصص الأنبياء والرسل ٤٦

أسلوب العرض القصصي في القرآن الكريم ٤٧

ألتكرار في قصص القرآن الكريم . ٤٩

لماذا التكرار في القصص القرآني ؟. ٥١

هل في تكرار القصص القرآني تعارض ؟ ٥٢

أهداف القصص في القرآن الكريم . ٥٤

بيان الأسرار والحكم في أنّ القرآن الكريم لم يسق القصص القرآني مساق التاريخ . ٦٠

عرض القرآن الكريم لأحداث التاريخ ٦٢

((البـــاب الثانـــــى))　　صفحـــــة

الفصل الأول

حياة نوح عليه السلام ونسبه　　٦٦ - ٧٦

نشأة نوح عليه السلام .　　٦٨

بيان عمر نوح عليه السلام .　　٧١

المدة التى قضاها نوح عليه السلام فى الدعوة الى اللـــه .　　٧٣

الفصـل الثانـــى

بيان الفرق بين النبى والرسول　　٧٦ - ٩٧

معنى النبوة والرسالة فى اللغة والشرع .　　٧٦

الفرق بين النبى والرسول .　　٧٩

صفات الأنبياء والرسل .　　٨٦

بيان أن نوحا عليه السلام نبى ورسول .　　٩٠

متى أرسل نوح عليه السلام ؟ .　　٩٤

الفصل الثالث — صفحة

الأسس التي قامت عليها دعوة نوح عليه السلام ٩٨ - ١٥٥

أولا : ألايمان بوحدانية الله تعالى وعدم

الاشراك به . ٩٨

دعوة نوح عليه السلام قومه الى عبادة الله

وحده ١٠١

ذكر براهين عقلية على وحدانية الله تعالى ١٠٥

وحدة الأنظمة الكونية تدل على وحدانية

الله تعالى . ١٠٦

ثانيا : ألايمان بيوم القيامة . ١١١

ضرورة الايمان باليوم الآخر .

اثبات القرآن الكريم لليوم الآخر . ١١٥

ثالثا : عقيدة ألايمان بالرسل عليهم السلام ١١٧

نوح عليه السلام رسول من عند الله وأنه

بشير ونذير . ١١٩

ألايمان بالأنبياء والرسل من أركان العقيدة ١٢٢

وجوب عقيدة الايمان بالله تعالى لا تنفك

عن الايمان بالأنبياء والرسل ١٢٣

صفحـــــــة

لكل أمّـة رسول ١٢٤

رابعا : الأنبياء والرسل من البشر لا من الملائكة ١٢٧

اعتراض قوم نوح على نبيهم أن يكون رسولا

وهو بشر مثلهم . ١٣١

اعتراض المشركين على بعثة الرسل من البشر ١٣٥

خامسا : أنّ نوحا عليه السلام رسول من اللـه وناصح

أمين لقومه كغيره من الرسل . ١٣٨

الرسول ناصح لقومـه . ١٣٩

سادسا : أنّ الرسل لا يأخذون أجرا على تبليغ

الرسالـــة . ١٤١

مطالبة قوم نوح أن يطرد نوح الفقراء

الذين آمنوا من عنده . ١٤٣

سابعا : صبر نوح عليه السلام . ١٤٧

الصبر على الشدائد والمصائب . ١٥٠

الصبر على مشاق الدعوة الى اللـه تعالى ١٥٢

ثامنا : التذكير بمظاهر قدرة اللـه تعالى . ١٥٣

الفصـــل الرابـــع

الموضـــوع	الصفحـــة
أساليب نوح عليه السلام فى الدعوة الى الله	١٥٦ - ١٨٤
أولا :	
أسلوب دعوة نوح عليه السلام .	١٥٧
الدعوة بالحكمة فى دعوة نوح .	١٥٨
كان نوح على بينة وبصيرة من ربه فى دعوة قومه .	١٥٩
الدعوة بالموعظة الحسنة فى رسالة نوح عليـــه السلام .	١٦٢
المجادلة بالتى هى أحسن فى دعوة نوح .	١٦٦
ثانيا :	
مقابلة نوح عليه السلام جهل سفه قومه بالعلـم والحلـم .	١٧١
ثالثا : مقابلة نوح عليه السلام ردّ قومه الشديد باللين والرقـــة .	١٧٢

الموضـــوع	الصفحـــة
رابعا : دعوة نوح عليه السلام قومه الى الحق ، ومقابلة قومه الحق بالباطل ، وافتراءاتهم الباطلة عليه ، وطعنهم فى رسالته .	١٧٧
خامسا : عدم يأس نوح عليه السلام من ايمان قومه ، ومداومة الدعوة لهم على الرغم من جهلهم وسفههـــم .	١٧٩
الفصـــل الخامـــس	
موقف قوم نوح منه ، وتكذيبهم لـــه عليـــه السلام .	١٨٥ - ١٩٧
بيان من آمن من قومه ومن أهله .	١٩٠
بيان المقصود من خيانة امرأة نوح لـــه عليه السلام ، وأن الله نزّه الأنبياء أن تقع من زوجاتهم فاحشة .	١٩٥
الفصـــل الســـادس	
يأس نوح عليه السلام من ايمان قومه ، ودعائه عليهم	١٩٨ - ٢١٨
أولا : دعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك .	٢٠٣
ثانيا : أمر اللـــه لنوح بصنع السفينة .	٢٠٧

الموضـــــوع	الصفحـــــة
ثالثا : مرور قوم نوح عند صنعه السفينة ، وسخريتهم منه .	٢١١
رابعا : بيان الاسرائيليات الباطلة فى ذكر أوصاف سفينـــة نوح .	٢١٤
الفصـــل السابـــع	
مصير قوم نوح عليه السلام .	٢١٩ - ٢٥٥
١ - الاهلاك بالطوفـان .	٢٢٠
٢ - نجاة نوح وقومه المؤمنين من الغرق .	٢٢٣
٣ - وصف القرآن الكريم للطوفان .	٢٢٥
٤ - بداية الطوفـان .	٢٣١
٥ - انتهـاء الطوفـان .	٢٣٦
٦ - أكان الطوفان عاما أو خاصا ؟	٢٤٠
٧ - أين يقع جبل الجودى الذى رست عليه السفينة ؟	٢٤٥
٨ - الحوار الذى جرى بين نوح وابنه قبيل الطوفـان .	٢٤٧
٩ - بيان المراد من قوله تعالى : ((يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح))	٢٥٠
الخاتمـة : ٢٥٦ فهرست المراجع والمصادر	٢٦١